التبيان

في علوم القرآن

بقلم

محمد علي الصابوني



دار الكتب


مركز القائمية
للبحوث والتحريات الكمبيوترية - أصبهان
www.Ghaemiyeh.com

اشارة

سرشناسه : صابوني، محمدعلي
Sabuni, Muhammad Ali
عنوان و نام پديدآور : التبيان في علوم القرآن: محاضرات في علوم القرآن تبحث عن نزوله و.../ محمدعلي صابوني
مشخصات نشر : اروميه : روضه سماآ، ۱۳۸۵.
مشخصات ظاهري : ص ۲۳۱
شابك : 964-96719-0-۰۰ ۱۵۰۰۰ ريال :
وضعيت فهرست نويسي : فهرستنويسي قبلي
يادداشت : عربي
يادداشت : فهرستنويسي براساس اطلاعات فيپا
يادداشت : كتاب حاضر در سالهاي مختلف توسط ناشران مختلف منتشر شده است
يادداشت : كتابنامه به‌صورت زيرنويس
موضوع : قرآن -- علوم قرآني
موضوع : قرآن -- تحقيق
رده بندي كنگره : BP۶۹/۵/ص۲ت۲ ۱۳۸۵
رده بندي ديويي : ۲۹۷/۱۵
شماره كتابشناسي ملي : م۸۴-42226

مقدّمة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم الحمد للّه رب العالمين، و الصلاة و السلام علي المبعوث رحمة للعالمين، و علي آله و أصحابه و التابعين لهم بإحسان إلي يوم الدين.

و بعد:

فهذه مذكّرات في (علوم القرآن) كتبتها لطلبة (كلية الشريعة و الدراسات الاسلامية) بمكة المكرمة تحقيقا للمنهج الدراسي في الكلية، و حرصا علي فائدة أبنائنا الطلبة، الذين يرغبون في العلم، و يحرصون كل الحرص عليه.

و قد رأيت ان أجمعها في كتاب تعميما للفائدة و نشرا للعلم.

و اللّه أسأل ان يجعلها خالصة لوجهه الكريم، و أن ينفعنا بها يوم الدين، يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَي اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ «1» و هو حسبنا و نعم الوكيل.

غرة رجب الفرد 1390 ه.

محمد علي الصابوني المدرس بكلية الشريعة و الدراسات الإسلامية بمكة المكرمة

---

(1) سورة الشعراء الآية 88 و 89.

التبيان في علوم القرآن، ص: 7

الفصل الأوّل علوم القرآن

تمهيد

يقتضينا علم التفسير، أن نلمّ إلمامة موجزة، عن (علوم القرآن) و أن نعرف ما رافق هذا الكتاب المجيد، من عناية فائقة، و جهود واسعة، و أبحاث مستفيضة، بذلت كلها في سبيل خدمة هذا الكتاب العزيز، علي أيدي اساتذة أعلام، و علماء فطاحل، أفنوا أعمارهم في سبيل الحفاظ علي هذا التراث الكريم، و الكنز الثمين، من لدن عصر نزول القرآن إلي يومنا هذا، ثم انتقلوا الي جوار اللّه و قد خلّفوا لنا ثروة علمية هائلة، لا ينضب معينها، و لا تنتهي دررها، علي كرّ الدهور، و مرّ الأزمان، و مع كلّ هذه الجهود المبذولة- في القديم و الحديث- فإن القرآن يبقي بحرا ذاخرا يحتاج إلي من يغوص في أعماقه، ليستخرج منه اللئالئ و الدرر.

و لقد تسابق الفصحاء و البلغاء، و الحكماء و الشعراء، في وصف هذا القرآن، و سرد محاسنه و فضائله، و لكننا لا نجد أبلغ و لا أسمي من وصف صاحب الرسالة، محمد بن عبد اللّه صلوات اللّه و سلامه عليه حيث يقول: «كتاب اللّه فيه نبأ من قبلكم، و خبر ما بعدكم، و حكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه اللّه، و من ابتغي الهدي في غيره أضلّه اللّه، هو حبل اللّه المتين، و هو الذكر الحكيم، و هو الصّراط المستقيم، و هو الذي لا تزيغ به الأهواء، و لا تلتبس به الألسنة،

و لا يشبع منه العلماء، و لا يخلق «1» علي كثرة الردّ، و لا تنقضي عجائبه، و هو الذي لم تنته الجنّ إذ سمعته حتي قالوا: إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً* يَهْدِي إِلَي الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ .. «2» من قال به صدق، و من عمل به أجر، و من حكم به عدل، و من دعا إليه هدي الي صراط مستقيم» «3».

ما المقصود بعلوم القرآن؟

يقصد بعلوم القرآن الأبحاث التي تتعلق بهذا الكتاب المجيد الخالد، من حيث النزول، و الجمع، و الترتيب، و التدوين، و معرفة أسباب النزول، و المكّي منه و المدني، و معرفة الناسخ و المنسوخ، و المحكم و المتشابه، و غير ذلك من الأبحاث الكثيرة التي تتعلق بالقرآن العظيم، أو لها صلة به .. و الغرض من هذه الدراسة فهم كلام اللّه عز و جل علي ضوء ما جاء عن الرسول عليه الصلاة و السلام من توضيح و بيان، و ما نقل عن الصحابة و التابعين رضوان اللّه عليهم أجمعين، حول تفسيرهم لآيات القرآن، و معرفة طريقة المفسرين و أساليبهم في التفسير، مع بيان مشاهيرهم و معرفة خصائص كل من المفسرين، و شروط التفسير، و غير ذلك من دقائق هذا العلم.

تعريف القرآن:

تعريف القرآن:
(هو كلام اللّه المعجز، المنزّل علي خاتم الانبياء و المرسلين، بواسطة الأمين جبريل عليه السلام المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبّد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس.)
و هذا التعريف متفق عليه بين العلماء و الأصوليين أنزله اللّه تبارك و تعالي ليكون دستورا للامة، و هداية للخلق، و ليكون آية علي صدق الرسول، و برهانا ساطعا علي نبوته و رسالته، و حجة قائمة الي يوم الدين تشهد بأنه تنزيل الحكيم الحميد، بل هو

---

(1) أي لا يبلي و لا تذهب جدته علي كثرة القراءة و الترداد.
(2) سورة الجن، الآية: 1، 2.
(3) رواه الترمذي في باب «فضائل القرآن».
التبيان في علوم القرآن، ص: 9
«المعجزة الخالدة» التي تتحدي الأجيان و الامم علي كرّ الازمان و مرّ الدهور، و للّه درّ «شوقي» حيث يقول:
«جاء النّبيّون بالآيات «1» فانصرمت «2» و جئتنا بكتاب غير منصرم»
«آياته كلّما طال المدي «3» جدد يزينهن جمال العتق و القدم»

«فضائل القرآن»:

و قد وردت آثار كثيرة في فضائل القرآن و علومه، منها ما هو متعلق بفضل التعلم و التعليم، و منها ما هو متعلق بالقراءة و الترتيل، و منها ما له علاقة بحفظه و ترجيعه. كما وردت آيات عديدة في كتاب اللّه عز و جل، تدعو المؤمنين الي تدبره و تطبيق احكامه، و الي الاستماع و الإنصات عند تلاوته، نذكر بعض هذه الآيات الكريمة و الأحاديث الشريفة:

الآيات الكريمة:

الآيات الكريمة:

أولا- قال تعالي إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ، وَ أَقامُوا الصَّلاةَ، وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ «4».

ثانيا- و قال تعالي وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ «5» ثالثا- و قال تعالي أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلي قُلُوبٍ أَقْفالُها «6».

---

(1) المراد بالآيات هنا المعجزات التي أيد اللّه بها رسله الكرام.

(2) انصرمت: أي ذهبت بذهابهم و انقضت بوفاتهم فلم يعد لها وجود.

(3) المدي: الزمان الطويل.

(4) سورة فاطر، الآية: 29.

(5) سورة الأعراف، الآية: 204.

(6) سورة محمد صلّي اللّه عليه و سلم، الآية: 24.

الأحاديث الشريفة:
أولا: و قال صلّي اللّه عليه و سلم: «خيركم من تعلّم القرآن و علّمه» رواه البخاري.
ثانيا: و قال صلوات اللّه عليه: «الماهر بالقرآن مع السّفرة الكرام البررة و الذي يقرأ القرآن و يتعتع فيه (أي تصعب قراءته عليه لعيّ لسانه) و هو عليه شاقّ له أجران» رواه مسلم.
ثالثا: و قال أيضا: «أشراف أمّتي حملة القرآن» رواه الترمذي.
رابعا: و قال أيضا: «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه» رواه الترمذي.
خامسا: و قال أيضا: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجّة ريحها طيّب، و طعمها طيب».
سادسا: و قال أيضا: «إن هذا القرآن مأدبة اللّه، فتعلّموا من مأدبته ما استطعتم ...» متفق عليه.
و ينبغي للدارس لعلوم القرآن ان يتأدب بآداب القرآن، و يتخلّق بأخلاقه، و يكون غرضه من وراء العلم (رضوان اللّه و الدار الآخرة لا حطام الدنيا و أن يعمل بما فيه ليكون حجة له يوم القيامة فقد صح في الحديث الشريف (القرآن حجة لك او عليك» «1». قال شيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه اللّه: (من لم يقرأ القرآن فقد هجره، و من قرأ القرآن و لم يتدبر معانيه فقد هجره، و من قرأه و تدبّره و لم يعمل بما فيه فقد هجره) يشير بذلك الي قوله تعالي وَ قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً «2».

---

(1) انظر تفسير القرطبي، الجزء الأول.
(2) سورة الفرقان، الآية: 30.

أسماء القرآن:

للقرآن الكريم أسماء عديدة كلها تدلّ علي رفعة شأنه، و علوّ مكانته، و علي أنه أشرف كتاب سماوي علي الإطلاق .. فيسمي (القرآن) و (الفرقان) و (التنزيل) و (الذكر) و (الكتاب) الخ كما وصفه اللّه تبارك و تعالي بأوصاف جليلة عديدة منها (نور) و (هدي) و (رحمة) و (شفاء) و (موعظة) و (عزيز) و (مبارك) و (بشير) و (نذير) الي غير ذلك من الأوصاف التي تشعر بعظمته و قدسيته.

وجه التسمية:
أ- اما تسميته (بالقرآن) فقد جاء في آيات كثيرة منها قوله تعالي: ق. وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ «1» و قوله تعالي إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ «2».
ب- و أما تسميته (بالفرقان) فقد جاء في قوله تعالي تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلي عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً «3».
ج- و أما تسميته (بالتنزيل) ففي قوله تعالي وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ «4».
د- و أما تسميته (بالذكر) ففي قوله تعالي إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «5».
ه- و أما تسميته (بالكتاب) ففي قوله تعالي حم* وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ «6».

---

(1) سورة ق، الآية: 1.
(2) سورة الإسراء، الآية: 9.
(3) سورة الفرقان، الآية: 1.
(4) سورة الشعراء، الآيتان: 192، 193.
(5) سورة الحجر، الآية: 9.
(6) سورة الدخان، الآيات: 1- 3.

التبيان في علوم القرآن، ص: 12

و اما الاوصاف فقد ورد فيها آيات عديدة، و قلّما تخلو سورة من سور القرآن من وصف رائع مجيد لهذا الكتاب الذي أنزله رب العزّة ليكون معجزة خالدة لخاتم الانبياء نذكر منها:
أولا- قوله تعالي يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً «1».
ثانيا- و قوله تعالي وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً «2».
ثالثا- و قوله تعالي قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُديً وَ شِفاءٌ .. «3».
رابعا- و قوله تعالي يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَ هُديً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ «4».
و القرآن كالقراءة مصدر قرأ قراءة و قرآنا هكذا يري بعض العلماء و يستدلون بقوله تعالي: إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ* فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ «5» أي قراءته فالقرآن علي هذا الرأي يكون مشتقا، و يري بعض العلماء انه ليس مشتقا من قرأ و إنما هو (اسم علم) لهذا الكتاب المجيد فهو مثل

(التوراة) و مثل اسم (الانجيل) و هذا رأي الإمام الشافعي رحمه اللّه. انظر كتاب (مباحث القرآن للأستاذ منّاع القطان).

متي ابتدأ نزول القرآن:

كان بدء نزول القرآن الكريم، في السابع عشر من رمضان، لأربعين سنة خلت من حياة النبي الأمي محمد عليه الصلاة و السلام، فبينما كان رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم يتحنّث (أي

---

(1) سورة النساء، الآية: 174.

(2) سورة الإسراء، الآية: 82.

(3) سورة فصلت: جزء من الآية: 44.

(4) سورة يونس، الآية: 57.

(5) سورة القيامة، الآيتان: 17- 18.

يتعبّد) في غار حراء، إذ نزل عليه الوحي (جبريل الأمين) بآيات الذكر الحكيم فضمّه الي صدره ثم أفلته- فعل ذلك به ثلاث مرات- و هو يقول له في كل مرة (اقرأ) و الرسول الكريم يجيبه (ما أنا بقارئ) أي لست أعرف القراءة، و في المرّة الثالثة قال له: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ «1».

فكان ذلك بدء نزول الوحي، و بدء نزول القرآن، و لقد سبق نزول بعض الارهاصات (أي الإشارات و الدلائل) التي تدلّ علي قرب الوحي و تحقّق النبوّة للرسول الكريم، و من هذه الدلائل (الرؤيا الصادقة) في النوم، فكان صلوات اللّه عليه لا يري رؤيا الا وقعت كما رآها في منامه، و منها (حبّه للعزلة و الخلوة) فكان يخلو بغار حراء يتعبّد ربه فيه.

رواية البخاري:
و قد أخرج البخاري في صحيحه في باب (بدء الوحي) ما يشير الي هذا، و الي كيفية نزول القرآن، حيث روي بسنده عن عائشة ام المؤمنين رضي اللّه عنها أنها قالت:
«أول ما بدئ به رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يري رؤيا الا جاءت مثل فلق «2» الصبح، ثم حبّب إليه الخلاء «3»، و كان يخلو (بغار حراء) فيتحنّث فيه (و هو التعبّد) الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع «4» إلي أهله، و يتزود لذلك، ثم يرجع إلي خديجة فيتزوّد لمثلها حتي جاءه الحق و هو في غار حراء، فجاءه الملك «5» فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطّني «6» حتي بلغ مني

---

(1) سورة العلق، الآيات: 1- 5.
(2) فلق الصبح، نور الصبح و ضياءه.
(3) الخلاء، أي العزلة.
(4) ينزع: أي يرجع.
(5) الملك: المراد به جبريل عليه السلام.
(6) فغطني: أي ضمني إلي صدره.

التبيان في علوم القرآن، ص: 14
الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ ... الآيات فرجع بها رسول اللّه يرجف فؤاده» «1».
و نزول القرآن في شهر رمضان فيه نص صريح واضح في كتاب اللّه عز و جلّ حيث يقول عزّ من قائل:
شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، هُديً لِلنَّاسِ، وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدي وَ الْفُرْقانِ «2». أو أما كون الملك الذي نزل به هو (جبريل) عليه السلام فقد ثبت أيضا بنص صريح في القرآن و هو قوله تعالي:
نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلي قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ* بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ «3». و قوله تعالي:
قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَ هُديً وَ بُشْري لِلْمُسْلِمِينَ «4».
و المراد بالروح الأمين، او روح القدس، انما هو (جبريل) عليه السلام باتفاق المفسّرين فهو أمين اللّه علي وحيه، و هو الذي نزل بالوحي علي جميع الأنبياء و المرسلين صلوات اللّه عليهم أجمعين.

أول ما نزل و آخر ما نزل:
أول ما نزل من القرآن الكريم الآيات الأولي من سورة العلق اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ «5» كما مرّ سابقا في حديث البخاري، و أما آخر ما نزل من القرآن فهو قوله

---

(1) انظر صحيح البخاري، الجزء الأول.
(2) سورة البقرة، الآية: 185.
(3) سورة الشعراء، الآيات: 193- 195.
(4) سورة النحل، الآية: 102.
(5) سورة العلق، الآية: 1.

تعالي: وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَي اللَّهِ، ثُمَّ تُوَفَّي كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ «1». هذا هو الصحيح الراجح الذي اختاره العلماء و علي رأسهم (السيوطي) و هو منقول عن حبر هذه الأمة (عبد اللّه بن عباس) رضي اللّه عنهما فقد أخرج النسائي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: «آخر شيء نزل من القرآن وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَي اللَّهِ .. و قد عاش النبي صلّي اللّه عليه و سلم بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات ليلة الاثنين في الثالث من ربيع الأول» «2» .. و أما قول بعضهم: إنّ آخر ما نزل من القرآن قوله تعالي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ... «3» الآية فهو رأي غير صحيح لأن هذه الآية الكريمة نزلت علي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم في حجة الوداع، و هو واقف بعرفة، و قد عاش صلّي اللّه عليه و سلم بعدها 81 واحدا و ثمانين يوما و قبل وفاته بتسع ليال نزلت آية البقرة وَ اتَّقُوا يَوْماً ... فتكون هي آخر ما نزل، لا آية المائدة، و هذا هو الرأي الصحيح، و بنزول هذه الآية الكريمة انقطع الوحي فكان ذلك آخر اتصال السماء بالأرض، و انتقل الرسول صلّي اللّه عليه و سلم إلي الرفيق الأعلي بعد نزول ختام القرآن، بعد أن أدي الأمانة، و بلّغ الرسالة، و هدي الناس إلي دين اللّه.

آية المائدة متأخرة في النزول:

و مما يدل علي ان آية المائدة نزلت في حجة الوداع ما روي في صحيح البخاري أن يهوديا جاء الي عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه فقال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا! فقال عمر: و أي آية تعني؟ قال قول اللّه تبارك و تعالي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فقال له عمر: و اللّه إني لأعلم المكان الذي نزلت فيه، و الساعة

---

(1) سورة البقرة، الآية: 281.

(2) أنظر: كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي.

(3) سورة المائدة، الآية: (3).

التبيان في علوم القرآن، ص: 16

التي نزلت فيها، نزلت هذه الآية و رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم بعرفة، في يوم الجمعة، بعد العصر «1» أي أنها نزلت في يوم هو من أعظم الاعياد الإسلامية، فهو عيد علي عيد ..

تنبيه:
أورد العلامة السيوطي في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) بعض الإشكالات علي أول ما نزل من القرآن، و آخر ما نزل، و أجاب عنها بأجوبة سديدة نلخصها فيما يلي:
الإشكال الأول: أنه روي في الصحيحين من حديث (جابر بن عبد اللّه) أنه سئل: أيّ القرآن أنزل قبل؟ قال: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ «2» فقيل له: بل اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ «3» فقال أحدثكم ما حدثنا به رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم قال رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم: «إني جاورت بحراء فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي و خلفي، و عن يميني و شمالي، ثم نظرت إلي السماء فإذا (جبريل) فأخذتني رجفة فأتيت خديجة فأمرتهم فدثّروني فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» فهذا الحديث يدلّ علي ان سورة المدثر هي أول ما نزل من القرآن، و قد أجاب عن ذلك السيوطي بقوله: و يجاب عن هذا الحديث بأجوبة: أحدها: أنّ السؤال كان عن نزول سورة كاملة فبيّن أنّ سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة (اقرأ) فإنها أول ما نزل منها صدرها و يؤيد هذا ما في الصحيحين عن جابر بن عبد اللّه أنه قال: سمعت رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم و هو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «بينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسي فإذا بالملك الذي جاءني بحراء جالس علي كرسي بين السماء و الأرض، فرجعت فقلت: زملوني فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ فقوله الملك الذي جاءني بحراء يدل علي أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ثم سرد أجوبة أخري لا حاجة الي ذكرها.
و أما الإشكال الثاني: و هي أن آية المائدة و هي قوله تعالي

---

(1) انظر: صحيح البخاري، باب التفسير.
(2) سورة المدثر، الآية: 1.
(3) سورة العلق، الآية: 1.

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .. «1» تدل علي أن الدين قد كمل و تمّ فكيف تنزل بعد ذلك آيات و نقول إنها ختام القرآن؟ و الجواب علي ذلك: إن اللّه عز و جل قد أكمل الدين ببيان الفرائض و الأحكام، و بيان الحلال و الحرام، فما تحتاج إليه الأمة قد بيّنه اللّه عزّ و جلّ، و فصّل أحكامه حتي أصبحوا علي (المحجّة البيضاء)، و هذا لا ينافي أن تنزل بعض الآيات الكريمة التي فيها التذكير و التحذير من عذاب اللّه، و فيها تذكير الناس بالوقفة الكبري

بين يدي أحكم الحاكمين، في ذلك اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه مال و لا بنون إلّا من أتي اللّه بقلب سليم .. و قد صرّح بهذا جماعة من العلماء حتي قال السدّيّ: لم ينزل بعدها حلال و لا حرام «2».

أول ما نزل في القتال، و الخمر، و الأطعمة:

أولا- نزلت في القتال آيات عديدة، و لكنّ هذه الآيات التي نزلت في شأن القتال كلها مدنيّة، لأن المسلمين- في مكة- كانوا في حالة ضعف، فكان جهادهم للأعداء باللسان لا بالسنان، و لم يسمح لهم بقتال الأعداء إلا بعد الهجرة، أي بعد ان تقوّي المسلمون و كثروا و أصبح لهم دولة في المدينة المنوّرة فنزل عند ذلك الإذن بالقتال، و أول آية نزلت في القتال هي قول اللّه تبارك و تعالي في سورة الحج:

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَ إِنَّ اللَّهَ عَلي نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً، وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ «3». فأنت تري في هذا النصّ الكريم ما يوضح الحكمة من مشروعية الإذن بالقتال، فلم يكن القتال إلا دفعا للظلم، و دفعا للعدوان، و لم يشرع إلا دفاعا عن المظلومين و ردعا للمعتدين كما هو صريح النص الكريم.

---

(1) سورة المائدة، الآية: 3.

(2) أنظر: الإتقان، ص 27 السيوطي.

(3) سورة الحج، الآيتان: 39، 40.

التبيان في علوم القرآن، ص: 18

ثانيا- و أما الخمر فقد نزلت فيها آيات عديدة، و كان أول ما نزل فيها قول اللّه تعالي في سورة البقرة: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ، وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما ... «1».

روي عن ابن عمر رضي اللّه عنه أنه قال: نزل في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ .. الخ.

ثالثا- و أما أول ما نزل من الأطعمة في مكة فقوله تعالي في سورة الأنعام: قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلي طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ، فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «2».

و هذه أوائل مخصوصة ببعض الأحكام التشريعية التي نزلت بها أحكام القرآن و هي مما ينبغي معرفته ليقف الانسان علي سرّ التشريع الاسلامي الدقيق، الذي راعي حاجات الناس و مصالح البشر، و التي هي أحد الأسس الحكيمة الّتي سلكها الإسلام في معالجة الأوضاع الاجتماعية، و الأمراض الخلقية التي كان عليها الناس في الجاهلية كما سنوضح ذلك في بحث آخر

إن شاء اللّه.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 219.
(2) سورة الأنعام، الآية: 145.
التبيان في علوم القرآن، ص: 19

الفصل الثاني أسباب النزول

أسباب النّزول:
معرفة (أسباب النزول) له أثر كبير في فهم معني الآية الكريمة، و لهذا اعتني كثير من العلماء بمعرفة أسباب النزول، حتي أفرد له بالتصنيف جماعة من العلماء كان من أقدمهم (علي بن المديني) شيخ البخاري رحمه اللّه .. و من أشهر ما كتب في هذا الفن كتاب (أسباب النزول) للواحدي، كما ألّف فيه شيخ الاسلام (ابن حجر) و ألّف فيه أيضا العلامة (السيوطي) كتابا حافلا عظيما سماه (لباب النّقول في أسباب النزول).
و لمعرفة أهمية هذا النوع من علوم القرآن، و التأكد من ضرورته لفهم معاني الآيات الكريمة نستطيع أن نقول: إن بعض الآيات لا يمكن فهمها أو معرفة أحكامها إلا علي ضوء سبب النزول، فمثلا قول اللّه تعالي: وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. «1» الآية قد يفهم منها جواز التوجه في الصلاة إلي غير القبلة، و هذا الفهم خاطئ لأن استقبال القبلة شرط لصحة الصلاة، و بمعرفة سبب النزول يتّضح فهم الآية، فقد نزلت هذه الآية الكريمة فيمن كان في (سفر)، و أضاع القبلة فلم يعرف جهتها فإنه يجتهد و يتحرّي ثم يصلي فإلي أي جهة صلي تصحّ صلاته، و لا تجب عليه

---

(1) سورة البقرة، الآية: 115
التبيان في علوم القرآن، ص: 20
إعادة الصلاة فيما إذا تبيّن له بعد الانتهاء خطأ توجهه، فالآية إذا ليست عامة إنما هي خاصة فيمن جهل القبلة فلم يعرف جهتها.
و مثال آخر علي أهمية سبب النزول في فهم الآية أن قوله تعالي:
لَيْسَ عَلَي الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا، ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا، وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «1».
إنما نزلت في الخمر، و قد يفهم من هذا النص الكريم إباحة شرب الخمر- كما ظن بعض الجهلة- حيث قالوا: الخمر مباحة و احتجوا بالآية الكريمة، و لو علموا سبب نزولها لم يفتروا ذلك، فقد روي أنّه لما نزل تحريم الخمر في قوله تعالي إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «2» قال ناس من أصحاب رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم: فكيف بمن قتلوا في سبيل اللّه و ماتوا، و كانوا يشربون الخمر و هي رجس؟ فنزلت الآية الكريمة تبيّن ان من شربها قبل التحريم فإن اللّه قد عفا عنه و ليس عليه ذنب أو إثم لأن اللّه لا يؤاخذ علي

ما سبق من العبد قبل الإسلام أو قبل التحريم، و بذلك تفهم الآية و يبقي النص القطعي في تحريم شرب الخمر.

فوائد معرفة أسباب النزول:
قد يظن بعض الناس أنه لا طائل تحت هذا الفن، و ليس له أثر كبير لجريانه مجري التاريخ و القصص، فإن أسباب النزول- علي زعمهم- ليست ضرورية لمن أراد تفسير كتاب اللّه. و هذا زعم خاطئ و قول مردود، لا يصدر من عالم بالكتاب، مطّلع علي أقوال المفسّرين. و ها نحن ننقل طرفا من آراء بعض العلماء، ثم نعقبها بذكر فوائد أسباب النزول.

---

(1) سورة المائدة، الآية: 93.
(2) سورة المائدة، الآية: 90.
التبيان في علوم القرآن، ص: 21
قال (الواحدي): لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف علي قصتها، و بيان نزولها.
و قال (ابن دقيق العيد): بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن.
و قال (ابن تيمية): معرفة سبب النزول يعين علي فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبّب.
و هكذا تظهر أهمية هذا الفن من علوم القرآن.
و أما فوائده فيمكن تلخيصها فيما يلي:
أ- معرفة وجه الحكمة الباعثة علي تشريع الحكم.
ب- تخصيص الحكم بالسبب (عند من يري أن العبرة بخصوص السبب).
ج- دفع توهم الحصر، فيما ظاهره الحصر.
د- معرفة اسم من نزلت فيه الآية، و تعيين المبهم فيها. إلي غير ما هنالك من فوائد أخري جليلة.

أمثلة علي فوائد النزول:
أولا: أشكل علي (مروان بن الحكم) معني قوله تعالي: لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا، وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا، فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ .. «1» الآية. فقال لخادمه: اذهب الي ابن عباس فقل له: (لئن كان كلّ امرئ فرح بما أوتي، و أحبّ أن يحمد بما لم يفعل معذّبا لنعذّبنّ أجمعون). فبيّن له (ابن عباس) رضي اللّه عنهما ما أزال عنه الإشكال و قال له: إن الآية نزلت في أهل الكتاب- اليهود- حين سألهم النبي صلّي اللّه عليه و سلّم عن شيء فكتموه إياه، و أخبروه بغيره، أروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، و استحمدوا بذلك إليه فنزلت الآية. (رواه الشيخان).

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 188.

التبيان في علوم القرآن، ص: 22

ثانيا: كما أشكل علي (عروة بن الزبير) رضي اللّه عنه معني قوله تعالي إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ، فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما ... «1» الآية. فإن ظاهر الآية الكريمة يشير الي عدم وجوب السعي بين (الصفا و المروة) حتي قال (عروة بن الزبير) لخالته عائشة ام المؤمنين يا خالة: إنّ اللّه تعالي يقول: فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما فأري أنه لا بأس علي الإنسان أن يترك السعي بينهما؟! فقالت له عائشة: بئس ما قلت يا ابن أختي، لو كان الأمر كما ذكرت لقال اللّه تعالي: فلا جناح عليه ألّا يطّوف بهما .. ثم أخبرته بأن الناس في الجاهلية كانوا يسعون بين الصفا و المروة و كانوا يحجون في سعيهم (لصنمين) أحدهما:
علي الصفا يسمي (إسافا)، و الثاني، علي المروة و يسمي (نائلة)، فلما دخل الناس في الإسلام تحرّج بعض الصحابة من السعي بينهما خشية أن يلتبس الأمر بعبادة الجاهلية، فنزلت الآية الكريمة تدفع عنهم الإثم و الحرج و توجب عليهم السعي للّه تعالي لا للأصنام. فقد ردت عائشة علي عروة فهمه و كان ذلك بسبب النزول.
ثالثا- أشكل علي بعض الأئمة معني الشرط في قوله تعالي وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ .. «2» الآية حتي قال الظاهرية إنّ الآيسة: (التي انقطع دم الحيض عليها لكبر السن) لا عدّة عليها إذا لم ترتب، و قد تبيّن خطأ فهمهم بسبب النزول، فإنّ الآية خطاب لمن لم يعلم ما حكمهن في العدة؟ و ارتاب هل عليهن عدة أم لا؟ فيكون معني إِنِ ارْتَبْتُمْ أي إن أشكل عليكم حكمهن، و جهلتم كيف يعتدون فهذا هو حكمهن، و قد نزلت هذه الآية بعد أن قال بعض الصحابة: إن عدة بعض

النساء لم تذكر في القرآن و هنّ (الصغيرات و الآيسات)، فنزلت الآية الكريمة تبيّن حكم عدة كل منهن، و اللّه أعلم.

رابعا- و من أمثلة فوائد النزول في دفع توهم الحصر ما روي عن الشافعي رحمه اللّه في قوله تعالي

(1) سورة البقرة، الآية: 158.

(2) سورة الطلاق، الآية: 4.

التبيان في علوم القرآن، ص: 23

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلي طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. «1» الآية فقد قال ما معناه: إن الكفار لما حرّموا ما أحلّ اللّه، و أحلّوا ما حرّم اللّه، و كانوا علي المضادّة و المحادّة فجاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، و لا حرام إلا ما أحللتموه، فلم يقصد حلّ ما وراءه و إنما القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل، قال (إمام الحرمين): و هذا في غاية الحسن و لو لا سبق الشافعي إلي ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية «2»

توضيح لمعني الآية الكريمة:

و توضيحا لهذه الفكرة أقول: إن ظاهر الآية الكريمة يدل علي حصر المحرمات في هذه الأشياء المذكورة في الآية الكريمة و ليس الأمر كذلك، فإن هناك محرمات غير هذه، و إنما وردت الآية بصورة الحصر و ليس معناها الحصر للرد علي المشركين في تحريمهم ما أحلّ اللّه و تحليلهم لما حرّم اللّه.

خامسا- و من أمثلة فوائد سبب النزول أن نعرف اسم من نزلت فيه ليزول اللبس و الإبهام فقد زعم (مروان) أنّ قوله تعالي وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما .. «3»

الآية أنها نزلت في (عبد الرحمن بن أبي بكر) فردّت عليه عائشة رضي اللّه عنها هذا الزعم الباطل و بيّنت له سبب نزولها، و تفصيل القصة علي ما ذكرها البخاري هي:

«إنّ مروان كان عاملا علي المدينة، فأراد (معاوية) أن يستخلف (يزيد) فكتب الي مروان بذلك، فجمع مروان الناس فخطبهم، فذكر يزيد و دعا الي بيعته، و قال:

إن أمير المؤمنين أراه اللّه في يزيد رأيا حسنا، و إن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر و عمر، فقال عبد الرحمن، ما هي إلا هرقليّة (يعني انها استبداد للملك كعمل ملوك الروم). فقال مروان: سنّة أبي بكر و عمر، فقال عبد الرحمن: (هرقلية) ... إنّ أبا

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 145.

(2) أنظر: كتاب الاتقان للسيوطي.

(3) سورة الأحقاف، الآية: 17.

بكر و اللّه ما جعلها في أحد من ولده و لا في أهل بيته، و ما جعلها معاوية إلّا كرامة لولده، فقال مروان: خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل اللّه فيه وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَ تَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي .. الآية. فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل اللّه فينا شيئا من القرآن، الا ان اللّه انزل عذري (براءتي) و لو شئت أن أسمي من نزلت فيه لسمّيته «1».

ما هو سبب النزول:
قد تحصل واقعة، او تحدث حادثة، فتنزل آية او آيات كريمة في شأن تلك الواقعة او الحادثة، فهذا هو ما يسمي ب (سبب النزول) .. و قد يعرض سؤال علي النبي صلّي اللّه عليه و سلّم بقصد معرفة الحكم الشرعي فيه، أو الاستفسار عن أمر من امور الدين، فتنزل بعض الآيات الكريمة فهذا أيضا ما يسمي ب (سبب النزول).
مثال الحادثة ما رواه البخاري عن (خبّاب بن الأرتّ) رضي اللّه عنه قال: كنت قينا (أي حدادا) و كان لي علي (العاص بن وائل) دين، فجئت أتقاضاه ديني، فقال لي: لا أعطيك دينك حتي تفكر بمحمد و تعبد اللات و العزّي، فقلت: لا أكفر حتي يميتك اللّه ثم يبعثك، فقال: إني إذا لميّت ثم مبعوث، فانتظرني إلي ذلك اليوم فسأوتي مالا، و ولدا فأوفيك دينك، فأنزل اللّه عز و جل فيه قوله: أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَ قالَ لَأُوتَيَنَّ مالًا وَ وَلَداً* أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً* كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا* وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ وَ يَأْتِينا فَرْداً «2».
و مثال السؤال ما روي عن (معاذ بن جبل) رضي اللّه عنه أنه قال: يا رسول اللّه، انّ اليهود تغشانا، و يكثرون مسألتنا عن الأهلّة، فما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتي

---

(1) أنظر: صحيح البخاري.
(2) سورة مريم، الآيات: 77- 80.
التبيان في علوم القرآن، ص: 25
يستوي و يستدير ثم ينتقص حتي يعود كما كان؟ فأنزل اللّه يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ .. «1» الآية.

كيف يعرف سبب النزول؟

يظهر مما سبق أن أسباب النزول لا يمكن أن تدرك بالرأي، و لا بدّ فيها من الرواية الصحيحة و السماع، ممن شاهدوا التنزيل، او وقفوا علي الاسباب و بحثوا فيها من الصحابة و التابعين و غيرهم ممن اكتسبوا علومهم علي أيدي العلماء الموثوقين .. و قد قال (ابن سيرين): سألت (عبيدة) عن آية من القرآن فقال: «اتق اللّه و قل سدادا. ذهب الذين يعلمون فيما أنزل اللّه من القرآن». و يعتمد في معرفة سبب النزول علي (النقل الصحيح) فإذا صرّح الراوي بلفظ السبب فهو نص صريح فيه كقول الراوي: سبب نزول هذه الآية كذا و كذا ..

و كذلك إذا أتي بفاء تعقيبية داخلة علي مادة النزول كقوله (حدث كذا .. او سئل النبي عليه السّلام عن كذا فنزلت) فهو نص صريح في سبب النزول أيضا ..

و قد لا تكون الصيغة نصا في السبب كقولهم (نزلت هذه الآية في كذا ..) فقد يراد منه سبب النزول، و قد يراد ما تضمنته الآية من احكام، فيكون مثل قوله: عني بهذه الآية كذا .. قال (الزركشي) في البرهان: قد عرف من عادة الصحابة و التابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا .. فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها. و قال (ابن تيمية): قولهم: (نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول، و يراد به تارة أن ذلك داخل في الآية و إن لم يكن السبب فيه).

هل يتعدد سبب النزول؟
كثيرا ما يذكر المفسّرون لنزول الآية أسبابا متعددة، و المعتمد في مثل هذه الحالة أن ننظر الي العبارة التي قالوها، و نستطيع ان نستخلص ما يلي:

---
(1) سورة البقرة، الآية: 189.
التبيان في علوم القرآن، ص: 26
أولا: أن يعبّر كل منهما بقوله (نزلت هذه الآية في كذا ..) و يذكر أمرا آخر غير الذي ذكره الاول، فيحمل علي انه استنباط للحكم، و تفسير لمعني الآية، فلا منافاة بينهما كما مرّ لأنه ليس بسبب للنزول.
ثانيا: أن يعبّر احدهما بقوله (نزلت الآية في كذا ..) و يصرّح الآخر بذكر سبب النزول فالمعتمد هنا (التصريح) مثاله ما رواه في البخاري عن (ابن عمر) رضي اللّه عنه قال: أنزلت نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ .. «1» الآية في إتيان النساء في أدبارهنّ، و روي مسلم في صحيحه عن (جابر) رضي اللّه عنه قال: كانت اليهود تقول: من أتي امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول فأنزل اللّه نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ .. الآية فالمعتمد هنا الثاني و هو حديث جابر لأنه نص في السبب فهو نقل، و قول ابن عمر ليس بنص فيحمل علي انه استنباط للحكم و تفسير له.
ثالثا: أن يذكر كل واحد سببا صريحا للنزول غير الآخر فيعتمد هنا الصحيح دون الضعيف.
مثاله: ما أخرجه الشيخان عن جندب قال: اشتكي النبي صلّي اللّه عليه و سلّم فلم يقم ليلة او ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد، ما أري شيطانك إلا قد تركك فأنزل اللّه وَ الضُّحي* وَ اللَّيْلِ إِذا سَجي* ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلي «2».
و أخرج (الطبراني): أن جروا دخل بيت النبي صلّي اللّه عليه و سلّم فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم جبريل لا يأتيني؟ فقلت في نفسي: لو هيأت البيت و كنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو، فجاء النبي ترعد لحيته- و كان إذا نزل عليه أخذته الرعدة- فأنزل اللّه: وَ الضُّحي وَ اللَّيْلِ إِذا سَجي. إلي قوله فَتَرْضي.
فنعتمد علي الرواية الأولي لأنها في الصحيحين. قال (ابن حجر) في شرح البخاري

---
(1) سورة البقرة، الآية: 223.

(2) سورة الضحي، الآيات: 1- 3.

قصة جبريل بسبب (الجرو) مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب، و في إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيح «1».

رابعا: ان يستوي الاسنادان في الصحة، فنرجح احدهما علي الآخر لوجه من وجوه الترجيحات كذكر الراوي انه حضر القصة مثلا او نحو ذلك.

مثاله: ما اخرجه (البخاري) عن ابن مسعود قال: كنت امشي مع النبي صلّي اللّه عليه و سلّم بالمدينة و هو يتوكأ علي عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدّثنا عن الروح، فقام ساعة و رفع رأسه، فعرفت انه يوحي إليه، حتي صعد الوحي ثم قال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا «2».

و ما اخرجه (الترمذي) و صحّحه عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل عنه؟ فقالوا: اسألوه عن الروح، فأنزل اللّه وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ .. الآية .. فهذه الرواية تقتضي أنها نزلت بمكة، و الأولي تقتضي انها نزلت بالمدينة، فترجح الرواية الاولي لأن (ابن مسعود) كان حاضر القصة، ثم ما رواه البخاري يرجح علي ما رواه غيره.

خامسا: ان تكون كل من الروايتين صحيحة الإسناد، و أن يكون بينهما تقارب في المدة، فتنزل الآية او الآيات بسبب الحادثتين معا، و ننتهي إلي الجمع بين الروايتين.

مثاله: ما أخرجه البخاري عن ابن عباس (رضي اللّه عنهما) أن هلال بن امية قذف امرأته عند النبي صلّي اللّه عليه و سلّم بشريك بن سمحاء، فقال النبي صلّي اللّه عليه و سلّم: «البيّنة أو حدّ في ظهرك»، فقال يا رسول اللّه: إذا رأي احدنا مع امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة، فجعل النبي صلّي اللّه عليه و سلّم يقول «البيّنة أو حدّ في ظهرك» فقال: و الذي بعثك بالحق اني

---

(1) أنظر: الأتقان، صفحة 33.

(2) سورة الأسراء، الآية: 85.

لصادق، و لينزل اللّه تعالي ما يبرّئ ظهري من الحد، فنزل جبريل، و أنزل اللّه عليه وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ ... حتي بلغ إِنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ «1».

و ما أخرجه (الشيخان) عن سهل بن سعد قال: جاء (عويمر بن نصر) الي (عاصم ابن عدي) فقال: اسأل رسول اللّه عن رجل وجد مع امرأته رجلا أ يقتله فيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل (عاصم) رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم فعاب السائل، فأخبر عاصم عويمرا، فقال: و اللّه لآتينّ رسول اللّه فلأسألنّه، فأتاه فقال صلّي اللّه عليه و سلّم: إنه قد أنزل فيك و في

صاحبتك قرآن و تلا الآية الكريمة وَ الّذِينَ يَرْمُونَ أزْواجَهُمْ، وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ .. الآية.
و طريق الجمع بينهما ان نقول: إن اول من وقع له ذلك (هلال) و صادف مجيء (عويمر) أيضا فنزل فيهما جميعا.
قال ابن حجر: و لا مانع من تعدد الاسباب.
سادسا: ان لا يمكن الجمع بين الروايات الصحيحة، فيحمل علي تعدد النزول و تكرره، لأن المدة بينهما بعيدة.
مثاله: ما روي في الصحيحين عن (المسيّب) قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول اللّه و عنده ابو جهل، و عبد اللّه بن ابي أمية فقال: أي عم، قل (لا إله إلا اللّه) كلمة أحاج لك بها عند اللّه، فقال ابو جهل، و عبد اللّه، أ ترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزالا يكلمانه حتي قال: هو علي ملة عبد المطلب، فقال النبي صلّي اللّه عليه و سلّم لاستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك فنزلت ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ .. «2» الآية.
و ما اخرجه الترمذي عن علي (رضي اللّه عنه) قال: سمعت رجلا يستغفر لأبويه

(1) سورة النور، الآية: 6.
(2) سورة التوبة، الآية: 113.

و هما مشركان فقلت تستغفر لأبويك و هما مشركان: فقال: استغفر إبراهيم لأبيه و هو مشرك، فذكرت ذلك لرسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم فنزلت ما كانَ لِلنَّبِيِّ .. الآية.
و روي أيضا أن النبي صلّي اللّه عليه و سلّم خرج يوما الي المقابر، فجلس الي قبر منها فناجاه طويلا ثم بكي فقال: «إنّ القبر الذي جلست عنده قبر أمي، و إني استأذنت ربي في الدعاء فلم يأذن لي فأنزل عليّ: ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ «الآية». قال السيوطي: فيجمع بين هذه الأحاديث بتعدد النزول.

هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟
اختلف علماء الاصول في مسألة دقيقة و هي: هل العبرة بعموم اللفظ ام بخصوص السبب؟ أي أنه إذا وقعت حادثة فنزلت في شأنها آية كريمة، فهل يقتصر حكم هذه الآية علي تلك الحادثة او الواقعة او الشخص الذي نزلت فيه، أم يتعدي الحكم إلي الجميع؟
فجمهور العلماء يذهبون إلي ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و هذا هو الصحيح، و هناك رأي آخر بأن العبرة بخصوص السبب.
قال (السيوطي) رحمه اللّه في كتابه: الاتقان في علوم القرآن.
و من الأدلة علي اعتبار عموم اللفظ احتجاج الصحابة و غيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت علي أسباب خاصة، كنزول آية الظهار في (سلمة بن صخر) و آية اللعان في شأن (هلال بن أمية) و حد القذف في رماة عائشة، ثم تعدي الحكم إلي غيرهم لعموم اللفظ، و قد ورد عن (ابن عباس) ما يدل علي اعتبار العموم، فإنه قال به في آية السرقة مع انها نزلت في امرأة سرقت .. ثم روي عن (نجدة الحنفي) قال: سألت ابن عباس عن قوله تعالي وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما «1» أ خاصّ أم عامّ؟ قال: بل عام. قال (ابن تيمية): قد يجيء كثيرا من هذا الباب

---

(1) سورة المائدة، الآية: 38.
التبيان في علوم القرآن، ص: 30
قولهم: هذه الآية نزلت في كذا- لا سيما إن كان المذكور شخصا- كقولهم إن آية الظهار نزلت في امرأة (ثابت بن قيس) و إنّ آية الكلالة نزلت في (جابر بن عبد اللّه)، و ان قوله تعالي أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ «1» نزلت في بني قريظة و بني النضير، و نظائر ذلك. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا ان حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم و لا عاقل علي الإطلاق. و قال (الزمخشري) في تفسير سورة الهمزة: يجوز أن يكون السبب خاصا، و الوعيد عاما ليتناول كلّ من باشر ذلك القبيح، و ليكون ذلك جاريا مجري التعريض. «2» و اللّه تعالي أعلم.

---

(1) سورة المائدة، الآية: 49.
(2) انتهي بتصرف من كتاب (الاتقان في علوم القرآن).
التبيان في علوم القرآن، ص: 31

الفصل الثالث حكمة نزول القرآن مفرّقا

نزول القرآن الكريم:

شرّف اللّه هذه الأمة المحمدية، فأنزل عليها كتابه المعجز- خاتمة الكتب السماوية- ليكون دستورا لحياتها، و علاجا لمشاكلها، و بلسما شافيا لعللها و أمراضها، و آية مجد و فخار علي اصطفاء هذه الأمة، و اختيارها لحمل أقدس الرسالات السماوية، حيث أكرمها اللّه بإنزال أشرف كتاب، و خصّها بالانتساب الي أشرف مخلوق (محمد بن عبد اللّه) صلّي اللّه عليه و سلّم. و بنزول هذا القرآن اكتمل عقد الرسالات السماوية، فشعّ النور علي العالم، و سطع الضياء علي الكون، و وصلت هداية اللّه إلي الخلق، و كان هذا النزول بواسطة امين السماء (جبريل) عليه السّلام، يهبط به علي قلب النبي صلّي اللّه عليه و سلّم ليبلغه وحي اللّه، و في ذلك يقول اللّه جل ثناؤه: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلي قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ* بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ «1».

كيف نزل القرآن الكريم؟

اشارة

كيف نزل القرآن الكريم؟

للقرآن الكريم تنزّلان:

الأول: من اللوح المحفوظ إلي السماء الدنيا (جملة واحدة) في ليلة القدر.

---

(1) سورة الشعراء، الآيات: 193- 195.

التبيان في علوم القرآن، ص: 32

الثاني: من السماء الدنيا إلي الأرض (مفرقا) في مدة ثلاث و عشرين سنة.

أما التنزّل الأول:
فقد كان في ليلة مباركة من ليالي الدهر هي (ليلة القدر) أنزل فيه القرآن كاملا إلي (بيت العزة) في السماء الدنيا، و يدل عليه عدة نصوص و هي:
آ- قوله تعالي: حم* وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ «1».
ب- و قوله تعالي إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ «2» ج- و قوله تعالي: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُديً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدي وَ الْفُرْقانِ «3».
فقد دلت هذه الآيات الثلاث علي ان القرآن أنزل في ليلة واحدة، توصف بأنها مباركة، و تسمّي (ليلة القدر) و هي من ليالي شهر رمضان، و يتعين أن يكون هذا النزول هو النزول الأول الي بيت العزة في السماء، لأنه لو اريد به النزول الثاني علي النبي صلّي اللّه عليه و سلّم لما صحّ أن يكون في ليلة واحدة، و في شهر واحد هو (شهر رمضان) لأن القرآن إنما نزل في مدة طويلة هي مدة البعثة 23 سنة، و نزل في غير رمضان في جميع الأشهر، فتعيّن ان يكون المراد به (النزول الأول) و قد جاءت الاخبار الصحيحة تؤيد ذلك منها:
آ- عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال: (فصل القرآن من الذّكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به علي النبي صلّي اللّه عليه و سلّم) «4».
ب- و عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال: (أنزل القرآن جملة واحدة إلي سماء

---

(1) سورة الدخان، الآية: 1- 3.
(2) سورة القدر، الآيتان: 1، 2.
(3) سورة البقرة، الآية: 185.
(4) رواه الحاكم.

التبيان في علوم القرآن، ص: 33

الدنيا، و كان بمواقع النجوم؛ و كان اللّه ينزله علي رسوله صلّي اللّه عليه و سلّم بعضه في إثر بعض) «1».
ج- و روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال: (أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلي سماء الدنيا جملة واحدة، ثم انزل نجوما) «2».
قوله نجوما: أي أجزاء متفرقة ..
فهذه الروايات الثلاث رواها السيوطي في كتابه (الاتقان في علوم القرآن)

و بيّن انها كلها صحيحة، كما روي (السيوطي) أيضا عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه سأله (عطية بن الأسود) فقال: (أوقع في قلبي الشك قوله تعالي: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ و قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ و هذا انزل في شوال، و في ذي القعدة، و في ذي الحجة، و في المحرم و صفر، و شهر ربيع، فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر، جملة واحدة، ثم أنزل علي مواقع النجوم رسلا في الشهور و الايام).

يريد بقوله (مواقع النجوم) و بقوله (رسلا) أي انه انزل منجما مفرقا، يتلو بعضه بعضا علي تؤدة و رفق. و ذكر (السيوطي) أن القرطبي نقل حكاية الاجماع علي نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ الي بيت العزة في السماء الدنيا. و لعلّ الحكمة في هذا النزول هي: تفخيم أمر القرآن، و أمر من نزل عليه، بإعلام سكان السموات السبع أنّ هذا آخر الكتب المنزّلة علي خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قرّبناه إليهم لننزله عليهم.

قال السيوطي: (و لو لا أن الحكمة الالهية اقتضت وصوله اليهم منجما بحسب الوقائع لهبط به إلي الأرض جملة كسائر الكتب المنزّلة قبله، و لكنّ اللّه سبحانه باين (أي

---

(1) رواه الحاكم و البيهقي.

(2) رواه الطبراني.

التبيان في علوم القرآن، ص: 34

خالف) بينه و بينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم انزاله مفرقا، تشريفا للمنزل عليه) «1».

2- التنزيل الثاني:
و أما التنزيل الثاني فقد كان من السماء الدنيا علي قلب النبي صلّي اللّه عليه و سلّم منجّما (أي مفرقا) في مدة ثلاث و عشرين سنة و هي من حين البعثة إلي حين وفاته صلوات اللّه و سلامه عليه. و الدليل علي هذا النزول و أنه نزل منجما قول اللّه تعالي في سورة الإسراء.
أ- وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَي النَّاسِ عَلي مُكْثٍ، وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا «2».
و قوله تعالي في سورة الفرقان:
ب- وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا «3».
روي ان اليهود و المشركين عابوا علي النبي صلّي اللّه عليه و سلّم نزول القرآن مفرّقا، و اقترحوا عليه أن ينزل جملة واحدة حتي قال اليهود له: يا أبا القاسم لو لا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة علي موسي، فأنزل اللّه هاتين الآيتين ردا عليهم، و هذا الرد- كما يقول الزرقاني- يدل علي أمرين:
أحدهما: ان القرآن نزل مفرّقا علي النبي صلّي اللّه عليه و سلّم.
و الثاني: ان الكتب السماوية قبله نزلت جملة، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتي كاد يكون إجماعا.

---

(1) أنظر: الأتقان، ص 42.
(2) سورة الإسراء، الآية: 106.
(3) سورة الفرقان، الآية: 32.

و وجه الدلالة علي هذين الأمرين: أن اللّه تعالي لم يكذبهم فيما ادّعوا من نزول الكتب السماوية جملة، بل أجابهم ببيان الحكمة في نزول القرآن مفرّقا و لو كان نزول الكتب السماوية مفرّقا كالقرآن لردّ عليهم بالتكذيب، و باعلان ان التنجيم هو سنّة اللّه فيما أنزل علي الأنبياء من قبل، كما ردّ عليهم حين طعنوا علي الرسول و قالوا: ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ «1» ردّ عليهم بقوله وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ «2».

حكمة نزول القرآن منجما:

لنزول القرآن الكريم منجّما (أيّ مفرقا) حكم جليلة، و أسرار عديدة عرفها العالمون، و غفل عنها الجاهلون، و نستطيع أن نجملها فيما يأتي و هي:

أولا: تثبيت قلب النبي صلّي اللّه عليه و سلّم أمام أذي المشركين.

ثانيا: التلطف بالنبي صلّي اللّه عليه و سلّم عند نزول الوحي.

ثالثا: التدرج في تشريع الاحكام السماوية.

رابعا: تسهيل حفظ القرآن و فهمه علي المسلمين.

خامسا: مسايرة الحوادث و الوقائع، و التنبيه عليها في حينها.

سادسا: الإرشاد الي مصدر القرآن، و أنه تنزيل الحكيم الحميد.

و لنبدأ بشيء من التفصيل عن هذه الحكم العديدة، التي اجملناها فيما سبق فنقول و من اللّه نستمد العون:

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 7.

(2) سورة الفرقان، الآية: 20. انظر مناهل العرفان. ص 46.

التبيان في علوم القرآن، ص: 36

أولا: أما الحكمة الاولي و هي (تثبيت قلب النبي صلّي اللّه عليه و سلّم) فقد ذكرتها الآية الكريمة في معرض الرد علي المشركين، حين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة كما نزلت الكتب السماوية السابقة فردّ اللّه عليهم بقوله كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا «1» و تثبيت قلب النبي صلّي اللّه عليه و سلّم انما هو رعاية من اللّه و تأييد لرسوله أمام تكذيب خصومه له و إيذائهم الشديد له و لأتباعه، فقد كانت الآيات الكريمة تنزل علي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم (تسلية) له و شحذا لهمته للمضيّ في طريق الدعوة مهما اعترضته المصاعب و الشدائد، و تقوية لقلبه الشريف، فقد تعهّده اللّه سبحانه و تعالي بما يخفف عنه الشدائد و الآلام، فكان اذا اشتد الأذي عليه نزلت الآيات تسلية له و تخفيفا عمّا يلقاه، و كانت التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء و المرسلين ليقتدي بهم في صبرهم و جهادهم كما قال تعالي وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلي ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّي أَتاهُمْ نَصْرُنا .. «2» الآية. و قوله تعالي فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ «3» و قوله وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا «4».

و قد أوضح الباري جلّت عظمته الحكمة من ذكر قصص الأنبياء فقال و هو أصدق القائلين: وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ، وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْري لِلْمُؤْمِنِينَ «5» و تارة كانت التسلية عن طريق الوعد بالنصر و التأييد للنبي صلّي اللّه عليه و سلّم كقوله تعالي

وَ يَنْصُرَكَ اللّهُ نَصْراً عَزِيزاً «6» و كقوله وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ «7».

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 32.
(2) سورة الأنعام، الآية: 34.
(3) سورة الأحقاف، الآية: 35.
(4) سورة الطور، الآية: 48.
(5) سورة هود، الآية: 120.
(6) سورة الفتح، الآية: 3.
(7) سورة الصافات، الآيات: 171- 173.

التبيان في علوم القرآن، ص: 37

و أخري تكون التسلية عن طريق إخبار الرسول باندحار اعدائه و انهزامهم كما في قوله تعالي سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ «1» و قوله قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلي جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ «2». إلي آخر ما هنالك من ألوان في التخفيف عن قلب الرسول، و تطييب نفسه و فؤاده، و لا شك أن في تجدد نزول الوحي، و تكرّر هبوط الأمين جبريل بالآيات البينات، التي فيها تسلية للنبي صلّي اللّه عليه و سلّم و فيها الوعد بالنصر و الحفظ و التأييد، كان لها أعظم الأثر في تثبيت قلب الرسول لمتابعة الدعوة، و المضيّ في تبليغ الرسالة الإلهية، لأنّ اللّه معه، و هل يشعر بالخذلان و الفتور من كانت عناية اللّه تحوطه و عينه ترعاه؟

ثانيا- أما الحكمة الثانية و هي: (التلطف بالنبي صلّي اللّه عليه و سلّم) عند نزول الوحي، فقد كانت بسبب روعة القرآن و هيبته، كما قال تعالي إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا «3» فالقرآن- كما هو مقطوع به- كلام اللّه المعجز، الذي له جلال و وقار، و هيبة و روعة و هو الكتاب الذي لو نزل علي جبل لتفتّت و تصدّع من هيبته و جلاله كما قال تعالي لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلي جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ .. «4» فكيف اذا بقلب النبي الرقيق، هل يستطيع ان يتلقّي جميع القرآن دون أن يتأثر و يضطرب و يشعر بروعة القرآن و جلاله!! و لقد اوضحت السيدة عائشة حالة الرسول حين ينزل عليه القرآن، و ما يلاقيه من شدة و هول من أثر التنزيل، فقالت: (كما رواه البخاري) و لقد رأيته حين ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه (أي ينفصل) و إن جبينه ليتفصد عرقا). يتفصد: أي يتصبب عرقا و ذلك من شدة الوحي و وطأته علي النبي صلّي اللّه عليه و سلّم ..

ثالثا: و أما الحكمة الثالثة و هي: (التدرج في تشريع الاحكام) فقد كانت جليّة

---

(1) سورة القمر، الآية: 45.

(2) سورة آل عمران، الآية: 12.
(3) سورة المزمل، الآية: 5.
(4) سورة الحشر، الآية: 21.

واضحة، حيث سلك القرآن الكريم مع البشرية- و خاصة منهم العرب- طريق الحكمة ففطمهم عن الشرك، و أحيا قلوبهم بنور الإيمان، و غرس في نفوسهم حبّ اللّه و رسوله، و الايمان بالبعث و الجزاء، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة- مرحلة تثبيت دعائم الإيمان- الي العبادات فبدأهم بالصلاة قبل الهجرة، ثم ثنّي بالصوم و بالزكاة في السنة الثانية من الهجرة، ثم ختم بالحج في السنة السادسة منها، و كذلك فعل في العادات المتوارثة. زجرهم اولا عن الكبائر، ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق، و تدرج بهم في تحريم ما كان مستأصلا في نفوسهم كالخمر و الربا و الميسر، تدرجا حكيما، استطاع بذلك ان يقتلع الشرّ و الفساد من جذوره اقتلاعا كاملا، و لنأخذ بعض الأمثلة علي ذلك التشريع الحكيم، الذي نجح في انتهاجه القرآن، في معالجة الأمراض الاجتماعية (تحريم الخمر) الذي كان داء مستشريا عند العرب، كيف استطاع ان يمحوه و يقضي عليه الإسلام؟ لقد انتهج القرآن في تحريمه أربع مراحل، كما هو الشأن في تحريم الربا، فلم يحرّمه دفعة واحدة لانهم كانوا يتعاطون شرب الخمر كما يشرب الواحد منا الماء الزلال، فلم يكن من الحكمة ان يحرّمه عليهم دفعة واحدة، و انما حرمه بالتدريج، فبدأ اولا بالتنفير منه بطريق غير مباشر فنزل قوله تعالي وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً .. «1» الآية فقد اخبر تعالي أنّه قد أنعم علي الناس بهاتين الشجرتين (النخيل، و الاعناب) يستخرجون منهما (السكر) أي الخمر الذي يسكر و (الرزق الحسن) الذي ينتفع منه الناس من مأكول و مشروب، فمدح الثاني و وصفه بأنه رزق حسن، و أخبر عن الأول بأنه (سكر) اي شيء يسكر و يذهب بعقل الإنسان و بهذه المباينة في الوصف يتّضح لكل عاقل الفارق الكبير بين الأمرين المذكورين.
المرحلة الثانية: جاء التنفير المباشر عن طريق المقارنة العملية بين شيئين: شيء فيه نفع مادي ضئيل، و شيء فيه ضرر جسمي و صحي و عقلي جسيم، و فيه كذلك زيادة

---
(1) سورة النحل، الآية: 67.

علي الاضرار العظيمة مهلكة للإنسان عن طريق وقوعه في الإثم الكبير. استمع إلي قوله تعالي يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ، قُلْ: فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ، وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما .. «1» الآية. و المراد بالمنافع هنا:

المنافع المادَية اَلتي كانوا يستفيدونَها من وراء التجارة و البيع للخمر حيث يربحون منها، كما يربحون من وراء الميسر، و قد جمع القرآن بين الخمر و الميسر في الآية الكريمة، و لا شك ان النفع في الميسر (مادي) بحت حيث يربح بعض المقامرين فكذلك في الخمر.
قال العلامة القرطبي في تفسيره عند تفسير هذه الآية: قوله تعالي وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ (أما في الخمر فربح التجارة، فإنهم كانوا يجلبونها من الشام برخص، فيبيعونها في الحجاز بربح، هذا أصح ما قيل في منتفعها). و بالمقارنة بين هذين الشيئين تبيّن ان الاسلام نفر من الخمر عن طريق بيان اضرارها الجسيمة و لكنه لم يحرّمها. و قد روي في سبب نزول هذه الآية ان جماعة من المسلمين فيهم عمر بن الخطاب جاءوا الي الرسول الكريم فقالوا يا رسول اللّه: اخبرنا عن الخمر؟ فإنها مذهبة للعقل، مضيعة للمال، منهكة للجسم؟ فأنزل اللّه عزّ و جلّ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ .. الآية.
و في المرحلة الثالثة: كان التحريم للخمر، و لكنه كان (تحريما جزئيا) حيث نزل قوله تعالي: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكاري حَتَّي تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ ... «2» الآية. فقد حرّم اللّه عليهم الخمر وقت الصلاة فقط حتي يصحوا من سكرهم، فكان المسلمون يشربونها ليلا و في غير أوقاف الصلاة، و قد روي في سبب نزول هذه الآية أن (عبد الرحمن بن عوف) صنع وليمة فدعا اليها بعض الصحابة، قال (علي بن ابي طالب): فدعانا و سقانا الخمر، فأخذت الخمر منّا، و حضرت الصلاة فقدّموني لأصلي بهم إماما فقرأت (قل يا أيها الكافرون. أعبد ما

---

(1) سورة البقرة، الآية: 219.
(2) سورة النساء، الآية: 43.
التبيان في علوم القرآن، ص: 40
تعبدون. و نحن نعبد ما عبدتم) الي آخر ذلك أي أنه لسكره غيّر فيها، فنزلت الآية الكريمة.
و في المرحلة الرابعة: و هي المرحلة الأخيرة كان التحريم الكلي، القاطع المانع، حيث نزل قوله تعالي يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ، وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ .. «1»؟ و سبب نزول هذه الآيات الكريمة علي ما ذكره المفسرون هو: أن بعض الصحابة صلوا العشاء ثم شربوا الخمر و جلسوا يتسامرون، فلعبت الخمر في رءوسهم و كان فيهم (حمزة بن عبد المطلب) عمّ النبي صلّي اللّه عليه و سلّم، و كانت جارية صغيرة تنشدهم و تغنّيهم، فقالت ضمن نشيدها:
ألا يا حمز للشرف النّوّاء و هنّ معقّلات بالفناء

تهيّج حمزة علي النوق (الإبل) التي كانت بجوار الدار، فقام حمزة فجبّ اسنمة ناقتي (عليّ) و بقر خاصرتيهما- و هو في حالة السكر- فأخبر عليّ بذلك فتألّم اشد الألم و ذهب الي النبي صلّي اللّه عليه و سلّم يشكو اليه ما فعل عمه (حمزة) فجاء النبي صلّي اللّه عليه و سلّم اليه يعاتبه و يلومه علي صنيعه، فجعل حمزة ينظر اليه نظرة غريبة (يصوّب بصره و يخفّضه) ثم خاطبه النبي صلّي اللّه عليه و سلّم و من معه بقوله: و هم انتم إلا عبيد لأبي؟ فعلم رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم ان عمه ثمل (أي سكران) فلم يؤاخذه، فقال عمر عندئذ: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانا شافيا، فأنزل اللّه إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ الآية.

و هكذا تم تحريم الخمر تحريما (بالتدرج)، فكان في ذلك اعظم حكمة جليلة سلكها الاسلام في معالجة الامراض الاجتماعية، و قد جاء في كتاب (مناهل العرفان) للزرقاني ما نصّه: (و تدرّج الاسلام بهم في تحريم ما كان مستأصلا فيهم كالخمر، تدرجا حكيما حقق الغاية، و انقذهم من كابوسها في النهاية، و كان الاسلام في انتهاج هذه الخطة

---

(1) سورة المائدة، الآيتان: 90، 91.

التبيان في علوم القرآن، ص: 41

المثلي أبعد نظرا، و أهدي سبيلا، و أنجح تشريعا، و أنجع سياسة، من تلكم الأمم المتمدنة المتحضرة التي افلست في تحريم الخمر علي شعوبها افظع إفلاس، و فشلت أمرّ فشل، و ما عهد امريكا في مهزلة تحريمها الخمر ببعيد!! أ ليس ذلك إعجازا للإسلام في سياسة الشعوب، و تهذيب الجماعات، بلي و التاريخ من الشاهدين.

أما الحكمة الرابعة: فهي: (تسهيل حفظ القرآن) علي المسلمين، و فهمهم و تدبرهم له، فمن المعلوم ان العرب كانوا أميين (أي لا يقرءون و لا يكتبون) و قد سجّل القرآن الكريم عليهم ذلك في قوله تعالي هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ .. «1» الآية. كما كان صلوات اللّه عليه أميا كذلك الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ «2» فاقتضت حكمة اللّه ان ينزل كتابه المجيد (منجما) ليسهل حفظه علي المسلمين، لأنهم كانوا يعتمدون علي ذاكرتهم، فكانت صدورهم اناجيلهم، كما ورد في وصف امة محمد صلّي اللّه عليه و سلّم، و أدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدي الكاتبين منهم علي ندرتهم، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه، و عجزوا بالتالي عن تدبّره و فهمه!! اما الحكمة الخامسة: فهي: (مسايرة الحوادث و الوقائع في حينها) و التنبيه علي الاخطاء في وقتها، فإن ذلك اوقع في النفس و أدعي الي أخذ العظة و العبرة منها عن طريق (الدرس العملي) فكلّما جدّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، و كلما حصل منهم خطأ او انحراف نزل القرآن بتعريفهم و تنبيههم الي ما ينبغي اجتنابه و

لطلب عمله و نبههم الي مواطن الخطأ في ذلك الوقت و الحين، خذ مثلا علي ذلك (غزوة حنين) فقد دخل الغرور الي نفوس المسلمين، و قالوا قولة الإعجاب و الاغترار لما رأوا عددهم يزيد علي عدد المشركين أضعافا مضاعفة، حينذاك داخلهم العجب فقالوا (لن نغلب اليوم من قلّة) و كانت النتيجة انكسارهم و انهزامهم و توليتهم الأدبار، و في ذلك يقول القرآن الكريم

---

(1) سورة الجمعة، الآية: 2.
(2) سورة الأعراف، الآية: 157.
التبيان في علوم القرآن، ص: 42
وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً، وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ «1» و لو ان القرآن نزل جملة واحدة لما أمكن التنبيه علي الخطأ في حينه، إذ كيف يتصور ان تنزل الآيات في شأن المؤمنين و اغترارهم و لم تحدث بعد تلك الواقعة او الغزوة؟ و كذلك الحال في اخذ الفداء من الأسري في (بدر) حيث نزل التوجيه السماوي الرائع ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْري حَتَّي يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ .. «2» الآية.
أما الحكمة السادسة: فهي (الإرشاد إلي مصدر القرآن الكريم و أنه تنزيل الحكيم الحميد) و في هذه الحكمة الجليلة يجدر بنا أن ننقل نصّ ما كتبه العالم الفاضل الشيخ (محمد عبد العظيم الزرقاني) في كتابه: مناهل العرفان حيث جاء برائع البيان فقال رحمه اللّه تعالي: (الإرشاد إلي مصدر القرآن، و أنه كلام اللّه وحده، و أنه لا يمكن أن يكون كلام محمد صلّي اللّه عليه و سلّم و لا كلام مخلوق سواه ..). و بيان ذلك: أن القرآن الكريم نقرؤه من أوله إلي آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قويّ الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره و آياته و جمله، يجري دم الإعجاز فيه كلّه من ألفه إلي يائه، كأنه سبيكة واحدة، و لا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك و لا تخاذل، كأنه سمط وحيد، و عقد فريد، يأخذ بالأبصار، نظّمت حروفه و كلماته، و نسّقت جمله و آياته .. و هنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز؟ و كيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ علي حين أنّه لم يتنزّل جملة واحدة، بل تنزّل آحادا مفرّقة تفرّق الوقائع و الحوادث في أكثر من عشرين عاما!! الجواب: أننا نلمح هنا سرا جديدا من أسرار الإعجاز، و نشهد سمة فذّة من سمات الربوبية و نقرأ دليلا ساطعا علي مصدر القرآن و أنه كلام الواحد الديّان وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «3»؟ و إلّا فحدّثني بربك كيف

---

(1) سورة التوبة، الآية: 25.
(2) سورة الأنفال، الآية: 67.

(3) سورة النساء، الآية: 82.

التبيان في علوم القرآن، ص: 43

تستطيع أنت؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعا أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال و الترابط، متين النسج و السّرد، متآلف البدايات و النهايات، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر، و هي (وقائع الزمن و أحداثه) التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعا لها، و متحدثا عنها، سببا بعد سبب، و داعية إثر داعية، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي، و تغاير ما بين تلك الاسباب، و مع تراخي زمان هذا التأليف، و تطاول آماد هذه النجوم إلي أكثر من عشرين عاما لا ريب أن هذا الانفصال الزماني، و ذاك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي، يستلزمان في مجري العادة (التفكك و الانحلال) و لا يدعان مجالا للارتباط و الاتصال، بين نجوم هذا الكلام. أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضا .. نزل مفرّقا منجما، و لكنّه تمّ مترابطا محكما، أ ليس ذلك برهانا ساطعا علي أنه كلام خالق القوي و القدر، و مالك الأسباب و المسبّبات، و مدبّر الخلق و الكائنات، و قيّوم الأرض و السموات، العليم بما كان و ما سيكون، الخبير بالزمان و ما يحدث فيه من شئون؟؟

لاحظ فوق ما أسفلنا أن رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم كان إذا أنزلت عليه آية أو آيات قال:

«ضعوها في مكان كذا، من سورة كذا» و هو بشر لا يدري طلعا ما ستجيء به الأيام، و لا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، و لا يدرك ما سيحدث من الدواعي و الأحداث، فضلا عمّا سينزل من اللّه فيها .. و هكذا يمضي العمر الطويل و الرسول علي هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجما بعد نجم، و إذا القرآن كلّه بعد هذا العمر الطويل يكمل و يتم، و ينتظم و يتآخي، و يأتلف و يلتئم، و لا يؤخذ عليه أدني تخاذل و لا تفاوت، بل يعجز الخلق طرّا، بما فيه من انسجام و وحدة و ترابط كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ «1»!! و إنه ليستبين لك سرّ هذا الإعجاز إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتّساق و الانسجام، لن يمكن أن يأتي علي هذا النمط الذي نزل به القرآن، و لا علي قريب من هذا النمط، لا في كلام الرسول صلّي اللّه عليه و سلّم و لا كلام غيره من البلغاء و غير البلغاء .. خذ

---

(1) سورة هود، الآية: 1.

التبيان في علوم القرآن، ص: 44

مثلا (حديث النبي صلّي اللّه عليه و سلم) و هو ما هو في روعته و بلاغته و طهره و سموّه، لقد قاله الرسول صلّي اللّه عليه و سلّم في مناسبات مختلفة، لدواع متباينة، في أزمات متطاولة، فهل في مكنتك و مكنة البشر معك أن ينظموا من هذا السرد الشتيت وحده، كتابا واحدا يصقله

الاسترسال و الوحدة، من غير أن ينقصوا منه، أو يتزيدوا عليه، أو يتصرفوا فيه؟؟

ذلك ما لن يكون، و لا يمكن أن يكون، و من حاول ذلك فإنما يحاول العبث، و يخرج للناس بثوب مرقّع، و كلام ملفّق، ينقصه الترابط و الانسجام، و يعوزه الوحدة و الاسترسال، و تمجّه الأسماع و الأفهام. إذن: فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجما بأنه كلام اللّه وحده، و تلك حكمة جليلة الشأن، تدلّ الخلق علي الحق في مصدر القرآن!! قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً «1»!!

كيف تلقّي النبيّ صلّي اللّه عليه و سلّم القرآن؟
تلقي النبي صلّي اللّه عليه و سلّم القرآن بواسطة أمين الوحي (جبريل) عليه السلام، و (جبريل) تلقاه عن ربّ العزّة جلّ جلاله، و ليس لجبريل الأمين سوي تبليغ كلام اللّه و إيحائه للرسول صلّي اللّه عليه و سلم .. فاللّه جلّت حكمته قد أنزل كتابه المقدس علي خاتم أنبيائه بواسطة (أمين الوحي) جبريل، و علّمه جبريل للرسول، و بلّغه الرسول لأمته، و قد وصف اللّه (جبريل) عليه السلام بأنه أمين علي الوحي، يبلّغه كما سمعه عن اللّه تعالي إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ* مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ «2» و قال تعالي في وصفه أيضا: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلي قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ «3» أمّا حقيقة الكلام، و حقيقة المنزل فإنما هو كلام اللّه، و تنزيل رب العالمين، كما قال تعالي وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّي الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ «4» و قد كان

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 6. أنظر مناهل العرفان: 1/ 54.
(2) سورة التكوير، الآيات: 19- 21.
(3) سورة الشعراء، الآيتان: 193- 194.
(4) سورة النمل، الآية: 6.

صلوات اللّه عليه يعاني عند نزول القرآن شدّة، و كان يحاول أن يجهد نفسه من أجل حفظ القرآن، فيكرّر القراءة مع جبريل حين يتلو عليه القرآن، خشية أن ينساه أو يضيع عليه شي‌ء منه، فأمره اللّه تعالي بالإنصات و السكوت عند قراءة جبريل عليه، و طمأنه بأنه تعالي سيجعل هذا القرآن محفوظا في صدره، فلا يتعجل في أمره، و لا يجهد نفسه في تلقّيه وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضي إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً «1» و أما تكفل اللّه تعالي له بالحفظ فقد جاء في قوله سبحانه لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ* فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ «2» و قد كان جبريل يدارس النبي صلّي اللّه عليه و سلّم القرآن في رمضان، فينزل جبريل علي رسول اللّه و يستمع له القرآن، فيقرأ الرسول بين يديه، و جبريل يستمع، و يقرأ جبريل و النبي يستمع، و هكذا يدارسه في كل رمضان ما نزل من القرآن مرّة واحدة، و قبل وفاته صلّي اللّه عليه و سلّم نزل عليه جبريل مرتين في رمضان فدارسه القرآن حتي لقد شعر عليه الصلاة و السلام- من نزول جبريل مرتين عليه- بدنوّ أجله، و قال لعائشة رضي اللّه عنها: «إن جبريل كان ينزل عليّ فيدارسني القرآن مرة

واحدة في رمضان، و قد نزل عليّ هذا العام مرتين، و ما أراني إلا قد اقترب أجلي» .. و قد كان الأمر كذلك فقد انتقل في ذلك العام إلي جوار ربه صلوات اللّه و سلامه عليه و انقطع بوفاته نزول الوحي.

أما كيف تلقّي جبريل القرآن عن اللّه عز و جل، فقد تقدّم معنا أنه كان سماعا حيث سمع من اللّه عز و جل هذه الآيات فنزل بها علي رسول اللّه ..

قال البيهقي في معني قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ «3» يريد- و اللّه أعلم- (إنّا أسمعنا الملك و أفهمناه إيّاه و أنزلناه بما سمع ..) انتهي .. و معني هذا أن جبريل أخذ القرآن عن اللّه تعالي سماعا و يؤيده ما روي في الحديث الشريف: «إذا تكلّم اللّه بالوحي

---

(1) سورة طه، الآية: 114.

(2) سورة القيامة، الآيات: 16- 19.

(3) سورة القدر، الآية: 1.

أخذت السماء رجفة شديدة من خوف اللّه، فإذا سمع أهل السماء صعقوا، و خرّوا سجّدا، فيكون أوّلهم يرفع رأسه (جبريل) فيكلّمه اللّه بوحيه بما أراد، فينتهي به إلي الملائكة، فكلّما مرّ بسماء سأله أهلها ما ذا قال ربنا؟ قال: الحق، فينتهي به حيث أمر». رواه الطبراني.

قال (الزرقاني) في كتابه مناهل العرفان: (و قد أسفّ بعض الناس فزعم أن جبريل كان ينزل علي النبي صلّي اللّه عليه و سلّم بمعاني القرآن، و الرسول يعبّر عنها بلغة العرب .. و زعم آخرون أن اللفظ لجبريل و أن اللّه كان يوحي إليه المعني فقط .. و كلاهما قول باطل أثيم، مصادم لصريح الكتاب و السنّة و الإجماع، و لا يساوي قيمة المداد الذي يكتب به، و عقيدتي أنه مدسوس علي المسلمين في كتبهم، و إلّا فكيف يكون القرآن حينئذ معجزا و اللفظ لمحمد أو لجبرئيل؟ ثم كيف تصحّ نسبته إلي اللّه و اللفظ ليس للّه؟ مع أن اللّه يقول حَتَّي يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ «1» إلي غير ذلك مما يطول بنا تفصيله «2».

هل السنة النبوية بوحي من اللّه؟
تقدّم معنا أن القرآن الكريم (كلام اللّه) و معني ذلك أن (اللفظ و المعني) هو من عند اللّه، و لا دخل لجبريل أو لمحمد فيه سوي التبليغ عن اللّه عز و جل، أما السنة النبوية فإنها بوحي كذلك من اللّه و لكنّ اللفظ للرسول و المعني من عند اللّه، لأن اللّه تعالي يقول وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوي* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحي «3». و قد نقل السيوطي عن (الجويني) أنه قال: (كلام اللّه المنزّل قسمان: قسم قال اللّه لجبريل: قل للنبي الذي أنت مرسل إليه إن اللّه يقول: افعل كذا و كذا، و أمر بكذا و كذا، ففهم جبريل ما قاله ربه ثم نزل علي ذلك النبي و قال له ما قاله ربه، و لم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول الملك لمن يثق به: قل لفلان يقول لك الملك: اجتهد في الخدمة،

---

(1) سورة التوبة، الآية: 6.
(2) أنظر: مناهل العرفان، ص 42.
(3) سورة النجم، الآيتان: 3- 4.

التبيان في علوم القرآن، ص: 47

و اجمع جندك للقتال .. فإن قال الرسول: يقول لك الملك: لا تتهاون في خدمتي، و لا تترك الجند يتفرق، و حثّهم علي القتال .. الخ لا ينسب إلي كذب و لا تقصير .. و قسم آخر قال اللّه لجبريل: اقرأ علي النبي هذا الكتاب، فنزل به جبريل من اللّه من غير تغيير، كما يكتب الملك كتابا و يسلمه إلي أمين و يقول اقرأه علي فلان .. قال السيوطي: القرآن هو القسم الثاني و القسم الأول هو السنة، و من هنا جاز رواية السنة بالمعني بخلاف القرآن).

التبيان في علوم القرآن، ص: 49

الفصل الرّابع جمع القرآن

جمع القرآن في عهد النبوة:

جمع القرآن في عهد النبوة:

جمع القرآن الكريم في عهدين: عهد النبوة، و عهد الخلفاء الراشدين، و قد كان لكل جمع خصائصه و مزاياه، و كلمة (جمع) تطلق أحيانا و يراد منها الحفظ و الاستظهار في صدور الرجال، و تطلق تارة و يراد منها الكتابة و التسجيل في الصحائف و الأوراق .. و قد كان لجمع القرآن في عصر النبوة الأمران معا:

أولا: الجمع في الصدور، عن طريق الحفظ و الاستظهار.

ثانيا: الجمع في السطور، عن طريق الكتابة و النقش.

و سنتحدث عن كلا الجمعين بشيء من التفصيل، ليتبين لنا العناية الفائقة بالقرآن لعظيم و كتابته و تدوينه، مما لم يسبق لكتاب سماوي أن نال من الرعاية و العناية و الاهتمام كما ناله القرآن الكريم، كتاب اللّه المجيد، و معجزة محمد الخالدة.

جمع القرآن في الصدور:

نزل القرآن الكريم علي النبي الأمي، فكانت همّته منصرفة إلي حفظه و استظهاره ليحفظه كما نزل عليه، ثم يقرأه علي الناس علي مكث ليحفظوه و يستظهروه، ضرورة

التبيان في علوم القرآن، ص: 50

أمه نبيّ أميّ بعثه اللّه إلي العرب الأميين «1» هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ، يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ، وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ .. «2» الآية. و من شأن الأمي- في العادة- أن يعتمد علي حافظته و ذاكرته، لأنه لا يقرأ و لا يكتب، و لقد كانت الأمة العربية علي عهد نزول القرآن، تتمتع بخصائص العروبة الكاملة، التي فيها قوة الذاكرة، و سرعة الحفظ، و سيلان الأذهان، و كان العربي يحفظ مئات الآلاف من الأشعار و يعرف الأحساب و الأنساب، فيستظهرها عن ظهر قلب، و يعرف التواريخ و قلّ أن تجد منهم من لا يعدّ لك الحسب و النسب، أو من لا يحفظ (المعلقات العشر) علي كثرة أشعارها، و صعوبة حفظها!! ثم جاءهم القرآن الكريم فبهرهم بقوة بيانه، و روعة أحكامه، و جلال سلطانه فأخذ عليهم مشاعرهم، و استحوذ علي عقولهم و أفكارهم، حتي صرف هممهم إلي الكتاب المجيد فيمّموا وجوههم نحوه، يحفظونه و يستظهرون آياته و سوره، و تركوا الشعر لأنهم وجدوا في القرآن روح الحياة!! أما النبي صلّي اللّه عليه و سلّم فقد بلغ من حرصه الشديد علي حفظ القرآن أن يحيي الليل بتلاوة آيات القرآن في الصلاة، عبادة و تلاوة و تدبرا لمعانيه، حتي تفطّرت قدماه الشريفتان من كثرة القيام امتثالا لأمر اللّه العلي الكبير يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ* قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا* نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا «3» لذلك فلا عجب أن يكون صلّي اللّه عليه و سلّم سيّد الحفاظ، و أن يجمع القرآن في قلبه الشريف، و يكون مرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن العظيم «4»!.

و أما الصحابة رضوان اللّه عليهم فقد كانوا يتسابقون إلي تلاوة القرآن و مدارسته، و يبذلون قصاري جهدهم لاستظهاره و حفظه، و يعلّمونه أزواجهم و أولادهم في

---

(1) انظر مناهل العرفان للزرقاني.

(2) سورة الجمعة، الآية: 2.

(3) سورة المزمل، الآيات: 1- 4.

(4) من مناهل العرفان للزرقاني بتصرف.

التبيان في علوم القرآن، ص: 51
البيوت، حتي لقد كان الذي يمر ببيوت الصحابة في غسق الدّجي، يسمع فيها دويا كدويّ النحل بالقرآن، حتي كان صلوات اللّه عليه يمر علي بعض دور الأنصار، فيقف علي بعضهم يستمع القرآن في ظلام الليل ..
أخرج البخاري عن (أبي موسي الأشعري) ان رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم قال له: و لو رأيتني البارحة و أنا أستمع لقراءتك؟ لقد أعطيت مزمارا من مزامير آل داود» ..
و زاد في رواية لمسلم: فقلت: لو علمت و اللّه يا رسول اللّه أنّك تستمع لقراءتي لحبّرته لك تحبيرا. و روي عن رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم أنه قال: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، و أعرف منازلهم من أصواتهم بالليل بالقرآن، و إن كنت لم أر منازلهم بالنهار». رواه الشيخان.
و قد اشتهر كثير من الصحابة بحفظ القرآن الكريم، و كان الرسول صلّي اللّه عليه و سلم يذكي فيهم روح العناية بحفظ القرآن، و يبعث إلي المدن و القري من يعلمهم و يقرئهم، كما بعث- قبل الهجرة- (مصعب بن عمير) و (ابن أم مكتوم) إلي أهل المدينة، يعلّمانهم الإسلام، و يقرءانهم القرآن، و كما بعث (معاذ بن جبل) إلي مكة للتحفيظ و التعليم بعد هجرته صلّي اللّه عليه و سلم.
قال (عبادة بن الصامت): كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي صلّي اللّه عليه و سلّم إلي رجل منا يعلّمه القرآن، و كان يسمع لمسجد رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم ضجة بتلاوة القرآن، حتي أمرهم رسول اللّه أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا).
و من هنا كان حفّاظ القرآن في حياة الرسول صلّي اللّه عليه و سلّم لا يحصون، و يكفي أن نعلم أن عدد الذين استشهدوا في (معركة اليمامة) يزيد عددهم علي سبعين من كبار الحفاظ، كما قتل مثل هذا العدد في عهد الرسول ببئر معونة .. قال القرطبي: (قتل يوم اليمامة سبعون من القراء و قتل في عهد رسول اللّه ببئر معونة مثل هذا العدد). أي: أن عدد الذين استشهدوا من الحفظة 140. و لقد كانت أشرف خصوصية لهذه الأمة المحمدية أن يكون هذا الكتاب المقدس محفوظا في صدورها، و أن تعتمد في نقله علي حفظ القلوب و الصدور، لا علي كتابته في المصاحف و السطور فحسب .. بخلاف أهل
التبيان في علوم القرآن، ص: 52
الكتاب الذين لا نجد منهم من يحفظ التوراة أو الانجيل، و إنما يعتمدون في حفظهما علي الكتب المسطّرة، و لا يقرءونه إلا نظرا، لا عن ظهر قلب، و لهذا دخل إليهما التحريف و التبديل، أما القرآن الكريم فقد حفظه اللّه بعنايته الإلهية، فيسّره للحفظ وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ

«1» و صانه من التحريف و التبديل بطريق حفظه في السطور، و حفظةً في الصدور و مصداقا لقوله تعالي إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «2» و هذا- بلا شك عناية من اللّه خاصة بهذا القرآن المجيد، و شرف عظيم اختص اللّه به هذه الأمة المحمدية حيث جعل أناجيلها في صدورها، و أنزل عليها كتابا لا يغسله الماء و للّه درّ القائل:

اللّه أكبر إنّ دين محمد و كتابه أقوي و أقوم قيلا

لا تذكر الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئ القنديلا

جمع القرآن في السطور:
و أما المزية الثانية لهذا القرآن العظيم فهو جمعه و كتابته في المصحف، فقد كان لرسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم كتّاب للوحي، كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته، مبالغة في تسجيله و تقييده، و زيادة في التوثق و الضبط، و الاحتياط الشديد في كتاب اللّه عز و جل، حتي تظاهر الكتابة الحفظ، و يعاضد التسجيل المسطور، ما أودعه اللّه في الصدور .. و كان هؤلاء الكتّاب من خيرة الصحابة اختارهم رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم من المجيدين المتقنين، ليتولوا هذه المهمة العظيمة .. و قد اشتهر منهم (زيد بن ثابت، و أبيّ بن كعب، و معاذ بن جبل، و معاوية بن أبي سفيان، و الخلفاء الراشدون) و غيرهم من الصحابة الأجلّاء رضوان اللّه عليهم أجمعين.
روي الشيخان عن أنس رضي اللّه عنه أنه قال: (جمع القرآن علي عهد رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم أربعة كلهم من الأنصار: أبيّ بن كعب، و معاذ بن جبل، و زيد بن ثابت، و أبو زيد، قيل

---

(1) سورة القمر، الآية: 17.
(2) سورة الحجر، الآية: 9.
التبيان في علوم القرآن، ص: 53
لأنس: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي) و هؤلاء هم مشاهير كتّاب الوحي و إلّا فهناك من الصحابة الجمع الكبير الذين كانوا يكتبون القرآن، و كثير منهم كان له مصحف خاص كتب فيه ما سمعه أو حفظه من رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم لمصحف ابن مسعود.
و مصحف عليّ، و مصحف عائشة و غيرهم.

طريقة الكتابة:

طريقة الكتابة:

و أما طريقة الكتابة فقد كانوا يكتبون القرآن علي العسب «1»، و اللّخّاف «2» و الرّقاع «3»، و عظام الأكتاف و غيرها، ذلك لأنه صنع الورق لم يكن مشتهرا عند العرب، و قد كان عند بعض الأمم الآخرين كالفرس و الروم، و لكنّه كذلك كان نادرا فلم يكن منتشرا، فكان العرب يكتبون علي ما يقع تحت أيديهم مما يصلح للكتابة، روي عن زيد بن ثابت رضي اللّه عنه أنه قال: (كنا عند رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم نؤلف القرآن من الرقاع) أي نجمعه و كان هذا التأليف عبارة عن (ترتيب الآيات) حسب إرشاد النبي صلّي اللّه عليه و سلّم و بأمر من اللّه تبارك و تعالي و لهذا اتفق العلماء علي أن جمع القرآن (توقيفي) يعني أن ترتيبه بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصحف إنما هو بأمر و وحي من اللّه، فقد ورد أن جبريل عليه السّلام كان ينزل بالآية أو الآيات علي النبي فيقول له: يا محمد إنّ اللّه يأمرك أن تضعها علي رأس كذا من سورة كذا.

و كذلك كان الرسول يقول للصحابة: ضعوها في موضع كذا.

جمع القرآن في عهد أبي بكر:
انتقل رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم إلي جوار اللّه، بعد أن أدّي الرسالة، و بلّغ الأمانة، و نصح الأمة، و هدي الناس إلي دين اللّه القويم، و تولّي الخلافة بعده (أبو الصديق) رضي الله عنه و أرضاه، و قد واجهته- في خلافته- خطوب جسيمة، و شدائد عظيمة، و مشاكل

---

(1) العسب: جمع عسيب و هو جريد النخل، كانوا يكشفون الخوص، و يكتبون في الطرف العريض.
(2) اللخاف: جمع لخفة بفتح اللام و سكون الخاء و هي الحجارة الرفيقة.
(3) الرقاع: جمع رقعة. و هي قد تكون من جلد أو ورق أو غيرها من أدوات الكتابة.

التبيان في علوم القرآن، ص: 54

صعاب، منها حروب الردّة التي وقعت بين المسلمين، و بين أتباع (مسيلمة الكذّاب) و كانت معركة (اليمامة) معركة حامية الوطيس، و قد استشهد فيها كثير من قرّاء الصحابة، و من حفظه القرآن يزيد عددهم علي (70) سبعين من كبار الحفّاظ، و قد هال ذلك المسلمين، و عزّ الأمر علي (عمر) فدخل علي (أبي بكر) فوجده في حزن و ألم، فأشار عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفّاظ، فتردّد (أبو بكر) أوّل الأمر، ثم رأي أن يأخذ بإشارة (عمر) بعد أن تبيّن له وجه المصلحة، و شرح اللّه صدره لذلك العمل الجليل، فأرسل إلي (زيد بن ثابت) و عرض عليه الأمر، و طلب منه أن يقوم بجمع القرآن في مصحف واحد، و لكنّ (زيدا) تردّد في بادئ الأمر، ثم شرح اللّه صدره للذي شرح له صدر أبي بكر و عمر .. و قد روي البخاري في صحيحه قصة هذا الجمع ننقلها بنصّها لأهميتها.

رواية البخاري.
عن (زيد بن ثابت) رضي اللّه عنه أنه قال:
(أرسل إلي أبو بكر رضي اللّه عنه مقتل أهل اليمامة (أي عقب استشهاد الحفّاظ السبعين في معركة اليمامة) فإذا عمر جالس عنده، فقال أبو بكر: إن عمر جاءني فقال: (إن القتل قد استحرّ (أي كثر و اشتدّ) يوم اليمامة بقرّاء القرآن، و إني أخشي أن يستمرّ القتل بالقرّاء في كل المواطن فيذهب من القرآن كثير، و إني أري أن تأمر بجمع القرآن، فقلت: و كيف أفعل ما لم يفعله رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم؟ فقال: عمر رضي اللّه عنه: هو و اللّه خير، فلم يزل يراجعني في ذلك حتي شرح اللّه تعالي صدري للذي شرح اللّه له صدر عمر، و رأيت في ذلك الذي رأي .. قال زيد: فقال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل، لا نتّهمك، كنت تكتب الوحي لرسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم فتتبّع القرآن و أجمعه ..
قال زيد: فو اللّه لو كلّفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به ..
فقلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم؟ فقال أبو بكر: هو و اللّه خير، فلم يزل يراجعني حتي شرح اللّه صدري للذي شرح له صدر أبي بكر و عمر .. فتتبّعت القرآن أجمعه من اللّخاف، و العسب، و صدور الرجال، حتي وجدت آخر سورة التوبة
التبيان في علوم القرآن، ص: 55
مع (أبي خزيمة الأنصاري) لم أجدها عند أحد غيره لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ .. إلي وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ «1» أي: إلي آخر السورة .. فكانت الصحف عند (أبي بكر) حتي توفاه اللّه تعالي، ثم عند (عمر) حتي توفاه اللّه تعالي، ثم عند (حفصة بنت عمر) رضي اللّه عنهم أجمعين. فهذه الرواية دلّت علي (سبب جمع القرآن). «رواه البخاري».

تساؤلات حول جمع القرآن:
و هنا أسئلة ينبغي الإجابة عليها بشيء من التفصيل و نحن نوجزها فيما يلي:
أولا: لما ذا تردّد (أبو بكر) عن جمع القرآن مع أنه شيء حسن و أمر يوجبه الاسلام؟
و الجواب: عن ذلك: أن (أبا بكر) رضي اللّه عنه خشي أن يتساهل الناس في استظهار القرآن و حفظه غيبا و يعتمدوا علي وجوه في المصاحف فتضعف نفوسهم عن الحفظ، و تصبح رغبتهم ضعيفه في حفظه و استظهاره اعتمادا علي أنه مسطّر و موجود في مصاحف مطبوعة يمكنهم قراءة القرآن بها، أما قبل أن توجد المصاحف فقد كان الجميع يسعون جهدهم لحفظ القرآن هذا من ناحية، و من ناحية أخري: فإن أبا بكر الصديق كان رجلا وقافا عند حدود الشرع، مقتفيا لآثار الرسول صلّي اللّه عليه و سلّم فقد خشي أن يكون بعمله هذا مبتدعا شيئا لا يحبه رسول اللّه، و لهذا قال لعمر: (كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول اللّه)؟ و لعله كان يخاف أن يسوقه الإنساء و الاختراع إلي الوقوع في المخالفة و الابتداع. و لكنّه لما رأي الأمر خطيرا و الفكرة- في حد ذاتها- وسيلة من أعظم الوسائل لحفظ الكتاب الشريف و المحافظة عليه من الضياع و التحريف، و أيقن أنها ليست من الأمور الخارجة و لا من البدع المستحدثة عزم علي جمع القرآن، و ظلّ يقنع زيدا بذلك حتي شرح اللّه صدره فقام بتنفيذ ذلك الأمر الخطير و اللّه أعلم.

---

(1) سورة التوبة، الآيتان: 128- 129.
التبيان في علوم القرآن، ص: 56
ثانيا: لما ذا اختار أبو بكر (زيد بن ثابت) من بين الصحابة الكرام لهذا العمل الجليل؟
و الجواب عن ذلك: أن زيدا رضي اللّه عنه قد اجتمع فيه من المواهب العظيمة التي تؤهله لجمع القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال، إذ كان من حفّاظ القرآن، و من كتّاب الوحي لرسول اللّه، و شهد (العرضة الأخيرة) للقرآن في ختام حياته صلّي اللّه عليه و سلم ..
و كان فوق ذلك معروفا بشدة ورعه، و عظم أمانته، و كمال خلقه، و استقامة دينه، و كان معروفا بالنبوغ و الذكاء، و هذا ما أشار إليه كلام أبي بكر في رواية البخاري حين استدعاه و قال له: (إنك رجل شاب عاقل لا نتّهمك، كنت تكتب الوحي لرسول اللّه) ..
فلهذه الخصال و المزايا الحميدة اختاره أبو بكر الصديق لجمع القرآن .. و مما يدلّ علي شدة ورع زيد بن ثابت أنه قال: (فو اللّه لو كلّفني نقل جبل

من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به) الحديث.
ثالثا: ما هو المقصود من قول زيد في رواية البخاري (حتي وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة لم أجدها عند غيره)؟.
و الجواب عن ذلك: أن زيدا رضي اللّه عنه لم يجد هذه الآيات مكتوبة عند أحد من الصحابة إلّا عند أبي خزيمة الأنصاري، و ليس المراد أنها لم تكن محفوظة، إذ أن زيدا نفسه كان يحفظها، و كان كثير من الصحابة يحفظونها، و لكنه أراد أن يجمع بين (الحفظ و الكتابة) كما سنبينه إن شاء اللّه زيادة في التوثق و مبالغة في الاحتياط، و علي ذلك النهج الرشيد تمّ جمع القرآن.

الخطة الرشيدة في جمع القرآن:
و قد انتهج (زيد بن ثابت) في جمع القرآن خطة رشيدة في غاية الدقّة و الإحكام، فيها ضمان لحياطة هذا الكتاب المجيد، بما يليق به من تثبت بالغ، و حذر دقيق، فلم يكتف بما حفظ في قلبه و لا بما كتب بيده، و لا بما سمع بأذنه، بل جعل يتتبّع و يستقصي آخذا علي نفسه أن يعتمد في جمع القرآن علي مصدرين اثنين:
التبيان في علوم القرآن، ص: 57
أ- ما كان محفوظا في صدور الرجال.
ب- ما كتب بين يدي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم.
فلا بدّ أن يتضافر الأمران (الحفظ و الكتابة) و بلغ من شدة حرصه و احتياطه أنه كان لا يقبل شيئا من المكتوب حتي يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم. يدل عليه الحديث الذي رواه (أبو داود) في سننه قال: (قدم عمر فقال:
من كان تلقّي من رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم شيئا من القرآن فليأت به، و كانوا يكتبون ذلك في الصحف و الألواح و العسب و كان لا يقبل من أحد شيئا حتي يشهد شاهدان). و يدل عليه كذلك ما رواه أبو داود أيضا أن أبا بكر رضي اللّه عنه قال لعمر، و لزيد:
(اقعدا علي باب المسجد فمن جاء كما بشاهدين علي شيء من كتاب اللّه فاكتباه). قال ابن حجر: المراد بالشاهدين: الحفظ، و الكتابة .. و قال السخاوي المراد (أنهما يشهدان علي أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم) و ذلك غاية في التثبت و الدقة و الإحكام من الصدّيق رسمه منهجا لزيد بن ثابت رضي اللّه عنهم أجمعين.

مزايا مصحف أبي بكر الصديق:

امتازت الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق في (مصحف واحد) بعدة مزايا أهمها:

أولا: التحرّي الدقيق التام، و التثبّت الكامل.

ثانيا: لم يسجّل في المصحف إلا ما ثبت عدم نسخ تلاوته.

ثالثا: إجماع الأمة عليه، و تواتر ما سجّل فيه من الآيات القرآنية.

رابعا: شمول المصحف للقراءات السبع التي نقلت بالنقل الثابت الصحيح.

و هذه المزايا جعلت الصحابة يلهجون بالثناء العاطر علي أبي بكر الصديق حيث القرآن الكريم من الضياع، و ذلك بتوفيق من اللّه عز و جل و مدد من عنده، و قد قال (علي بن أبي طالب) كرّم اللّه وجهه: (أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر، رحمة اللّه علي أبي بكر، هو أول من جمع كتاب اللّه). و لقد أصبح جمع القرآن منقبة

التبيان في علوم القرآن، ص: 58

خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل و الثناء العاطر لأبي بكر في التوجيه و الإشراف، و لزيد بن ثابت في التنفيذ و العمل رضوان اللّه عليهم أجمعين. و جمع القرآن في مصحف واحد في عهد أبي بكر لا يعني أن الصحابة رضوان اللّه عليهم لم يكن لديهم مصاحف كتبوا فيها القرآن من قبل، فإن ذلك لا ينافي أن يكون لبعض الصحابة مصحف خاص، و لكن هذه المصاحف لم تظفر بما ظفر به مصحف أبي بكر من دقة البحث و التحري، و الاقتصار علي ما لم تنسخ تلاوته، و من بلوغه حدّ التواتر، و من اجماع الأمة عليه، و من شموله للأحرف السبعة (القراءات السبع) كما تقدّم، فهذا (علي) رضي اللّه عنه كأن له مصحف خاص كتبه في بدء خلافة أبي بكر، و عزم ألّا يخرج إلا للصلاة حتي ينتهي من كتابته ...

روي السيوطي عن (محمد بن سيرين) عن (عكرمة) انه قال: لمّا كان بدء خلافة أبي بكر، قعد علي بن أبي طالب في بيته، فقيل لأبي بكر: قد كره بيعتك، فأرسل إليه فقال: أكرهت بيعتي؟ فقال: رأيت كتاب اللّه يزاد فيه فحدّثت نفسي ألّا ألبس ردائي إلا لصلاة حتي أجمعه، قال له أبو بكر: فإنك نعم ما رأيت «1» فقد كان له مصحف و لكنه كما يروي عن ابن سيرين كان فيه الناسخ و المنسوخ فلم يكن مثل مصحف أبي بكر.

لما ذا لم يجمع القرآن في مصحف واحد؟

و نتساءل هنا: لما ذا لم يجمع القرآن الكريم في مصحف واحد في زمن النبي صلّي اللّه عليه و سلم؟

و الجواب عن ذلك:

أولا:: إن القرآن لم ينزل مرة واحدة و إنما نزل مفرّقا، و لا يمكن جمعه قبل أن يتكامل النزول.

ثانيا: إنّ بعض الآيات كانت تنسخ، و إذا كان القرآن عرضة للنسخ فكيف يمكن أن تجمع في مصحف واحد.

---

(1) أنظر: كتاب الاتقان للسيوطي.

التبيان في علوم القرآن، ص: 59

ثالثا: إن ترتيب الآيات و السّور لم يكن علي حساب النزول فقد تنزل بعض الآيات في أواخر الوحي بينما يكون ترتيبها في أوائل السور الكريمة و هذا يقتضي تغيير المكتوب.

رابعا: كانت المدّة بين نزول آخر ما نزل و بين وفاته صلّي اللّه عليه و سلّم قصيرة جدا، و قد تقدّم في الفصل الأول أن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالي وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَي اللَّهِ .. «1» الآية. و قد انتقل رسول اللّه إلي جوار ربه بعد نزولها بتسع ليال، فالمدة إذا قصيرة، و لا يمكن جمعه قبل تكامل النزول.

خامسا: لم يوجد من دواعي الجمع في مصحف واحد مثل ما وجد في عهد أبي بكر، فقد كان المسلمون بخير، و القرّاء كثيرون، و الفتنة مأمونة، بخلاف ما حصل في عهد أبي بكر من مقتل الحفّاظ حتي خاف علي ضياع القرآن.

و الخلاصة: إن القرآن لو جمع في مصحف واحد و الحال علي ما ذكرنا لكان القرآن عرضة للتغيير و التبديل كلما وقع نسخ، أو حدث سبب، مع أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة. و الظروف لا تساعد علي ترك المصحف القديم، و الاعتماد علي المصحف الجديد، لأنه لا يمكن أن يكون في كل شهر أو يوم مصحف يجمع كل ما نزل من القرآن و لكن لما استقرّ الأمر بختام التنزيل، و وفاة الرسول، و أمن النسخ، و عرف الترتيب أمكن جمعه في مصحف واحد، و هذا ما فعله الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه و جزاه عن القرآن و المسلمين خير الجزاء.

جمع القرآن في عهد عثمان.
أما جمع القرآن في عهد عثمان فقد كان له سبب آخر غير السبب الذي حدث في عهد أبي بكر. فقد اتسعت الفتوحات الإسلامية في عهد عثمان، و تفرّق المسلمون في الأقطار و الأمصار، و اشتهر في كل بلدان من البلاد الإسلامية قراءة الصحابي الذي علّمهم القرآن، فأهل الشام كانوا يقرءون بقراءة (أبيّ بن كعب) و اهل الكوفة كانوا

---

(1) سورة البقرة، الآية: 281.
التبيان في علوم القرآن، ص: 60

يقرءون بقراءة (عبد اللّه بن مسعود) و غيرهم كان يقرأ بقراءة (أبي موسي الأشعري)، فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء، و وجوه القراءات، حتي كاد الأمر يصل إلي النزاع و الشقاق، بينهم، و كاد بعضهم يكفّر بعضا بسبب (اختلاف القراءة).
روي عن أبي قلابة أنه قال: (لما كانت خلافة عثمان، جعل المعلّم (المقرئ) يعلّم قراءة الرجل، و المعلّم يعلّم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتي ارتفع إلي المعلّمين، حتي كفّر بعضهم بعضا، فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال: أنتم عندي تختلفون، فمن نأي (أي بعد) عني من الأمصار فهم أشدّ اختلافا). لهذه الأسباب و الأحداث رأي عثمان بثاقب رأيه، و صادق نظره، أن يتدارك الخرق قبل أن يتّسع علي الراقع، و أن يستأصل الداء قبل أن يصعب الدواء، فجمع أعلام الصحابة، و رجال الرأي و البصر فيهم، و استشارهم في علاج تلك الفتنة، و علاج ذلك الاختلاف، فأجمعوا أمرهم علي أن يستنسخ أمير المؤمنين مصاحف عديدة، و يبعث إلي كل بلد أو مصر بمصحف منها، و أن يأمر الناس بإحراق كل ما عداها، حتي لا يبقي ثمة طريق للنزاع و الاختلاف في وجوه القراءة، فشرع- رضي اللّه عنه- بتنفيذ هذا القرار الحكيم، فعهد إلي أربعة من خيرة الصحابة، و ثقات الحفّاظ و هم (زيد بن ثابت) و (عبد اللّه بن الزبير) و (سعيد بن العاص) و (عبد الرحمن بن هشام) و قد كانوا جميعا من قريش من المهاجرين إلا (زيد بن ثابت) فقد كان من الأنصار، و كان هذا العمل الجليل سنة 24 هجرية، و قال لهؤلاء إذا اختلفتم في شيء من وجوه القراءة فاكتبوه بلغة قريش، فإنّ القرآن نزل بلغتهم. و طلب عثمان من (حفصة بنت عمر) أن تعطيه المصحف الذي كان عندها، و الذي جمعه أبو بكر لينسخ منه عدة نسخ ثم يعيده إليها، ففعلت.

سبب جمع عثمان للقرآن الكريم:

روي البخاري عن أنس بن مالك أنه قال::

(أن (حذيفة بن اليمان) قدم علي عثمان، و كان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية

التبيان في علوم القرآن، ص: 61

و أذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان:

يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود و النصاري، فأرسل عثمان إلي حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلي عثمان فأمر زيد بن ثابت، و عبد اللّه بن الزبير، و سعيد بن العاص، و عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، و قال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم و زيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتي إذا نسخوا المصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلي حفصة و أرسل إلي كل أفق بمصحف مما نسخوا، و أمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق) «1» «رواه البخاري».

الفرق بين جمع أبي بكر و جمع عثمان:
الفرق بين جمع أبي بكر و جمع عثمان: و نستطيع مما سبق أن نعرف الفرق بين جمع أبي بكر و جمع عثمان، و هو أن الجمع في عهد أبي بكر كان عبارة عن نقل القرآن و كتابته في مصحف واحد مرتب الآيات، جمعه اللخاف و العسب و الرّقاع، و كان سبب الجمع (موت الحفّاظ)، و أما جمع عثمان فقد كان عبارة عن نسخ عدة نسخ من المصحف الذي جمع في عهد أبي بكر لترسل إلي الآفاق الإسلامية. و كان سبب الجمع إنما هو (اختلاف القرّاء) في قراءة القرآن، و اللّه أعلم و صلي اللّه علي سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم.

---

(1) انظر: صحيح البخاري: باب جمع القرآن.
التبيان في علوم القرآن، ص: 63

الفصل الخامس التفسير و المفسّرون

الفصل الخامس التفسير و المفسّرون
أنزل اللّه كتابه العظيم، ليكون دستورا للمسلمين، و منهاجا يسيرون عليه في حياتهم، فيستضيئون بضيائه، و يهتدون بهديه، و يقبسون من تعاليمه الرشيدة، و نظمه الحكيمة ما يجعلهم في أوج السعادة و العزّة، و يرفع بهم إلي ذري المجد و الكمال، و يؤهلهم إلي قيادة ركب الانسانية، و يجعلهم السادة و القادة في هذه الحياة، يسيرون بالأمم إلي حياة العزة و الكرامة، و يوصلونهم إلي شاطئ الأمن و الاستقرار و السّلام.
و لا ريب أن البشرية تتخبط اليوم في ظلمات الشقاوة و الجاهلية، و تغرق في بحار التحلّل و عبادة المال، و ليس لها من منقذ إلا الإسلام، عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن و نظمه الحكيمة، التي روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري، علي ما أحاط به علم الخالق الحكيم، و من البدهي أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن و تدبّره، و الوقوف علي ما حوي من نصح و إرشاد، و هذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف و البيان، لما تدل عليه آيات القرآن، و هو ما نسميه ب (علم التفسير) خصوصا في هذه العصور الأخيرة التي فسدت فيها ملكة البيان العربي، و ضاعت فيها خصائص العروبة، حتي من سلائل العرب أنفسهم. فالتفسير هو المفتاح لهذه الكنوز و الذخائر، التي احتواها هذا الكتاب المجيد، و بدونه لا يمكن الوصول إلي هذه الكنوز و الذخائر، و اللئالئ و الجواهر، مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن، و قرءوا آياته في كل صباح و مساء.
التبيان في علوم القرآن، ص: 64
و إنه لمن المؤسف أن يكتفي المسلمون من القرآن بألفاظ يردّ دونها، و أنغام يلحّنونها، في المآتم و المقابر، و عند الاحتفالات الرسمية، ثم لا يكون للقرآن نصيب منهم إلا الطرب بالسماع أو التبرك بالتلاوة، و هذا ما عناه الرسول صلّي اللّه عليه و سلّم بقوله «يتّخذون القرآن مزامير» و قد نسي المسلمون أو تناسوا أن بركة القرآن العظمي إنما هي في تدبره و تفهمه، و في الاهتداء بهديه، و الاستفادة من تعاليمه و توجيهاته، ثم الوقوف عند أوامره و مراضيه، و البعد عن مساخطه و نواهيه، و اللّه تعالي يقول: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ «1» و يقول سبحانه أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ؟ أَمْ عَلي قُلُوبٍ أَقْفالُها «2» و يقول جلّ ذكره:
وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟ «3».
فما أشبه المسلمين اليوم بالرجل العطشان يموت من الظما و الماء بين يديه، أو بالحيوان يهلك من الجوع و العطش و الزاد و الماء علي ظهره، و ما أجمل قول القائل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما و الماء فوق ظهورها محمول
و لقد صدق رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم حين قال:
«لقد تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما بعدي أبدا، كتاب اللّه، و سنتي) «4».

لما ذا نفسّر القرآن؟
أسئلة تخطر ببال كل إنسان .. و تجول في كل فكر «لما ذا نفسّر القرآن»؟
أ لنجيد قراءته، و نتقن تلاوته؟

---

(1) سورة ص، الآية: 29.
(2) سورة محمد، الآية: 24.
(3) سورة القمر، الآية: 17، و الآية: 22، و الآية: 32.
(4) الحديث رواه أصحاب السنن.

التبيان في علوم القرآن، ص: 65

أم لنزيل الستار عن غامض معانيه؟
أم لنجلو أسراره، و نبرز محاسنه؟
لا .. لا .. ليس لهذا، و لا لذاك فقط، بل لنتحرر من عبادة العباد، و تبعية البشر، إلي عبادة رب العباد جلّ و علا .. و نربط الفرد و الجماعة بخالق العوالم، و مدبّر الكون، ربّ السموات العلي، و ربّ العرش العظيم!! فالقرآن الكريم دستور الأمة، و هداية الخالق، و شريعة اللّه لأهل الأرض، و هو النور الرباني، و الهدي السماوي، و التشريع العام الخالد، الذي تكفّل بكل ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم و دنياهم. و لا عجب فهو كتاب كامل، و نظام شامل، يشمل جوانب الحياة بأجمعها، في العقائد. و العبادات. و الأخلاق. و المعاملات. و في السياسة و الحكم. و في السّلم و الحرب. و في الشئون الاقتصادية و العلاقات الدولية. فهو كتاب جامع أنزله اللّه تبيانا لكل شيء و هدي و رحمة لقوم يؤمنون، و هو في ذلك كله حكيم كل الحكمة، لا يعتريه خلل و لا اختلاف، فلا عجب أن كانت السعادة لا تنال إلا بهديه، و التزام ما جاء به، فهو شفاء لما في الصدور، و علاج لما حلّ أو يحلّ بالمجتمع من شرور. وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَ لا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إِلَّا خَساراً. «1»

الفرق بين التفسير و التأويل:

التفسير في اللغة هو: الإيضاح و التبيين. قال تعالي وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً «2»، فقولنا: فسّر بمعني: بيّن و وضّح، و كلام مفسّر: أي واضح ظاهر. و أما التفسير في الاصطلاح فهو: علم يعرف به فهم كتاب اللّه المنزل علي نبيّه محمد صلّي اللّه عليه و سلم، و بيان معانيه، و استخراج أحكامه و حكمه «3». و عرّفه غيره بأنه

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 82.

(2) سورة الفرقان، الآية: 33.

(3) التعريف للزركشي من كتاب البرهان ص 13.

التبيان في علوم القرآن، ص: 66

(علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته علي مراد اللّه تعالي بقدر الطاقة البشرية «1».

معني التأويل:

معني التأويل:
و أما التأويل فهو لغة من الأول بمعني الرجوع، فكأن المفسّر أرجع الآية إلي ما يحتمله من المعاني. و يري بعض العلماء أن التأويل مرادف للتفسير حتي قال صاحب القاموس: أوّل الكلام تأويلا، و تأوّله بمعني: دبّره و قدره و فسّره، و منه قوله تعالي ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ «2» أما في الاصطلاح فهو عند المتقدمين بمعني التفسير، فيقال تفسير القرآن، و يقال تأويل القرآن، بمعني واحد. قال (ابن جرير الطبري) في تفسيره: (القول في تأويل قوله تعالي كذا .. و اختلف أهل التأويل في هذه الآية ...) يريد بذلك أهل التفسير.
و قال (مجاهد): إن العلماء يعملون تأويله (يعني القرآن) و يريد تفسير معناه.
و ذهب فريق من العلماء إلي أن بين (التفسير و التأويل) فرقا جليا و قد اشتهر هذا عند المتأخرين.
التفسير: هو المعني الظاهر من الآية الكريمة.
و أما التأويل: فهو ترجيح بعض المعاني المحتملة من الآية الكريمة التي تحتمل عدة معان. و قد أفاض العلامة (السيوطي) في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) في هذا البحث و نقل نقولا كثيرة عن العلماء نكتفي بأجمعها و أقربها إلي الصواب و هو أن نقول (بأن التفسير هو كشف معاني القرآن الظاهرة، و التأويل ما استنبطه العارفون من المعاني الخفية و الاسرار الربانية اللطيفة التي تحملها الآية الكريمة). و هذا الذي اخترناه هو الذي ذهب اليه (الألوسي) رحمه اللّه حيث قال:
(قد تعورف عن المؤلفين من غير نكير أن التأويل معان قدسية، و معارف ربانية

---

(1) انظر: مناهل العرفان للزرقاني.
(2) سورة آل عمران، جزء من الآية: 7.
التبيان في علوم القرآن، ص: 67

تنهل من سحب الغيب علي قلوب العارفين، و التفسير غير ذلك ..)
و الخلاصة: أن التفسير هو المعاني الظاهرة من القرآن الكريم التي هي واضحة الدلالة علي المعني المراد للّه عزّ و جلّ. و التأويل؛ هو المعاني الخفية التي تستنبط من الآيات الكريمة و التي تحتاج إلي تأمل و تفكر و استنباط و التي تحتمل عدة معان فيرجّح المفسّر منها ما كان أقوي عن طريق النظر و الاستدلال، و ليس هذا الترجيح بقطعي بل هو ترجيح للأظهر

و الأقوي إذ الحكم بأنه المراد القطعي تحكم في كتاب اللّه، و اللّه تعالي يقول وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ .. «1» الآية. و اللّه أعلم.

أقسام التفسير

أقسام التفسير

يقسم التفسير حسب الاصطلاح العلمي الدقيق إلي ثلاثة أقسام:
أولا: (التفسير بالرواية)، و هذا الذي يسمّي التفسير بالنقل أو التفسير بالمأثور.
ثانيا: (التفسير بالدراية) و هذا الذي يسمّي التفسير بالرأي.
ثالثا: (التفسير بالإشارة) و هو الذي يسميه العلماء (التفسير الإشاري) و سنتحدث عن كل قسم من هذه الأقسام بالتفصيل إن شاء اللّه و نوضّح السليم من السقيم.

القسم الأوّل التفسير بالرّواية

القسم الأوّل التفسير بالرّواية

هو ما جاء في القرآن، أو السنة، أو كلام الصحابة، بيانا لمراد اللّه تعالي تفسير القرآن بالسنة النبوية، فالتفسير المأثور إما أن يكون تفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير القرآن بالسنة النبوية أو تفسير القرآن بالمأثور عن الصحابة.

أ- مثال ما جاء تفسيره في القرآن الكريم قوله تعالي: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلي عَلَيْكُمْ .. «2». فقد جاء تفسير قوله إِلَّا ما يُتْلي عَلَيْكُمْ

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 7.

(2) سورة المائدة، الآية: 1.

التبيان في علوم القرآن، ص: 68

في آية كريمة أخري هي قوله تعالي حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. «1» الآية. و كذلك قوله تعالي: وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ «2» جاء تفسير الطارق في نفس السورة النَّجْمُ الثَّاقِبُ «3» و كذلك قوله تعالي فَتَلَقَّي آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ «4». الآية. جاء تفسير الكلمات التي تلقاها آدم في موطن آخر من القرآن، و هي قوله تعالي قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ «5».

و من الأمثلة أيضا علي تفسير القرآن بالقرآن قوله تعالي إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ «6» جاء تفسير الليلة المباركة بأنها ليلة القدر في قوله جلّ ذكره إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ «7» إلي آخر ما هنالك.

ب- و مثال ما جاء في السنة المطهّرة تفسيرا و شرحا للقرآن أنه صلّي اللّه عليه و سلم فسّر الظلم بالشرك في قوله سبحانه الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ، أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ «8» و أيّد تفسيره هذا بقوله تعالي إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ «9».

و فسر صلّي اللّه عليه و سلم الحساب اليسير ب (العرض) أي عرض الأعمال علي المؤمن و تذكيره بها فقط و ذلك حين قال: «من نوقش الحساب عذّب» فقالت السيدة عائشة له: يا رسول اللّه أو ليس قد قال اللّه تعالي

---

(1) سورة المائدة، الآية: 3.

(2) سورة الطارق، الآية: 1.

(3) سورة الطارق، الآية: 3.

(4) سورة البقرة، الآية: 37.
(5) سورة الأعراف، الآية: 23.
(6) سورة الدخان، الآية: 3.
(7) سورة القدر، الآية: 1.
(8) سورة الأنعام، الآية: 82.
(9) سورة لقمان، الآية: 13.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً* وَ يَنْقَلِبُ إِلي أَهْلِهِ مَسْرُوراً «1» فقال صلّي اللّه عليه و سلم «ذلك العرض» (بيانا للحساب اليسير) و أما من نوقش الحساب عذّب. و كتفسيره صلّي اللّه عليه و سلم الصلاة الوسطي في قوله تعالي حافِظُوا عَلَي الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطي «2» بأنها صلاة العصر .. و تفسير المغضوب عليهم، و الضالين في سورة الفاتحة باليهود و النصاري، و من الأمثلة أيضا علي تفسير النبي صلّي اللّه عليه و سلم للآيات الكريمة تفسيره الزيادة في قوله تعالي لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْني وَ زِيادَةٌ .. «3» الآية. فقد فسّرها بأنها النظر إلي وجه اللّه الكريم، و كتفسيره صلّي اللّه عليه و سلم القوة (بالرمي) في قوله تعالي: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ «4» فقد قال صلّي اللّه عليه و سلم ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي.

و كتفسير قوله تعالي يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها «5» قال صلّي اللّه عليه و سلم: «أ تدرون ما أخبارها»؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم. قال: «أن تشهد علي كل عبد أو أمة بما عمل علي ظهرها»، تقول: عملت يوم كذا و كذا، و أمثال هذه التفاسير كثير، و قد جمع (السيوطي) في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) طائفة كبيرة من التفاسير النبوية فليرجع إليه.

و كلا هذين القسمين (تفسير القرآن بالقرآن) و تفسير (القرآن بالسنة) لا شك في أنه أعلي أنواع التفسير، و لا شك في قبوله، أما الأول فلأن اللّه تعالي أعلم بمراد نفسه من غيره، و كتاب اللّه تعالي أصدق الحديث لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه. و أما الثاني. فلأنّ الرسول صلّي اللّه عليه و سلم قد بيّن مهمّته القرآن، و ذكر أنها مهمة التوضيح و البيان وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ. «6» الآية.

فما جاء عن رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم من شرح أو بيان بسند صحيح ثابت فإنه مما لا شك في أنه حق يجب اعتماده.

---

(1) سورة الانشقاق، الآية: 7- 9.
(2) سورة البقرة، الآية: 238.
(3) سورة يونس، الآية: 26.
(4) سورة الأنفال، الآية: 60.

(5) سورة الزلزلة، الآية: 4.
(6) سورة النحل، الآية: 44.
التبيان في علوم القرآن، ص: 70
ج- تفسير الصحابة:
بقي القسم الثالث من أقسام التفسير المأثور ألا و هو (تفسير الصحابة) فإنه أيضا من التفسير المعتمد المقبول، لأن الصحابة رضوان اللّه عليهم قد اجتمعوا بالرسول صلّي اللّه عليه و سلم و نهلوا من معينه الصافي، و شاهدوا الوحي و التنزيل، و عرفوا أسباب النزول، و لهم من صفاء نفوسهم، و سلامه فطرتهم، و علوّ منزلتهم في الفصاحة و البيان، ما يؤهلهم من الفهم الصحيح السليم لكلام اللّه، و ما يجعلهم يدركون أسرار هذا القرآن أكثر من أيّ إنسان.
قال الحاكم: (إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي و التنزيل له حكم المرفوع) و معني هذا أن تفسير الصحابي له حكم الحديث النبوي الذي رفع إلي النبي صلّي اللّه عليه و سلم فهو إذا من المأثور.
و أما التابعي: فقد اختلف في تفسيره، فذهب بعض العلماء إلي أنه من المأثور لأنه تلقّاه من الصحابة غالبا، و منهم من قال إنه من التفسير بالرأي، أي له حكم بقيّة المفسّرين فسّروا حسب قواعد اللغة العربية دون التزام للمأثور.
ملاحظة: التفسير بالمأثور من أجود أنواع التفسير إذا صحّ سنده إلي الرسول صلّي اللّه عليه و سلم أو إلي الصحابة. و ينبغي التثبت من الرواية عند ذكر التفسير بالمأثور .. قال الحافظ (ابن كثير) رحمه اللّه: إن أكثر التفسير المأثور قد سري إلي الرواة من زنادقة اليهود و الفرس، و مسلمة أهل الكتاب، و جلّ ذلك في قصص الرسل مع أقوامهم، و ما يتعلق بكتبهم و معجزاتهم، و في تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف .. الخ. فينبغي إذا التثبت من الرواية.

أسباب ضعف الرواية بالمأثور:
ذكرنا فيما تقدم أن تفسير بعض القرآن ببعض، و تفسير القرآن بالسنة الصحيحة المرفوعة إلي النبي صلّي اللّه عليه و سلم لا شك في قبوله و لا خلاف في أنه من أعلي مراتب التفسير، و أما تفسير القرآن بالمأثور عن الصحابة و التابعين فإنه يتطرق إليه الضعف من وجوه:
أولا: اختلاط الصحيح بغير الصحيح، و نقل كثير من الأقوال المنسوبة إلي
التبيان في علوم القرآن، ص: 71
الصحابة أو التابعين من غير إسناد و لا تثبت، مما أدّي إلي التباس الحق بالباطل.
ثانيا: أن تلك الروايات مليئة (بالإسرائيليات) و منها كثير من الخرافات التي تصادم العقيدة الإسلامية، و التي قام الدليل علي بطلانها، و هي مما دخل علي المسلمين من أهل الكتاب.
ثالثا: أن بعض أصحاب المذاهب المتطرفة لفّقوا أقوالا، و صنعوا أباطيل نسبوها إلي بعض الصحابة مثل (الشيعة) شيعة علي المتطرّفين نسبوا إليه ما هو منه بريء، و مثل أولئك المتزلّفين للعباسيين نسبوا إلي (ابن عباس) ما لم يصحّ نسبته اليه، تملقا للحكام.
رابعا: أن بعض الزنادقة من أعداء الإسلام دسّوا علي الصحابة و التابعين كما دسّوا علي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم في الأحاديث النبوية، و ذلك بفرض هدم الدين عن طريق (الدسّ و الوضع) فمن هذه الناحية ينبغي الاحتياط و التثبيت و الحذر من الأقوال التي تنسب إلي الصحابة الكرام أو التابعين «1».

رأي الزرقاني في مناهل العرفان:

و قد ذكر الأستاذ (الزرقاني) في كتابه مناهل العرفان كلاما حسنا حول التفسير بالمأثور بعد أن ذكر نقولا عن الإمام أحمد رحمه اللّه، و عن ابن تيمية رحمه اللّه فقال:

(و كلمة الانصاف في هذا الموضوع أن التفسير بالمأثور نوعان:

أحدهما: ما توافرت الادلة علي صحته و قبوله، و هذا لا يليق بأحد ردّه، و لا يجوز إهماله و إغفاله، و لا يجمل أن نعتبره من الصوارف عن هدي القرآن، بل هو علي العكس عامل من أقوي العوامل علي الاهتداء بالقرآن.

ثانيهما: ما لم يصحّ لسبب من الأسباب الآنفة أو غيرها، و هذا يجب ردّه و لا يجوز قبوله و لا الاشتغال به، و لا يزال كثير من أيقاظ المفسرين كابن كثير يتحرّون الصحّة فيما ينقلون، و يزيّفون ما هو باطل أو ضعيف).

---

(1) أنظر كتاب (مناهل العرفان) للزرقاني ص 491.

أشهر المفسرين من الصحابة:

اشارة

أشهر المفسرين من الصحابة:
قال السيوطي في (الإتقان): (اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، و ابن مسعود، و ابن عباس، و أبي بن كعب، و زيد بن ثابت، و أبو موسي الأشعري، و عبد اللّه بن الزبير ... أما الخلفاء فأكثر من روي عنه فهم: (علي بن أبي طالب) كرّم اللّه وجهه، و الرواية عن الثلاثة قليلة جدا، و كأن السبب في ذلك تقدّم وفاتهم) انتهي.
و أما السبب في قلة الرواية عن الثلاثة (أبي بكر و عمر و عثمان) فإنما يرجع كما نبّه إليه السيوطي إلي قصر مدة خلافتهم و تقدم وفاتهم، و من ناحية أخري فإنهم قد عاشوا في وسط أغلب أهله كانوا علماء بكتاب اللّه، لأنهم صاحبوا الرسول صلّي اللّه عليه و سلم، فكانوا واقفين علي أسرار التنزيل عارفين بمعانيه و أحكامه، أما (علي) رضي اللّه عنه فقد عاش بعد الخلفاء الثلاثة في وقت اتسعت فيه رقعة الإسلام، و دخل كثير من العجم في الدين الجديد، و نشأ جيل من أبناء الصحابة كانوا بحاجة إلي دراسة القرآن، و تفهّم أسراره و حكمه، و لذلك اشتهرت الرواية عنه أكثر من بقية الخلفاء الراشدين ..
و سنتكلم بشيء من التفصيل عن بعض هؤلاء الصحابة الذين اشتهروا بتفسير القرآن.

1- عبد اللّه بن عباس:

اشارة

1- عبد اللّه بن عباس:
عبد اللّه بن العباس رضي اللّه عنهما حبر هذه الأمة، و هو ابن عم رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم الذي دعا له الرسول الكريم بقوله: «اللهم فقّهه في الدين و علّمه التأويل» و هو المسمّي ب (ترجمان القرآن). قال عبد اللّه بن مسعود: (نعم ترجمان القرآن عبد اللّه بن عباس). كان أعلم الصحابة بتفسير القرآن الكريم، و قد شهد له بالفضل- و هو شاب في عنفوان الصبا- كبار الصحابة حتي كان ينافسهم و ينتزع إعجابهم مع حداثة سنّه، و كان عمر رضي اللّه عنه يدخله إلي مجلس الشوري مع كبار الصحابة الأجلاء يستشيرهم، و ربما عرض الأمر عليه، و كان تقدير عمر لابن عباس مثار جدل عند بعض الصحابة، حتي قال بعضهم: لم يدخل هذا الشاب معنا و عندنا من الأولاد من هو أكبر منه سنا .. و له قصة رواها البخاري في صحيحه تدل علي غزارة علمه، و علو شأنه في الغوص علي دقائق أسرار القرآن.
التبيان في علوم القرآن، ص: 73

رواية البخاري:
روي البخاري من طريق (سعيد بن جبير) عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال:
كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنّ بعضهم وجد في نفسه، فقالوا: لم يدخل هذا معنا و إنّ لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن علمتم (يعني إنه من عرفتم ذكاءه و علمه)، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلّا ليريهم. ! فقال:
ما تقولون في قول اللّه تعالي إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ «1» .. فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد اللّه و نستغفره إذا نصرنا و فتح علينا، و سكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي:
أ كذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم أعلمه له، قال: إذا جاء نصر اللّه و الفتح، فذلك علامة أجلك، فسبّح بحمد ربّك و استغفره إنّه كان توّابا، فقال عمر: و اللّه لا أعلم منها إلا ما تقول «2». فهذه القصة تدلّ علي مدي قوة فهمه، و دقة رأيه في استنباط الإرشادات القرآنية التي لا يدركها إلا الرّاسخون في العلم .. و لا عجب أن ينال ابن عباس تلك الرتبة الرفيعة في فهم أسرار القرآن، فقد دعا له الرسول صلّي اللّه عليه و سلم بالفهم و الفقه في الدين كما روي الشيخان عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال: ضمّني رسول اللّه إلي صدره و قال: «اللهم فقهه في الدين و علّمه التأويل»، و في رواية «اللهم علّمه الحكمة» .. و كان (ابن عباس) يسمي البحر لكثرة علمه.
روي أن رجلا أتي (عبد اللّه بن عمر) يسأله عن السموات و الأرض (كانتا رتقا ففتقناهما) «3»، فقال: اذهب إلي ابن عباس فاسأله ثم تعال فأخبرني! فذهب فسأله فقال: كانت السموات رتقا لا تمطر، و كانت الأرض رتقا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، و هذه بالنبات، فرجع إلي ابن عمر فأخبره فقال: قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس علي تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتي علما.

---

(1) سورة النصر، الآية: 1.
(2) أنظر: صحيح البخاري، باب فضائل الصحابة.
(3) سورة الأنبياء جزء من الآية: 30.

و روي أنّ عمر بن الخطاب قال يوما لأصحاب النبي صلّي اللّه عليه و سلم فيمن ترون هذه الآية نزلت أ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ

.. «1» الآية. قالوا:
اللّه أعلم فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء فقال: يا ابن أخي قل و لا تحقر نفسك!! قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل، فقال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة اللّه ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتي أغرق أعماله. «رواه البخاري».

كل هذا و أمثاله كثير يدل علي مبلغ علم ابن عباس و فهمه الثاقب منذ حداثة سنّه، و لهذا أصبح في مصاف كبار شيوخ الصحابة، و أصبح يدعي حبر الأمة بشهادة الصحابة أنفسهم.

شيوخ ابن عباس:

و من شيوخ ابن عباس الذين استقي منهم علومه بعد رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم، و كان لهم أبرز الأثر في توجيهه و ثقافته (عمر بن الخطاب، و أبي بن كعب، و عليّ بن أبي طالب، و زيد بن ثابت) و هؤلاء الخمسة هم أهم شيوخه الذين أخذ عنهم أكثر علمه و تلقي منهم معظم ثقافته، و كان لهم أثر في توجيهه تلك الوجهة العلمية الدقيقة.

تلامذة ابن عباس:

تلقّي العلم عن ابن عباس عدد كبير من التابعين كان من أشهرهم تلامذته المشهورون الذين نقلوا تفسيره و علمه الغزير و هم: (سعيد بن جبير، و مجاهد بن جبر الخزرمي، و طاوس بن كيسان اليماني، و عكرمة مولي ابن عباس، و عطاء بن أبي رباح) و هؤلاء هم أظهر تلامذته الذين نقلوا مدرسة ابن عباس في التفسير إلينا رضي اللّه عنه جميعا.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 266.
التبيان في علوم القرآن، ص: 75

2- عبد اللّه بن مسعود:

الفصل السّادس المفسّرون من التابعين

اشارة

الفصل السّادس المفسّرون من التابعين

إذا ذكر المفسرون من التابعين فانهم يعتبرون كثرة كثيرة، و يعدون في العدد أكثر من الصحابة، ذلك لأنّ الذين اشتهروا بالتفسير من الصحابة لا يزيدون علي عشرة- كما ذكر ذلك السيوطي في كتابه الإتقان- و قد تقدّم معنا أسماؤهم، و ذكرنا نبذة عن ترجمة مشاهيرهم، أما التابعون فقد كثر فيهم المفسّرون، و اشتهروا شهرة واسعة، و نبغ فيهم رجال أفذاذ، اعتنوا عناية كبيرة بتفسير كتاب اللّه تعالي، و عنهم نقل المفسرون معظم الآراء، و قد انقسموا إلي طبقات ثلاث:

1- طبقة أهل مكة 2- طبقة أهل المدينة.

3- طبقة أهل العراق.

1- أما الطبقة الأولي:

اشارة

1- أما الطبقة الأولي:
و هي طبقة أهل مكة، فقد أخذوا علومهم، من شيخ المفسرين، و ترجمان القرآن، سيدنا عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه و أرضاه، و قد نقل السيوطي عن ابن تيمية رحمه اللّه أنه قال: (أعلم الناس بالتفسير أهل مكة، لأنهم أصحاب عبد اللّه بن عباس). و قد اشتهر فيهم عدد كبير، و ظهر فيهم رجال أفذاذ، علي رأسهم (مجاهد، و عطاء، و عكرمة، و طاوس و سعيد بن جبير) و سنعرض بترجمة موجزة لحياة هؤلاء العلماء الاعلام.
التبيان في علوم القرآن، ص: 78

(مجاهد بن جبر)

أما مجاهد: فقد ولد سنة 21 و توفي سنة 103 هجرية، و هو مجاهد بن جبر، و كنيته (أبو الحجّاج) المكي كان من أشهر العلماء في التفسير، قال عنه الذهبي: «شيخ القراء و المفسرين بلا مراء، أخذ التفسير عن ابن عباس» «1».

و كان من أخص تلامذته، و من أوثق من روي عنه، و لهذا يعتمد البخاري كثيرا علي تفسيره كما يعتمد كثير من المفسرين علي روايته، تنقل في الأسفار، و استقر في الكوفة، و كان لا يسمع بأعجوبة إلّا ذهب فنظر إليها.

تلقي مجاهد تفسير كتاب اللّه عن شيخه الجليل (ابن عباس) و قرأه عليه قراءة تفهم و تدبّر، و وقوف عند كل آية من آيات القرآن، يسأله عن معناها، و يستفسره عن أسرارها، روي الفضيل بن ميمون عن مجاهد أنه قال:

«عرضت القرآن علي ابن عباس ثلاث عرضت، أقف عند كل آية منه أسأله عنها:

فيما أنزلت؟ و كيف أنزلت»؟.

و هذا العرض من (مجاهد) رضي اللّه عنه علي شيخه الجليل إنما كان طلبا لتفسيره و معرفة أسراره و دقائقه، و تفهم حكمه و أحكامه، و لهذا قال الإمام النووي رحمه اللّه:

«إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به» أي يكفي هذا التفسير و يغني عن غيره من التفاسير إذا كان راويه الإمام مجاهد.

(عطاء بن أبي رباح)
و أما عطاء بن أبي رباح: فقد ولد سنة 27 هجرية و توفي سنة 114 هجرية نشأ بمكة و كان مفتي أهلها و محدثهم، و هو تابعي من أجلّاء الفقهاء، و كان ثبتا ثقة في الرواية عن ابن عباس «2».

---

(1) أنظر الأعلام، ج 6، ص 161.
(2) الأعلام للزركلي، ج 5، ص 29.
التبيان في علوم القرآن، ص: 79
قال عنه الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان: ما لقيت أحدا أفضل من عطاء بن أبي رباح.
و قال قتادة: أعلم التابعين أربعة: عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، و سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير .. الخ.
توفي رضي اللّه عنه بمكة و دفن فيها عن (87) سبع و ثمانين سنة.

(عكرمة مولي ابن عباس)

و أما عكرمة: فقد ولد سنة 25 هجرية و توفي سنة 105 هجرية قال عنه الإمام الشافعي رحمه اللّه: ما بقي أحد أعلم بكتاب اللّه من عكرمة. و هو مولي ابن عباس رضي اللّه عنه، تلقّي علمه علي ابن عباس، و أخذ عنه القرآن و السنّة، و كان رضي اللّه عنه يقول: لقد فسّرت ما بين اللوحين «1» و كل شيء أحدثكم في القرآن فهو عن ابن عباس.

جاء في تعريفه في كتاب الأعلام ما يلي:

«عكرمة بن عبد اللّه البربري المدني، أبو عبد اللّه، مولي عبد اللّه بن عباس، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير و المغازي، طاف البلدان، و روي عنه زهاء ثلاثمائة رجل، منهم أكثر من سبعين تابعيا، و خرج إلي بلاد المغرب، فأخذ عن أهلها ثمّ عاد إلي المدينة المنورة، فطلبه أميرها فتغيّب عنه حتي مات، و كانت وفاته بالمدينة هو و الشاعر المشهور (كثير عزّة) في يوم واحد فقيل: مات أعلم الناس، و أشعر الناس «2».

(طاوس بن كيسان اليماني)
و أما طاوس: فقد ولد سنة 33 هجرية و توفي سنة 106 هجرية: و هو (طاوس بن كيسان اليماني) اشتهر بتفسير كتاب اللّه تعالي، و كان آية في الحفظ

---

(1) يريد باللوحين: ما بين دفتي المصحف.
(2) الأعلام للزركلي ج 5، ص 43.
التبيان في علوم القرآن، ص: 80
و النبوغ و الذكاء، و آية في الورع و التقشف و الصلاح، أدرك من الصحابة نحو (50) خمسين صحابيا، و تلقي العلم عنه خلق كثير، و قد كان عابدا زاهدا، ورد أنه حجّ بيت اللّه الحرام أربعين مرة، و كان مستجاب الدعوة، قال فيه ابن عباس: إني لأظنّ طاوسا من أهل الجنة.
جاء في تعريفه في كتاب الأعلام ما يلي:
«طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني، أبو عبد الرحمن، من أكابر التابعين تفقها في الدين، و رواية للحديث، و تقشفا في العيش، و جرأة علي وعظ الخلفاء و الملوك، أصله من الفرس، و مولده و منشؤه باليمن توفي حاجا بالمزدلفة، و كان (هشام بن عبد الملك) حاجا تلك السنة فصلّي عليه و كان يأبي القرب من الملوك و الأمراء، قال ابن عيينة: «متجنبو السلطان ثلاثة: أبو ذرّ، و طاوس، و الثوري» «1».

(سعيد بن جبير)
و أما سعيد بن جبير: فقد ولد سنة 45 هجرية و توفي سنة 94 هجرية، و هو من أكابر التابعين علما و ورعا، و قد اشتهر بتفسير كتاب اللّه عزّ و جلّ و كان طودا شامخا، و علما لا معا، تناقل علمه الرجال، و سرت بذكره الركبان و قد قال (سفيان الثوري):
خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير، و مجاهد، و عكرمة، و الضحّاك، و قال (قتادة): كان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير «2».
كان آية في الحفظ، يحفظ ما يسمع، و قد شهد له ابن عباس بالحفظ حتي قال له:
«انظر كيف تحدّث عني فإنك قد حفظت عني حديثا كثيرا».
و كان ابن عباس بعد أن فقد بصره إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه قال: تسألوني و فيكم ابن أمّ دهماء، يعني (سعيد بن جبير) رضي اللّه عنه.

---

(1) الأعلام، ج 3، ص 322.
(2) أنظر: الأتقان: ص 189.
التبيان في علوم القرآن، ص: 81
و قد كان عابدا زاهدا، يختم القرآن في كلّ ليلتين، و قد قرأ ذات مرة القرآن كلّه في ركعة واحدة في الكعبة.
و جاء في ترجمته في الأعلام ما يلي: «سعيد بن جبير الاسدي الكوفي، أبو عبد اللّه تابعي، كان أعلمهم علي الإطلاق، و هو حبشي الأصل، أخذ العلم عن ابن عباس و ابن عمر، و لما خرج عبد الرحمن بن الأشعث علي عبد الملك بن مروان، كان سعيد بن جبير معه، فلما قتل عبد الرحمن ذهب سعيد إلي مكة، فقبض عليه و اليها (خالد القسري) و أرسله إلي الحجاج فقتله، و كان الحجاج يخاطبه (بشقيّ بن كسير) بدل سعيد بن جبير.
قال أحمد بن حنبل: «قتل الحجّاج سعيدا، و ما علي وجه الأرض أحد إلا و هو مفتقر إلي عمله».
و روي أن الحجّاج لما أراد قتله أمر الجلاد أن ينطلق به فيضرب عنقه، فقال له سعيد: دعني أصلي ركعتين، قال الحجّاج ما ذا يقول؟ قال: يريد الصلاة، فأبي إلا أن يصلي إلي المشرق- قبلة النصاري- ثمّ أمر أن تضرب عنقه و وجهه موجّه إلي غير القبلة، فأداروا وجهه فقال سعيد عندئذ: فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ «1» ثمّ ضربت عنقه و هو يردّد: لا إله إلّا اللّه محمد رسول اللّه، و ذهبت نفسه البريئة الطاهرة إلي ربها تشكو إليه ظلم الحجّاج، و جاد بأنفاسه في سبيل عقيدته و دينه، رحمه اللّه و أسكنه فسيح جناته» «2».

2- طبقة أهل المدينة:

اشارة

2- طبقة أهل المدينة:
و قد أشتهر منهم عدد، علي رأسهم (محمد بن كعب القرظي، و أبو العالية الرياحي، و زيد بن أسلم) رضي اللّه عنهم جميعا.
و نحن نتحدث عن هؤلاء الثلاثة الذين اشتهروا بالتفسير من أهل المدينة المنوّرة

---

(1) سورة البقرة، الآية: 115.
(2) انظر الطبقات الكبري لابن سعد ج 6 ص 257.
التبيان في علوم القرآن، ص: 82
و الذين كان لهم اثر عظيم في نقل علوم الصحابة، سواء كان ذلك في الفقه او الحديث أو التفسير، و إن كان هناك غيرهم ممن اشتهروا من التابعين و لكنّ شهرة هؤلاء كانت أوسع، و أثرهم كان أظهر.

(محمد بن كعب القرظي)
جاء في تهذيب التهذيب للعسقلاني في ترجمته ما يلي:
«هو محمد بن كعب القرظي، أبو حمزة المدني، من حلفاء الأوس، سكن الكوفة ثمّ المدينة، روي عن جمع غفير من الصحابة و خاصة عن علي بن أبي طالب، و عبد اللّه بن مسعود.
قال ابن سعد: كان ثقة عالما كثير الحديث، ورعا صالحا.
قال عون بن عبد اللّه: ما رأيت أحدا أعلم بتأويل القرآن منه.
و يذكر البخاري في سبب تسميته ب (القرظي) أنّ أباه كان ممن لم ينبت يوم قريظة فترك، و ذلك أن النبي صلّي اللّه عليه و سلم قتل الرجال من بني قريظة حينما خانوا العهود و غدروا بالرسول، فأمر بقتل مقاتلتهم و ترك الأطفال و الصبيان و النساء. و قد كان من أفاضل أهل المدينة علما و فقها، و كان يحدّث في المسجد فسقط عليه السقف و علي أصحابه، فمات تحت الهدم، و كان ذلك سنة 117 هجرية رضي اللّه عنه و أرضاه «1»

(أبو العالية الرياحي)
اسمه رفيع بن مهران، و كنيته أبو العالية، و هو مولي امرأة من بني رياح و هو تابعي ثقة من أهل البصرة، اشتهر بالفقه و التفسير، رأي أبا بكر و قرأ القرآن علي (أبي بن كعب) و غيره، وسع من عمر، و ابن مسعود، و علي و عائشة، و غيرهم.
روي عنه أنه قال: قرأت القرآن بعد وفاة نبيّكم بعشر سنين. و كان منذ حداثة

---

(1) أنظر: تهذيب التهذيب. ج 5، ص 421.

التبيان في علوم القرآن، ص: 83

سنّه راغبا في العلم، مكبّا علي طلبه، حتي نبغ فيه وفاق الأقران و خاصة في التفسير، و قد كان ابن عباس رضي اللّه عنهما يرفعه علي سريره و قريش أسفل منه، و يقول:
هكذا العلم يزيد الشريف شرفا، و يجلس المملوك علي الأسرّة، مات سنة 93 هجرية عن عمر يناهز الثمانين رضي اللّه عنه و أرضاه.

(زيد بن أسلم)
هو زيد بن أسلم العدوي العمري، يكني (أبا أسامة) و هو فقيه محدث من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، و استقدمه الوليد بن يزيد في جماعة من فقهاء المدينة إلي دمشق مستفتيا في أمر، و كان ثقة كثير الحديث له حلقة في المسجد النبوي، و له كتاب في التفسير رواه عنه ولده (عبد الرحمن) و قد كان رجلا مهيبا، قال ابن عجلان: «ما هبت أحدا قطّ هيبتي لزيد بن أسلم». و حدّث ذات يوم بحديث و لم يسنده، فسأله رجل يا أبا أسامة عمّن هذا؟ فقال: يا ابن أخي ما كنّا نجالس السّفهاء.
و كان له حلقة كبيرة في المسجد النبوي الشريف، و كان (علي بن الحسين) يجلس إليه فيستمع له و يترك مجالس قومه، فقيل له في ذلك: تترك مجالس قومك إلي عبد عمر بن الخطاب (حيث كان مولي لعمر) فقال عليّ: إنما يجلس الرجل إلي من ينفعه في دينه، توفي رضي اللّه عنه بالمدينة المنورة سنة 136 هجرية «1».

3- طبقة أهل العراق:

3- طبقة أهل العراق:

و قد أشتهر منهم عدد و علي رأسهم (الحسن البصري، و مسروق بن الأجدع، و قتادة ابن دعامة، و عطاء بن أبي مسلم الخراساني، و مرّة الهمذاني).

و نحن نتحدث عن ترجمة هؤلاء الأعلام بشيء من الإيجاز فنقول و من اللّه نستمد العون.

---

(1) أنظر: تذكرة الحفاظ للذهبي، ج 1 ص 62.

(الحسن البصري)
هو الحسن بن يسار البصري، إمام أهل البصرة، و حبر الأمة في زمانه، يكني (أبا سعيد) و هو أحد العلماء، و الفصحاء، و الشجعان، و النسّاك، ولد بالمدينة المنوّرة، و شبّ في كنف (علي بن أبي طالب) و استكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية فسكن البصرة، و عظمت هيبته في القلوب، فكان يدخل علي الولاة فيأمرهم و ينهاهم، لا يخاف في الحقّ لومة لائم، رأي مائة و عشرين صحابيا، و كان من أفصح أهل البصرة و أعبدهم و أفقهم.
قال الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء، و أقربهم هديا من الصحابة، و كان في غاية من الفصاحة، تتصبّب الحكمة من فيه «1».
قال أيوب: ما رأت عيناي رجلا قطّ كان أفقه من الحسن البصري، كان يعي الحكمة و ينطق بها، و كان إذا وعظ أبكي الحاضرين، كأنما كان في الآخرة ثم جاء منها فهو يخبر عمّا رأي و عاين، و لهذا فقد اشتهر بالوعظ، و كان رقيق القلب، فصيح اللسان. و كان يحدّث بالأحاديث النبوية فإذا حدّث عن (علي بن أبي طالب) لم يذكره خشية من بطش الحجّاج، قال يونس بن عبيد: سألت الحسن قلت: يا أبا سعيد، إنك تقول قال رسول اللّه و إنك لم تدركه؟ قال يا ابن أخي: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، و لو لا منزلتك مني ما أخبرتك، إني في زمان كما تري- و كان في عمل الحجاج- كلّ شيء سمعتني أقول قال رسول اللّه فهو عن علي بن أبي طالب، غير أني في زمان لا أستطيع أن أذكر عليا «2».
و لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه: إني قد ابتليت بهذا الأمر، فانظر لي أعوانا يعينوني عليه، فأجابه الحسن: أمّا أبناء الدنيا فلا تريدهم، و أمّا أبناء الآخرة فلا يريدونك فاستعن باللّه عن أمرك «3».

---

(1) فيه: أي فمه
(2) انظر: تهذيب التهذيب، ج 3، ص 396.
(3) انظر الاعلام للزركلي ج 2 ص 242.
التبيان في علوم القرآن، ص: 85
توفي بالبصرة سنة 110 هجرية و دفن فيها رحمه اللّه رحمة واسعة.

(مسروق بن الأجدع)

مسروق بن الأجدع الهمذاني، كوفي تابعي ثقة، من أصحاب ابن مسعود الذين نقلوا لنا هدي الرسول صلّي اللّه عليه و سلم.

و هو عابد فقيه يكني (أبا عائشة) و قد اشتهر بالتفسير، و رواية الحديث كان أبوه أفرس فارس باليمن، و كان خاله (عمر بن معد يكرب) و قد تولي القضاء، فلم يكن يأخذ علي القضاء رزقا، و كان قانعا زاهدا راضيا بما قسم اللّه، مع أنه كان صاحب عيال. جاءته امرأته يوما فقالت: يا أبا عائشة: إنّه ما أصبح اليوم لعيالك رزق، فتبسّم ثمّ قال: و اللّه ليأتينّهم اللّه برزق، فرزقه اللّه رزقا واسعا.

روي عنه أنه لقي (عمر بن الخطاب) فسأله ما اسمك؟ قال: مسروق بن الأجدع، فقال له عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن فكان بعد ذلك يقول: أنا مسروق بن عبد الرحمن.

قال علي بن المديني شيخ البخاري: ما أقدّم علي مسروق من أصحاب عبد اللّه بن مسعود أحدا، صلي خلف أبي بكر، و لقي عمر و عثمان.

شهد القادسية مع أخوته الثلاثة، فقتلوا يومئذ بالقادسية، و جرح مسروق فشلّت يده، و له طريقة لطيفة في النصح و الوعظ، خرج يوما و معه بعض تلامذته فارتقي بهم علي كناسة في الكوفة فقال: أ لا أريكم الدنيا؟ هذه هي الدنيا، أكلوها فأفنوها، لبسوها فأبلوها، ركبوها فأنضوها، سفكوا فيها دماءهم، و استحلوا فيها محارمهم، و قطعوا فيها أرحامهم «1».

سئل يوما عن بيت شعر فقال: أكره أن أري في صحيفتي شعرا.

---

(1) تهذيب التهذيب ج 6 ص 82.

(قتادة بن دعامة)
و أما قتادة: فهو أبو الخطاب السدوسي البصري، ولد في البصرة، سنة 61 و توفي سنة 117 هجرية و مات و عمره 55 سنة. روي عن أنس بن مالك و سعيد بن المسيب، و جمع من الصحابة، و كان قوي الحفظ، شديد الذكاء، يروي عنه أنه قال: «ما قلت لمحدّث قط أعد عليّ، و ما سمعت أذناي شيئا إلا وعاه قلبي».
و يروي أنه دخل علي (سعيد بن المسيّب) فجعل يسأله أياما، و أكثر عليه من السؤال، فقال له سعيد: أ كلّ ما سألتني عنه تحفظه؟ قال: نعم فتعجب منه، فقال له قتادة: سألتك عن كذا، فقلت فيه كذا، و سألتك عن كذا، فقلت فيه كذا، حتي أورد عليه جميع ما سمعه منه، فقال له سعيد: ما كنت أظنّ أنّ اللّه خلق مثلك، و قال عنه مرة: ما أتاني عراقي أحسن من قتادة، و قرئت عليه مرة صحيفة جابر فحفظها «1».
و قد كان ضريرا فاقد البصر، حيث ولد و هو أعمي: و لكنه كان آية في الحفظ و النبوغ و الذكاء، و كان أحمد بن حنبل يطنب في ذكره و الثناء عليه، و ينشر من علمه و فقهه، و كان إماما في التفسير و الفقه، و لكنه أخذ عليه أنه كان يأخذ عن كل أحد، حتي قال فيه الشعبي: قتادة حاطب ليل.
توفي رضي اللّه عنه بالبصرة و دفن بها، و عمره خمس و خمسون سنة، و لما مات بكي عليه أهل البصرة.

(عطاء الخراساني)
قال الحافظ الأصبهاني: كان مولده سنة 50 و وفاته سنة 135 هجرية. و هو عطاء ابن أبي مسلم الخراساني، يكني (أبا عثمان) و كان ثقة صدوقا، عابدا زاهدا، كثير العبادة و التبتل، كان يحيي الليل تهجدا و صلاة.
روي عبد الرحمن بن يزيد أنه كان يحيي الليل صلاة، فإذا ذهب من الليل ثلثه، أو

---

(1) تهذيب التهذيب ج 8 ص 351.
التبيان في علوم القرآن، ص: 87
نصفه نادانا يا فلان و يا فلان، قوموا فتوضئوا و صلوا، فإن قيام الليل و صيام النهار أيسر من شراب الصديد «1».
و كان يحب نشر العلم، فإذا لم يجد أحدا من تلامذته يحدّثه ذهب إلي المساكين فحدّثهم، خوفا من الوعيد لكاتم العلم.
و قد اشتهر بالفقه و الحديث و التفسير، و كان علي غاية من الزهد و الورع، رحمه اللّه تعالي.

(مرّة الهمذاني)

هو مرة بن شراحيل الهمذاني، أدرك عددا من الصحابة غير قليل، و يكني (أبا إسماعيل) و هو المعروف بمرة الطيب، و مرّة الخير، لقب بذلك لعبادته، كان عابدا ورعا، و زاهدا صالحا، قال العجلي: كان يصلي في اليوم و الليلة خمسمائة ركعة، و هو تابعي ثقة توفي سنة 76 هجرية رحمه اللّه تعالي رحمة واسعة و أسكنه فسيح جناته «2».

هؤلاء هم أعلام المفسرين من التابعين، استمدوا علومهم و قبسوا معارفهم من الصحابة الكرام رضوان اللّه عليهم أجمعين.

و عنهم أخذ تابعو التابعين، و من بعدهم من العلماء العاملين، و هكذا حفظ دين اللّه، و كتابه، و شريعته، و علومه و معارفه، سليمة كاملة، عن طريق التلقّي و التلقين، جيلا عن جيل، مصداقا لقول اللّه سبحانه و تعالي: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «3» و لقد صدق الرسول الكريم فيما نبّأ عنه و أخبر حيث قال «يحمل هذا العلم من كلّ خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، و انتحال المبطلين، و تأويل الجاهلين».

---

(1) أنظر تهذيب الكمال للمزي. ج 4 ص 469.

(2) أنظر تهذيب التهذيب، ج 10، ص 88.

(3) سورة الحجر، الآية: 9.

و هكذا حفظ اللّه كتابه بحفظ هؤلاء الرجال الأعلام. و الثقات الأفاضل. الذين كرّسوا جهودهم في خدمة العلم و الدين، فجزاهم اللّه عن الإسلام و المسلمين خير الجزاء، و أسكنهم فسيح جناته آمين.

تنبيه:
يلاحظ علي تفسير التابعين رضوان اللّه عليهم. أنه قد دخلت إلي أقوالهم بعض الروايات الإسرائيلية، و اختلط الصحيح بالعليل، و نقل علي لسانهم بعض الروايات التي لم تثبت، فينبغي التنبه عند نقل أقوالهم إلي الصحيح منها، و أن يرجع الإنسان إلي المراجع الموثوقة من كتب التفسير، كتفسير ابن جرير و غيره من التفاسير الموثوقة.
قال (السيوطي) في كتابه الاتقان بعد أن ذكر أشهر المفسرين من التابعين ما نصه:
«فهؤلاء قدماء المفسرين، و غالب أقوالهم تلقوها من الصحابة. ثمّ بعد هذه الطبقة ألّفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة و التابعين، كتفسير (سفيان بن عيينة) و (وكيع بن الجراح) و (شعبة بن الحجاج) و (يزيد بن هارون) و آخرين. ثم جاء بعدهم (ابن جرير الطبري) و كتابه أجلّ التفاسير و أعظمها «1».

---

(1) الإتقان للسيوطي، ج 2 ص 190
التبيان في علوم القرآن، ص: 89

الفصل السّابع إعجاز القرآن

العناية بدراسة القرآن العظيم:

لم يحدث في تاريخ البشرية أنّ أمة من الأمم اعتنت بكتابها السماويّ كما اعتنت هذه الأمة المحمدية، و لم نسمع عن كتاب مقدس نال من الحفظ و الرعاية. و الإجلال و الإكبار. كما ناله هذا الكتاب المجيد، معجزة محمد الخالدة، و حجته البالغة، و دعوته إلي الناس أجمعين. و لا عجب أن ينال القرآن العظيم هذه المنزلة الرفيعة، و يحتل من نفوس المسلمين تلك المكانة الجليلة، ذلك لأن الأحداث التي رافقت نزول هذا الكتاب المقدّس، تجعله يتبوأ مكان الصدارة بين جميع الكتب السماوية، و يفوق كل ما جاء به الأنبياء و المرسلون صلوات اللّه و سلامه عليهم أجمعين من هداية و إصلاح.
و تربية و تعليم، و سموّ و تشريع، و لقد أحسن و أبدع من قال:

(اللّه أكبر إن دين محمد و كتابه أهدي و أقوم قيلا)

(لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئ القنديلا)

القرآن معجزة محمد الخالدة:

و قد جرت حكمة اللّه الأزليّة، أن يؤيد أنبياءه و رسله بالمعجزات الباهرات و الدلائل الواضحات. و الحجج و البراهين الدامغة، التي تدل علي صدقهم، و علي أنهم

أنبياء مرسلون من عند اللّه العزيز القدير، و قد خصّ اللّه تبارك و تعالي نبينا صلّي اللّه عليه و سلم بالمعجزة العظمي (القرآن الكريم) ذلك النور الرباني، و الوحي السماوي، الذي ألقاه علي قلب نبيه قرآنا عربيا غير ذي عوج، يتلوه آناء الليل و أطراف النهار، و الذي أحيا به أجيالا من العدم، كانت في عداد الموتي فأحياها اللّه بنور هذا القرآن، و هداها أقوم طريق و انتشلها من الحضيض فجعلها خير أمة أخرجت للناس، و صدق اللّه حيث يقول: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها؟ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ «1» لقد أحيا القرآن أمما، و أوجد مجتمعا، و ألّف جبلا لم يعرف له التاريخ مثيلا، فأخرج من العرب الذين كانوا رعاة الإبل و الغنم، سادة الشعوب و الأمم، فملّكهم الدنيا حتي حكموا أقاصي المعمورة و كل ذلك بفضل هذا القرآن، معجزة خاتم الأنبياء و المرسلين. و في ذلك يقول أمير الشعراء:

(أخوك عيسي دعا ميتا فقام له و أنت أحييت أجيالا من العدم

و لئن كانت معجزة الأنبياء السابقين معجزات «حسيّة» تتناسب مع العصر و الزمان الذي بعثوا فيه، كمعجزة (موسي) عليه السلام حيث كانت (اليد و العصا) لأنه بعث في زمن كثر فيه السحرة و اشتهر فيه السحر، و كذلك معجزة (عيسي) عليه السلام حيث كانت بإحياء الموتي، و إبراء الأكمه «2» و الأبرص، و الإخبار عن بعض المغيبات، لأنه بعث في عصر كثر فيه الطب و الحكمة، و ظهر فيه الأطباء البارعون، فأتاهم عيسي بن مريم بما أدهشهم و أعجزهم من شفاء المرضي، و إحياء الموتي، و إبراء العمي البكم الصم.

أقول: إذا كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات (مادية حسيّة) فإن معجزة محمد بن عبد اللّه معجزة (روحية عقلية) و قد خصّه اللّه بالقرآن معجزة العقل الباقي

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 122.

(2) الأكمه: الأعمي. قال تعالي: وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتي بِإِذْنِ اللَّهِ.

علي الزمان، ليراها ذوو القلوب و البصائر، فيستنيروا بضيائها و ينتفعوا بهديها في المستقبل و الحاضر، فقد ورد عن سيد المرسلين أنه قال:.
«ما من نبي من الأنبياء إلّا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، و إنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه اللّه إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا» رواه البخاري ..
أجل .. هذا الوحي السماوي الذي ألقاه اللّه علي قلب نبيّه الأمين ليكون ضياء و رحمة للعالمين، هو معجزة الإسلام الخالدة، و حجته الباقية، تقوم علي فم الدنيا شاهدة بصدق الرسول، ناطقة بعظمة الإسلام و خلود هذا الدين، بينما ذهبت المعجزات الحسيّة، و مضت مع أحداثها الكونيّة، و تلاشت من الوجود بعد وفاة الأنبياء الكرام الذين أتوا بها، فلم يعد لها وجود و بيان إلّا في هذا القرآن الذي أخبر عنها، فكان له الفضل الأعظم عليها سابقا و لا حقا، و للّه در القائل حيث يقول:
(جاء النبيّون بالآيات فانصرمت و جئتنا بكتاب غير منصرم)
(آياته كلّما طال المدي جدد يزينهن جمال العنق و القدم)
الآيات: المراد بها المعجزات جمع آية بمعني المعجزة. انصرمت: أي ذهبت بذهابهم ..
قال العلامة الزرقاني: (و هنا نلفت النظر إلي أن القرآن بما اشتمل عليه من المعجزات الكثيرة، قد كتب له الخلود فلم يذهب بذهاب الأيام، و لم يمت بموت الرسول عليه الصلاة و السلام، بل هو قائم علي فم الدنيا يحاج كل مكذب، و يتحدي كل منكر، و يدعو أمم العالم جمعاء إلي ما فيه من هداية الإسلام و سعادة بني الإنسان.
و من هذا يظهر الفرق جليا بين معجزات نبيّ الإسلام صلّي اللّه عليه و سلم و معجزات إخوانه الأنبياء عليهم أزكي الصلاة و أتم التسليم، فمعجزات محمد في القرآن وحده آلاف مؤلفة، و هي متمتعة بالبقاء إلي اليوم و إلي ما بعد اليوم حتي يرث اللّه الأرض و من عليها، أمّا معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم، و ماتت بموتهم، و من يطلبها الآن لا يجدها إلا في خبر كان، و لا يسلم شاهد له بها إلا هذا
التبيان في علوم القرآن، ص: 92
القرآن؟ و تلك نعمة يمنها القرآن علي سائر الكتب و الرسل، و ما صح من الأديان كافة، قال تعالي: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ .. «1» الآية. و قال عز اسمه: آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ .. «2»
الآية ..
لهذا لم تكن معجزة سيد الأنبياء معجزة حسية. تقرع الحسّ و تستولي علي النفوس، فلم تكن عصا تنقلب حيّة كعصا موسي، أو نارا تصير بردا و سلاما

كالنار التي ألقي فيها الخليل، أو ناقة تخرج من صخر أصم و لها رغاء كناقة صالح، أو مريضا يشفي، أو أعمي يبرأ كما فعل عيسي عليه السلام، و إنما كانت معجزة «عقلية خالدة» لأنها خاتمة الرسالات، فهي خالدة خلود الدهر، باقية بقاء الإنسان ..

يقول الشيخ (محمد البنا) ما نصه: و إذا كان قد جرت خوارق للعادات علي يد النبيّ صلّي اللّه عليه و سلم غير القرآن كما ورد في صحاح السنة فإن النبي صلّي اللّه عليه و سلم لم يتحدّ بها، بل كان التحدي بالقرآن وحده، و لهذا كان القرآن معجزة الرسول التي تؤيد رسالته، و تشرق في قلوب الذين اتبعوه من المؤمنين ..

و رسالة النبي صلّي اللّه عليه و سلم شاملة خالدة لأنها خاتمة الرسالات فكانت الحكمة أن تتفق معجزته من نوع رسالته، إذ كل نبي سبق كان يأتي برسالة لقوم بأعيانهم و تنتهي بما يأتي بعدها من الرسالات، و لم يكن من الممكن أن تكون معجزة خاتم الأنبياء أمرا حسيا يراه جماعة حين يقع، فإذا لحق الرسول بالرفيق الأعلي انقضي ذلك الأمر المحسوس و لا يراه أحد من بعده، لأن الأمور المحسوسة لا تتفق مع نوع هذه الرسالة و لا مع خلودها، لقد كان، القرآن معجزة للناس جميعا، و لذلك جاء من نوع آخر غير نوع المعجزات السابقة، و قد جاء للدنيا بعد أن اكتملت المدارك البشرية، و ارتقي الفكر الانساني، لأن رسالة سيدنا محمد صلّي اللّه عليه و سلم، وافت البشرية بعد أن أدركت رشدها

---

(1) سورة المائدة، الآية: 48.

(2) سورة البقرة، الآية: 285. أنظر مناهل العرفان، ج 2، ص 232.

التبيان في علوم القرآن، ص: 93

و تكامل النمو العقلي في مجموعها، فكانت معجزته تدرك (بالعقل) و لا تحتاج إلي أيّ نوع من الحسّ، فهي معان خالدة، يدرك سموها الإنساني في كل الأجيال، و هي معجزة يخاطب بها الناس جميعا «1».

معني إعجاز القرآن:
الإعجاز في اللغة العربية هو: نسبة العجز إلي الغير قال تعالي: أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي .. «2» و تسمّي المعجزة (معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، لأنه أمر خارق للعادة، خارج عن حدود الأسباب المعروفة و إعجاز القرآن معناه: إثبات عجر البشر- متفرقين و مجتمعين- عن الإتيان بمثله. و ليس المقصود من (إعجاز القرآن) هو تعجيز البشر لذات التعجيز أي تعريفهم بعجزهم عن الاتيان بمثل القرآن، فإنّ ذلك معلوم لدي كل عاقل، و إنما الغرض إظهار أن هذا الكتاب حق، و أن الرسول الذي جاء به رسول صادق، و هكذا سائر معجزات الأنبياء الكرام التي يعجز البشر عنها ليس الغرض منها إلا إظهار صدقهم، و إثبات أن ما جاءوا به إنما هو بوحي من الحكيم العليم، و تنزيل من الإله القادر، و أنهم إنما يبلّغون رسالات اللّه، و ليس لهم إلا الاخبار و التبليغ، فالمعجزات إذا براهين من اللّه سبحانه إلي عباده، بصدق رسله و أنبيائه، فكأنّ اللّه تعالي- بواسطة هذه المعجزة- يقول: صدق عبدي فيما بلّغ عنّي و أنا أرسلته ليبلغكم ذلك، و الدليل علي صدقه أن أجري علي يديه خوارق العادات مما لا يستطيع أحد منكم أن يأتي بمثله، و مما ليس بمقدور أحد من الناس أن يجاريه في مثل هذا الأمر العجيب ذلك هو معني الإعجاز، و ذلك هو مفهوم المعجزة.

متي يتحقق الإعجاز:

متي يتحقق الإعجاز:
و الإعجاز لا يتحقق إلا إذا توافرت أمور ثلاثة نحملها فيما يلي:
أ- الأول: التحدي، أي (طلب المباراة و المعارضة)

---

(1) أنظر الكتاب و السنّة، ص 22.
(2) سورة المائدة، الآية: 31.
التبيان في علوم القرآن، ص: 94

ب- الثاني: أن يكون الدافع إلي ردّ التحدّي قائما ج- الثالث: أن يكون المانع منتفيا و لنوضح هذه الأمور الثلاثة ببعض الأمثلة فنقول:

1- هذا القرآن العظيم (معجزة محمد الكبري) الذي تحدّي اللّه به العرب خاصة، و الناس أجمعين، يأتي به نبي أميّ، لا يعرف القراءة و الكتابة، و لم يدرس في مدرسة، أو يتلق علومه في جامعة من الجامعات الكبيرة، و لم يثبت عنه أنه كان تلقّي شيئا من العلوم و المعارف عن بعض النابغين من العلماء، أو المبرزين في صنوف الثقافة و العرفان، و لم يتصل بأحد من علماء أهل الكتاب (اليهود و النصاري) حتي يطلع علي أنباء الأمم السابقين، و أخبار الأنبياء المتقدمين، جاءهم بهذا الكتاب المجيد، متحديا لهم- و هم أئمة الفصاحة و فرسان البلاغة- و طلب منهم معارضة القرآن، بعبارات قوية. و لهجات واخزة تستفز العزيمة و تدفع إلي المباراة، و تنزّل معهم من التحدّي بجميع القرآن، إلي التحدّي بعشر سور مثله، ثمّ إلي التحدي بسورة واحدة من مثله، و هم في كلّ هذا واجمون، لا ينبسون ببنت شفة، و هم رغم هذا التحدّي ينتقلون من عجز إلي عجز، و من هزيمة إلي هزيمة، أ فليس في هذا أكبر شاهد و برهان علي إعجاز القرآن؟!.

اسلوب القرآن في التحدي:
جاء التحدّي في القرآن الكريم بصور متعددة، و أساليب متنوعة، تهز كيان العرب هزا، و تجرّهم إلي الميدان جرا، في أسلوب ممتع أخاذ، يملك عليهم شعورهم، و يستحوذ علي أفئدتهم، بسحره و جماله و رونقه لقد تحدّاهم علي أن يأتوا بمثل القرآن، فعجزوا و ولّوا الأدبار، مع أنهم فرسان الفصاحة، و ملوك البيان.
فتتنزل معهم إلي (عشر سور) من مثله مفتريات، فانقطعوا و اندحروا و عجزوا عن الإتيان بتلك السور العشر.
التبيان في علوم القرآن، ص: 95
فتنزل معهم إلي ما هو أسهل و أيسر، إلي الإتيان بمثل (سورة واحدة) فقط من سور القرآن، فلم يتقدّم واحد منهم إلي حلبة الميدان .. و بذلك سجّل عليهم القرآن العجز و الهزيمة، و ثبتت معجزة محمد، النبي الأميّ، علي أنّ هذا القرآن تنزيل من رب العالمين: وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلي قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ* بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ «1» و صدق اللّه حيث يقول:
قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ* لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا* وَ هُدىً وَ بُشْري لِلْمُسْلِمِينَ «2»

أنواع التحدي:
و التحدي الذي جاء في القرآن الكريم كان علي نوعين:
1- التحدي العام.
2- التحدّي الخاص.
أما الأول: فقد ورد لجميع الخلائق بما فيهم الفلاسفة، و العباقرة، و العلماء، و الحكماء، و جاء لجميع البشر بدون استثناء، عربهم و عجمهم، أبيضهم و أسودهم، مؤمنهم و كافرهم، استمع إلي هذا التحدي الصارخ في سورة الإسراء:
قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلي أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ، لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «3».
و أما الثاني: (التحدي الخاص) فقد جاء للعرب خاصة، و علي الأخص منهم لكفار قريش، و قد ورد هذا التحدي علي نوعين أيضا:

---

(1) سورة الشعراء، الآيات: 192- 195.
(2) سورة النحل، الآية: 102.
(3) ظهيرا: أي معينا و ناصرا. سورة الإسراء، الآية: 88.
التبيان في علوم القرآن، ص: 96
1- تحدي كلّي: و هو التحدي بجميع القرآن، في أحكامه، و روعته و بلاغته، و بيانه.
2- تحدّي جزئي: و هو التحدي بمثل سورة من سور القرآن الكريم، و لو من أقصر سورة كسورة الكوثر.
فالأول مثل قوله تعالي: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ «1» و المراد بالحديث في هذه الآيات الكريمة (قرآن مثله) أي يأتوا بقرآن يشبه هذا الذي جاءهم به محمد رسول اللّه، و الذي زعموا أنه افتراه و تقوّله علي اللّه، كما ورد التحدّي بالقرآن كله في سورة القصص في قوله تعالي:
قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدي مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ «2».
فقد طلب منهم أن يأتوا بكتاب كامل غير هذا الكتاب الكريم، فإذا لم يستجيبوا لدعوته فإنما هم أناس متعنتون، يعبدون الهوي، و يسيرون علي غير هدي اللّه.
أما التحدي الجزئي: فقد ورد في سورة (هود) في قوله تعالي:
أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ؟ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ، وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ* فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ، وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»؟ «3».

كما ورد التحدّي بأقل من ذلك تحداهم (بسورة) واحدة من أقصر سور القرآن، و جاء هذا التحدّي مقرونا بالتعجيز الفاضح، في الحاضر، و المستقبل، مسجّلا عليهم ذلك العجز، بما يثير حميتهم و يغريهم بتكلف المعارضة، لا سيما بعد قولتهم القبيحة

---

(1) سورة الطور، الآية: 34.
(2) سورة القصص، الآية: 49.
(3) سورة هود، الآيتان: 13- 14.

و دعواهم الكاذبة حين قالوا: لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا، إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ. «1»
جاءهم التحدي في سورة البقرة في قوله تعالي:
وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلي عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا- وَ لَنْ تَفْعَلُوا- فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ «2».
قال العلامة (القرطبي) في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): قوله فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا يعني فيما مضي، وَ لَنْ تَفْعَلُوا أي تطيقوا ذلك فيما يأتي، و فيه إثارة لهممهم، و تحريك لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، و هذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها «3».
أما الأمر الثاني و هو: (قيام المقتضي للمباراة و المعارضة) عند العرب فقد كان حاصلا و قائما، فإن النبي عليه الصلاة و السلام جاءهم بدين جديد، أبطل فيه دينهم، و سفّه احلامهم، و سخر من آلهتهم و أصنامهم، و جعلهم اضحوكة بين الناس، ثم دعاهم الي اتباعه و إلي اعتقاد أنه رسول من عند اللّه، و قال لهم: إن الحجة علي صدقي هذا الكتاب الذي أوحاه اللّه إلي، فإذا لم تصدقوني في ذلك فأنا أتحداكم ان تأتوا بمثله، او بمثل سورة منه، و إذا عجزتم فذلك آية صدقي، و برهان رسالتي إليكم .. فما كان احوجهم إلي ان يأتوا بمثله خاصة بعد هذا التحدي السافر، و التهكم الشديد اللاذع، بعقولهم و آلهتهم و أصنامهم، أقول ما كان أحوجهم الي دحض ما ادعاه، و إبطال أنه من عند اللّه، و ذلك بسلوك ايسر الطرق، و ولوج اقرب الابواب لرد دعواه و ذلك عن طريق ما برعوا فيه، و اشتهروا بجودته و اتقانه الا و هو (البيان) في النطق

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 31.
(2) سورة البقرة، الآيتان: 23، 24.
(3) تفسير القرطبي، ج 1، ص 32.

و (الفصاحة) في اللسان، و كان ذلك انفع لهم من الحرب التي ذاقوا ويلاتها، و خاضوا غمارها، حتي شربوا كئوس الأسي و تجرعوا الموت الذؤام، و لكنهم اختاروا طعن الرماح، و وقع النبال، و لم يدخلوا في المباراة.
يقول القاضي (الباقلاني) رحمه اللّه: (كيف يجوز أن يقدروا علي معارضة القرآن، السهلة عليهم، و ذلك يدحض حجّته، و يفسد دلالته، و يبطل أمره، فيعدلون عن ذلك إلي سائر ما صاروا إليه من الأمور التي ليس عليها مزيد في المنابذة و المعاداة، و يتركون الأمر الخفيف؟ هذا ما يمتنع وقوعه في العادات و لا يجوز اتفاقه من العقلاء).
و أما الأمر الثالث: و هو (انتفاء ما يمنعهم من معارضة القرآن)، فلأنّه نزل بلسان عربي، هو لسانهم، و ألفاظه من أحرف العرب، و عباراته علي أسلوب العرب، و هم أهل البيان و اللّسن، و أمراء الفصاحة و البلاغة، و قد دلت أشعارهم، و نطقت خطبهم و حكمهم علي براعتهم في ذلك، و علي انهم حازوا قصب السبق في مضار الفصاحة و البيان، كما أثبتت الأيام أنهم من ذوي القدرة و الاستطاعة علي ان يبرّزوا في الشعر و النثر، و ان يحلّقوا في سماء الفصحي ألا و هي لغتهم الأساسية (لغة القرآن) التي بها يتفاخرون و يتبارون، و يعقدون المنتديات، و يجتمعون في المحافل، ليستمعوا أروع القصائد و الخطب، و يصوغوا اجمل الالفاظ و العبارات، و لم يكونوا في عجز من قدرتهم، او نقص في عقولهم، بل كانت قدرتهم موفورة، و استطاعتهم مشهورة، و هم أولوا النّهي و الألباب، و مع ذلك فالقرآن دعاهم أن يستعينوا بمن شاءوا، و يكمّلوا ما ينقصهم بأهل الأديان، و يستحضروا عدّتهم بالاتصال بالسحرة و الكهّان، و بمن شاءوا من طوائف الإنس و الجان، فليس أمامهم ثمة مانع، و النبي صلّي اللّه عليه و سلم لم يضرب لهم أجلا للمعارضة، و لم يحدّد زمنا للمناقضة، حتي يقول قائل منهم: إن الزمن لا يكفي و ليس فيه سعة، كما أن القرآن لم ينزل جملة واحدة حتي يحتجوا بذلك، بل نزل مفرقا في ثلاث و عشرين سنة، بين كل مجموعة و اخري زمن متسع للمعارضة و للإتيان بمثله لو كان في مقدورهم ذلك، فلما عجزوا دلّ علي أنه تنزيل رب العباد، و كفي بذلك دليلا و برهانا.
التبيان في علوم القرآن، ص: 99

مثل علي إعجاز القرآن:
و قد ذكر المرحوم (الشيخ الزرقاني) كلاما نفيسا في كتابه (مناهل العرفان) ننقله بنصّه. قال رحمه اللّه في بحث تعريف (المعجزة) ما يلي:
(المعجزة: هي أمر خارج للعادة، خارق عن حدود الأسباب المعروفة، يخلقه اللّه تعالي علي يد مدّعي النبوّة، عند دعواه إيّاها: شاهدا علي صدقه ... فإذا قام إنسان ما، و ادّعي أنه مبعوث من اللّه تعالي إلي خلقه، و رسوله إلي عباده، و قال: إن آية صدقي فيما أدّعيه، أن يغيّر اللّه الذي ارسلني عادة من عاداته علي يدي، و أن يخرج الآن عن سنة من سننه العامة في وجوده ثم قال: و سيأتيكم اللّه بهذا الأمر العجاب، من باب ترون انكم فيه نابغون و عليه قادرون، و إنّي أتحدّاكم زرافات و وحدانا أن تأتوا بمثل هذه الآية، و أمامكم الباب مفتوحا كما تعتقدون، و فيكم النبوغ موفورا كما تدّعون، ثم أنتم مجتمعون و أنا وحدي، قال ذلك بلغة الواثق، و تحدّانا هذا التحدّي الظاهر، في وقت يثور فيه علي عقائدنا و عاداتنا و أخلاقنا، و يسفّه فيه أحلامنا و أحلام أمثالنا من آبائنا، و نحن أحرص ما نكون علي تعجيزه و تبهيته و الغلبة عليه و الظفر به، دفاعا عن كرامتنا و انتصارا لأعزّ شيء لدينا، ثم لم يلبث أن قام و قمنا، و أجمع امره و أجمعنا، و إذا نحن جميعا بعد محاولات و مصاولات لم نستطع أن نأتي بمثل ما أتي به، فضلا عن أعظم منه، مع أننا أمة و هو فرد، و مع انه قد دخل الينا من أيسر الطرق في نظرنا، و من أشهر فنّ في زماننا، و مع أنه قد أعطانا الفرصة الكافية لمناظرته، و أنصفنا كل إنصاف من نفسه!! هل يشكّ كل ذي مسكة من عقل، في أن هذا الإنسان المتفوق الممتاز صادق في رسالته و محق في دعوته، خصوصا اذا عرفنا فوق ذلك كله أنه نشأ فينا علي الصدق و الأمانة و مكارم الاخلاق، من لدن صباه و طفولته إلي يوم مبعثه و رسالته!.
لو أنه جاء بالمعجزة من باب لا نعرفه، لقلنا: رجل حذق فنا من الفنون التي لا علم لنا بها، او تعلّم صناعة من الصناعات التي لم نحط بخبرها، أما و قد جاءنا من الناحية التي نشهد لأنفسنا فيها بالتفوق و السبق، فلا يسعنا إلّا الإذعان له، و الإيمان بما جاء به ما

دمنا منصفين. و لنضرب لك مثلا: جاء موسي عليه السلام بمعجزته عصا من الخشب، لا روح فيها و لا حركة، و لا لين و لا رطوبة، ثم ألقاها باسم الذي أرسله، فإذا هي حيّة تسعي، بينما الأمة التي تحدّاها بذلك كانت قد تفوّقت في السحر و حذقته، و ضربت فيه بأوفر سهم و أوفي نصيب، خصوصا انهم امة و هو فرد، و هم نابغون في السحر و هو مع نشأته فيهم لم يعرف يوما

من الأيام بمعالجة السّحر، فهل يبقي للشك ظل بعد أن ألقي موسي عصاه فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ «1»؟ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ «2»؛ وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ* قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ رَبِّ مُوسي وَ هارُونَ «3»؟؟ الحق أبلج، و لذلك كان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم لأنهم أعرف بالسّحر و مقدماته و نتائجه، و قد رأوا رأي العين أن ذلك الإعجاز ليس من نوع السحر الذي عرفوه.

قل مثل ذلك في معجزة كل رسول أرسله اللّه، قله في عيسي بن مريم عليه السلام، و إبرائه الأكمه و الأبرص، و إحيائه الموتي، و خلقه من الطين كهيئة الطير بإذن اللّه، أمام قوم نبغوا في الطبّ أيما نبوغ، و مهروا فيه أيما مهارة!..

و قل مثل ذلك و أكثر من ذلك في خاتم الأنبياء سيدنا محمد صلّي اللّه عليه و سلم و ما جاء به من آيات بينات و معجزات واضحات، و حسبك القرآن وحده برهانا ساطعا، بل براهين ساطعات، كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة تقوم في فم الدنيا إلي يوم الساعة، تتحدّي العالم بما يكون فيها من أسرار الفصاحة و البيان، و العلوم و المعارف، و أنباء الغيب و شواهد الحق «4».

شروط المعجزة الإلهية:
و للمعجزة شرائط خمسة نبّه عليها العلماء، فإن اختلّ منها شرط لا تكون معجزة:

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 117.
(2) سورة الأعراف، الآية: 118.
(3) سورة الأعراف، الآيات: 120- 122.
(4) مناهل العرفان ج 1 ص 68.

التبيان في علوم القرآن، ص: 101

1- الشرط الأول: أن تكون مما لا يقدر عليه إلا اللّه رب العالمين.
2- الشرط الثاني: أن تخرق العادة و تكون مخالفة للسنن الكونيّة.
3- الشرط الثالث: أن يستشهد بها مدّعي الرسالة علي صدق دعواه.
4- الشرط الرابع: أن تقع علي وفق دعوي النبيّ المتحدي بتلك المعجزة.
5- الشرط الخامس: ألا يأتي أحد بمثل تلك المعجزة علي وجه المعارضة.

فهذه الشروط الخمسة إن تحققت كان ذلك الأمر الخارق للعادة معجزة دالة علي نبوّة صاحب الدعوي، التي ظهرت المعجزة علي يده، و إن لم تتحقق خرجت عن كونها معجزة، و لم تدلّ علي صدق صاحب الدعوي.

أما الشرط الأول: فإنه لو أتي آت- في زمن يصحّ فيه مجيء الرسل- و ادعي الرسالة و جعل معجزته أن يقوم و يقعد، و يأكل و يشرب، و يتحرك من مكان إلي مكان لم يكن هذا الذي ادّعاه معجزة، و لا دالا علي صدقه لقدرة الخلق علي مثله، و إنما يجب أن تكون المعجزات مما لا يقدر عليها البشر كفلق البحر، و انشقاق القمر، و إحياء الموتي .. الخ.

و أما الثاني: و هو خرق العادة فلو قال المدعي للنبوة معجزتي أن تطلع الشمس من المشرق و تغرب من المغرب، و أن يأتي النهار بعد الليل، لم يكن فيما ادعاه معجزة، لأنّ هذه الأمور و إن كان لا يقدر عليها إلّا اللّه، لكنّها لم تفعل من أجله، و قد كانت من قبله، فليس فيها دلالة علي صدقه و أما الثالث: و هو أن يستشهد بها مدّعي للنبوة و تحصل عند طلبها تصديقا لدعواه، فلو ادّعي إنسان أنّ معجزته أن ينقلب الجماد إلي حيوان أو إنسان، و لم ينقلب لا يدل علي صدق دعواه و أما الرابع: و هو أن تقع المعجزة علي وفق الدعوي لا علي خلافه لأنها حينذاك تكون تكذيبا له. روي أن (مسيلمة الكذّاب) لعنه اللّه طلب منه أصحابه أن يتفل في بئر ليكثر فيها الماء فغارت البئر فدل علي كذبه «1»

---

(1) أنظر تفسير القرطبي، ج 1 ص 70.

التبيان في علوم القرآن، ص: 102

خامسا: ألّا تعارض المعجزة فإن عورضت بطل كونها معجزة، و لم تدل علي صدق صاحبها، فلو استطاع أحد فلق البحر أو شق القمر لم تعد معجزة و لهذا قال تعالي في خطاب المشركين فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ «1»

بم كان إعجاز القرآن؟

القرآن العظيم كلام اللّه المعجز للخلق، في اسلوبه و نظمه، و في روعته و بيانه، و في علومه و حكمه، و في تأثير هدايته، و في كشفه الحجب عن الغيوب الماضية و المستقبلة، و لقد جاء العلماء في كشف أسرار البيان، عن وجوه إعجاز القرآن، بعد أن ثبتت عندهم بالوجدان و البرهان، و قد أجمع أهل العربيّة قاطبة، و أهل اللّسن منهم و البيان، علي أنّ القرآن (معجز بذاته) أي أنّ إعجازه إنما كان بفصاحة ألفاظه، و روعة بيانه، و أسلوبه الفريد، الذي لا يشابهه فيه أسلوب، لا من نثر، و لا من شعر، و مسحته اللفظية الخلّابة، التي تتجلي في نظامه الصوتي، و جماله اللغوي، و براعته الفنية.

مذهب أهل الصّرفة:

و قد ذهب بعض المعتزلة منهم (أبو إسحاق النظّام) إلي أن إعجاز القرآن إنما كان ب (الصّرفة) بمعني أن اللّه عز و جل صرف البشر عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها و خلق فيهم العجز عن محاكاته في أنفسهم و ألسنتهم، و لو لا أنّ اللّه صرفهم عن ذلك لاستطاعوا أن يأتوا بمثله .. و لعمري هذا قول من لم يتذوق طعم العربية، و لا عرف أسرارها، بل قول من لم يدرك من العلوم إلا قشورا لا تسمن و لا تغني من جوع، و هو قول ساقط مرذول، مخالف لما أجمع عليه العلماء و الفصحاء و البلغاء في القديم و الحديث يقول حجة الأدب العربي (مصطفي الرافعي) رحمه اللّه: (و قد اختلفت آراء المعتزلة في وجه إعجاز القرآن، فذهب شيطان المتكلمين (أبو إسحاق النظّام) إلي أنّ

---

(1) سورة الطور، الآية: 34.

التبيان في علوم القرآن، ص: 103

الإعجاز كان بالصرفة، و هي أن اللّه صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقا للعادة و قال (المرتضي من الشيعة): بل معني الصّرفة أن اللّه سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن .. فكأنه يقول:

إنهم بلغاء يقدرون علي مثل النظم و الأسلوب و لا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم، و لا كان العلم في زمنهم .. و هذا رأي بيّن الخلط كما تري! ثم قال: و علي الجملة فإنّ القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ «1» و هذا زعم ردّه اللّه علي أهله، و أكذبهم فيه، و جعل القول به ضربا من العمي أَ فَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ «2» و علي ذلك المذهب الفاسد يمكن أن يقال: إن المعجز ليس هو القرآن الكريم علي حد زعمهم إنما هو (الصّرفة) التي بسببها عجزوا عن الاتيان بمثله صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ «3». و قد أسفّ (ابن حزم) الظاهري حين سلك ذلك المسلك الملتوي، و ذهب إلي ما ذهب إليه سلفه (النظّام) من سخف الكلام، و لكن بأسلوب رشيق رقيق حيث يقول في كتابه (الفصل) في سبب الإعجاز ما نصّه:

(لم يقل أحد إن كلام اللّه تعالي غير معجز، و لكن لمّا قاله اللّه تعالي، و جعله كلاما له أصاره معجزا، و منع من مماثلته، و هذا برهان كاف لا يحتاج إلي غيره) فأنت تري صاحب هذا الرأي يجعل القرآن الكريم معجزا بمنع

اللّه عزّ و جل من ممايلته و هذا عين رأي النظّام الذي يقول بالصّرفة، و هو رأي باطل كما أسلفنا، و القوم محجوبون عن ضياء الحق الساطع، و ما أجمل قول القائل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد و ينكر الفم طعم الماء من سقم

---

(1) سورة المدثر، الآية: 24.

(2) سورة الطور، الآية: 15. 1 انظر، إعجاز القرآن للرافعي ص 164.

(3) سورة التوبة، الآية: 127.

التبيان في علوم القرآن، ص: 104

آراء العلماء في الإعجاز:
بعد أن أجمع العلماء علي إعجاز القرآن بذاته، و علي عدم استطاعة أحد من البشر الاتيان بمثله، اختلفت آراؤهم في وجه إعجاز القرآن علي آراء:
أ- يري بعضهم: أن وجه الإعجاز في القرآن هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب و نثرهم، في مطالعه، و مقاطعه، و فواصله ب- و يري البعض الآخر: أنّ وجه الإعجاز إنما يكمن في فصاحة ألفاظه، و بلاغة عباراته، و جودة سبكه، إذ هو في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها ج- و يري آخرون أن الإعجاز في خلوّه من التناقض، و اشتماله علي المعاني الدقيقة، و الأمور الغيبيّة التي ليست بمقدور البشر، و لا في استطاعتهم معرفتها، كما أنه سليم من التناقض و التعارض د- و هناك من يقول: إن وجه الإعجاز هو ما تضمّنه القرآن من المزايا الظاهرة و البدائع الرائقة، في الفواتح، و المقاصد، و الخواتيم في كل سورة، و المعوّل عليه عندهم ما يلي:
1- الفصاحة في الألفاظ.
2- البلاغة في المعاني 3- صورة النّظم البديع.
و هذه الأقوال كلها لا تخرج عن دائرة واحدة هي (الدائرة البيانيّة) التي امتاز بها القرآن، و هي و إن كانت حقا إلّا أن إعجاز القرآن ليس في (الفصاحة و البلاغة) فحسب، بل هناك وجوه أخري لإعجاز القرآن، و قد أجاد العلامة (القرطبي) رحمه اللّه في تفسيره القيّم المسمّي (الجامع لأحكام القرآن) فعدّ عشرة وجوه لإعجاز القرآن، كما ذكر فضيلة الشيخ (الزرقاني) في كتابه (مناهل العرفان) أربعة عشر وجها من وجوه الإعجاز، منها ما ذكره القرطبي و منها ما لم يذكره، و نحن نذكر هذه
التبيان في علوم القرآن، ص: 105
الوجوه بالإيجاز ثمّ نعقبها بشيء من التفصيل، فنقول و من اللّه نستمدّ العون:

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

اشارة

وجوه إعجاز القرآن الكريم:
أولا: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب ثانيا: الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربيّة ثالثا: الجزالة التي لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثلها رابعا: التشريع الدقيق الكامل، الذي يبزّ كل تشريع وضعي خامسا: الإخبار عن المغيّبات التي لا تعرف إلّا بالوحي سادسا: عدم التعارض مع العلوم الكونيّة المقطوع بصحتها سابعا: الوفاء بكل ما اخبر عنه القرآن الكريم من وعد و وعيد ثامنا: العلوم و المعارف التي اشتمل عليها (العلوم الشرعية و العلوم الكونية) تاسعا: وفاؤه بحاجات البشر عاشرا: تأثيره في قلوب الأتباع و الأعداء

1- أما الوجه الأول:

1- أما الوجه الأول:
من وجوه إعجازه فهو (النظم البديع) المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب، فالقرآن الكريم لا يشبهه شيء في نظمه، لا من شعر و لا من نثر، و ذلك بشهادة أساطين البلاغة، و أئمة الفصاحة و البيان، (الوليد بن المغيرة) و (عتبة بن ربيعة) و غيرهما من فصحاء العرب و مشاهيرهم.

أمثلة من التاريخ:
1- يروي أن الوليد بن المغيرة جاء إلي النبي صلّي اللّه عليه و سلم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم، إنّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوه لك، فإنّك أتيت محمدا لتعرض لما قبله (أي لتنال من فضله) فقال الوليد: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالا، فقال له أبو جهل: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك
التبيان في علوم القرآن، ص: 106
منكر له، قال: و ما ذا أقول؟ فو اللّه ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه، و لا بقصيده، و لا بأشعار الجنّ، و اللّه ما يشبه هذا الذي يقول شيئا من هذا، و و اللّه إن لقوله لحلاوة و إنّ عليه لطلاوة، و إنّ أعلاه لمثمر، و إنّ أسفله لمغدق، و إنه ليعلو و ما يعلي عليه .. فقال أبو جهل اللعين: و اللّه ما يرضي قومك حتي تقول فيه، قال: فدعني حتي أفكّر، فلمّا فكّر قال: إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ فنزل فيه قول اللّه تعالي ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً* وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً .. إلي قوله: إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ* فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ* ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ* ثُمَّ نَظَرَ* ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ* ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ* فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ* إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ «1» 2- و يروي أن (الوليد) لمّا سمع القرآن من النبي صلّي اللّه عليه و سلم تأثّر تأثرا بالغا فجاء لقومه (بني مخزوم) و قال لهم: و اللّه لقد سمعت من محمد آنفا (أي سابقا) كلاما ما هو من كلام الإنس، و لا من كلام الجن، و اللّه إن له لحلاوة، و إن عليه لطلاوة ...
الخ. فقالت قريش: صبأ و اللّه الوليد، لتصبأنّ قريش كلها، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعد إليه حزينا و كلّمه بما أغاظه، فقام الوليد و قام معه أبو جهل، فلمّا أتي قومه قال: تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ و تقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهّن؟ و تزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطي شعرا قط؟ و تزعمون أنه كذّاب فهل جرّبتم عليه شيئا من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك. اللّهم لا ... ثمّ قالوا:
فما هو؟ ففكّر، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل و أهله، و بين الوالد و ولده، و ما الذي يقوله إلا سحر يأثره (أي ينقله) عن أهل بابل، فارتجّ النادي فرحا، و تفرقوا معجبين بقوله، متعجبين منه فنزلت الآيات الكريمة «2» 3- و في صحيح مسلم أن (أنيسا الغفاري) أخا أبي ذرّ، قال لأبي ذرّ: لقيت رجلا بمكة علي دينك، يزعم أن اللّه أرسله، قلت: فما يقول الناس: قال يقولون:
شاعر، ساحر، كاهن، و كان (أنيس) أحد الشعراء قال أنيس: لقد سمعت

قول

(1) سورة المدثر، الآيات: 11- 25. رواه البيهقي في دلائل النبوة.
(2) أنظر الكشاف، ج 4 ص 649.

الكهنة، فما هو بقولهم، و لقد وضعت قوله علي أقراء الشعر (يريد أنواعه و بحوره) فلم يلتئم علي لسان أحد منهم أنه شعر، و اللّه إنهم لكاذبون و إنه لصادق «1».

4- و أخرج ابن إسحاق في السيرة (أن أبا جهل قال في ملأ من قريش: لقد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر، و الكهانة، و السحر، فكلّمه ثم أتانا ببيان عن أمره؟ فقال (عتبة بن ربيعة)- و من من أشراف القوم و سادتهم- أنا أقوم إليه و أكلّمه! فأتاه فقال يا محمد: أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟

أنت خير أم عبد اللّه؟ فبم تشتم آلهتنا و تضلّلنا؟ فإن كنت تريد الرئاسة، عقد لك اللواء فكنت رئيسنا، و إن كنت تريد النساء زوجناك ما تشاء منهن، تختار من أي بنات قريش ما شئت، و إن كنت تريد المال جمعنا لك من أموالنا حتي تكون أغنانا و أكثرنا مالا، و النبي صلّي اللّه عليه و سلم ساكت لا يجيبه، فلمّا فرغ من عرضه، قال له النبي صلّي اللّه عليه و سلم: أفرغت؟

قال: نعم، قال فاسمع إذا فتلا عليه سورة فصلت حم* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ .. الخ حتي بلغ قوله تعالي فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً .. «2» الآية فأمسك عتبة علي فيه و ناشده بالرحم أن يكفّ، و رجع إلي أهله و لم يخرج إلي قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نري عتبة إلا قد صبأ! فانطلقوا إليه و قالوا يا عتبة: ما حبسك عنّا إلا أنك قد صبأت، فغضب ثم قال لهم: و اللّه لقد كلمته فأجابني بشيء و اللّه ما هو بشعر، و لا بسحر، و لا بكهانة، و قد ناشدته بالرجم أن يكفّ خشية أن ينزل بكم العذاب، و قد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ...) «3»

قال العلامة (القرطبي) رحمه اللّه (و إذا اعترف عتبة علي موضعه من اللّسان، و موضعه من الفصاحة و البلاغة، بأنه

(1) أنظر تفسير القرطبي ج 1 ص 73.
(2) سورة فصلت، الآيات: 1- 13.
(3) أنظر الكشاف، ج 4، ص 192.

ما سمع مثل القرآن قطّ، كان في هذا القول، مقرا بإعجاز القرآن له و

لضربائه من المتحققين بالفصاحة و القدرة علي التكلم بجميع أجناس القول و أنواعه)

2- أما الوجه الثاني لإعجاز القرآن:

2- أما الوجه الثاني لإعجاز القرآن:
فهو (الأسلوب العجيب) المخالف لجميع الأساليب العربية. فقد جاء القرآن بذلك الأسلوب الرائع الخلّاب، الذي بهر العرب برونقه و جماله، و عذوبته و حلاوته، و قد كانت فيه من الخصائص العليا ما لم توجد في كلام بشر علي نحو ما وجدت في القرآن، خصوصا و أن النبي صلّي اللّه عليه و سلم تحدّي به فأعجز أساطين الفصحاء. و أعيا مقاويل البلغاء، و أخرس ألسنة فحول البيان، و ذلك في عصر كانت القوي فيه قد توافرت علي الإجادة و التبريز في هذا الميدان، و في أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق في هذه الناحية يقول (الزرقاني) رحمه اللّه: (و ها قد مرّت علي اللغة العربية، من عهد نزول القرآن إلي عصرنا هذا، أدوار مختلفة بين علوّ و نزول، و اتّساع و انقباض، و حركة و جمود، و حضارة و بداوة، و القرآن في كل هذه الأدوار، واقف في عليائه، يطل علي الجميع من سمائه. و هو يشع نورا و هداية، و يفيض عذوبة و جلالة، و يسيل رقة و جزالة، و يرف جدّة و طلاوة، و لا يزال كما كان غضّا طريا، يحمل راية الإعجاز، و يتحدّي أمم العالم في يقين و ثقة، قائلا في صراحة الحق و قوته، و سلطان الإعجاز و صولته قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلي أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «1».

خصائص أسلوب القرآن:
و للقرآن الكريم في أسلوبه العجيب المخالف لجميع الأساليب البشرية خصائص عديدة نجملها فيما يلي:
الخاصة الأولي: مسحة القرآن اللفظية، التي تتجلّي في نظامه الصوتي، و جماله اللغوي

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 88. أنظر مناهل العرفان ج 2، ص 229.
التبيان في علوم القرآن، ص: 109
الخاصة الثانية: إرضاؤه العامة و الخاصة، بمعني أن الجميع يحسّون بجلاله و يشعرون بروعته الخاصة الثالثة: إرضاؤه العقل و العاطفة معا فالقرآن يخاطب العقل و القلب، و يجمع الحق و الجمال معا الخاصة الرابعة: جودة سبك القرآن و إحكام سرده، فكأنه سبيكة واحدة تلعب بالعقول و تأخذ بالأبصار الخاصة الخامسة: براعته في تصريف القول، و تفنّنه في ضروب الكلام، بمعني أنه يورد المعني الواحد بألفاظ شتي، و طرق مختلفة، و كلها رائعة فائقة الخاصة السادسة: جمع القرآن بين الإجمال و البيان الخاصة السابعة: الوفاء بالمعني مع القصد في اللفظ «1».

أمثلة توضيحية علي خصائص أسلوب القرآن:
يقول حجة الأدب العربيّ الفقيد (مصطفي الرافعي) رحمه اللّه:
1- (لو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصّرفية و اللغوية، تجري في الوضع و التركيب مجري الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، و لن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتي إنّ الحركة ربّما كانت ثقيلة، فلا تعذب و لا تساغ فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا .. من ذلك لفظة (النّذر) جمع نذير، فإنّ الضمّة ثقيلة فيها لتواليها علي النون و الذال معا، فضلا عن جسأة هذا الحرف، و نبوّه في اللسان، و لكنّه جاء في القرآن علي العكس في قوله تعالي وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ «2» فتأمل هذا التركيب، و أنعم ثم أنعم علي تأمله، و تذوّق مواقع الحروف، و أجر حركاتها في حسّ

---

(1) أنظر: مناهل العرفان للزرقاني.
(2) سورة القمر، الآية: 36.

السمع، و تأمّل مواضع القلقة في دال (لقد) و في الطاء من (بطشتنا) و في الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلي الواو من قوله (بطشتنا فتماروا) مع الفصل بالمد، ليكون ثقل الضمّة عليه مستخفا بعد، و لتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الاحماض في الأطعمة.
2- و في القرآن لفظة غريبة هي من اغرب ما فيه، و ما حسنت في كلام قط الا في موقعها فيه، و هي كلمة (ضيزي) من قوله تعالي تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزي و مع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن و من أعجبه، و لو أردت اللغة العربية ما صلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التي هي منها و هي سورة (النجم) مفصّلة كلها علي الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثمّ هي في معرض الإنكار علي العرب، إذ وردت في ذكر الاصنام، و زعمهم في قسمة الاولاد، فإنهم جعلوا الملائكة و الأصنام بنات للّه، مع و أدهم للبنات فقال تعالي أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثي* تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزي «1» فكانت غرابة اللفظة أشد الاشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي انكرها، و كانت الجملة كلها كأنها تصوّر في هيئة النطق بها، الإنكار في الأولي، و التهكم في الاخري، و كان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، و خاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل ..
3- و مما لا يسعه طوق انسان في نظم الكلام البليغ، ثم مما يدل علي ان نظم القرآن مادة فوق الصنعة، و من وراء الفكر، و كأنها صبّت علي الجملة

صبا، انك تري بعض الالفاظ لم يأت فيه لا مجموعا، و لم يستعمل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج الي هذه الصيغة استعمل مرادفها، كلفظة (اللب) فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله تعالي إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ «2» و قوله وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ «3» و نحوهما و لم ترد فيه مفردة، بل جاء مكانها (القلب) في قوله تعالي

(1) سورة النجم، الآيتان: 21، 22.
(2) سورة الزمر، الآية: 21.
(3) سورة إبراهيم، الآية: 52.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَي السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ «1» و ذلك لان لفظ (الباء) شديد مجتمع، و لا يفضي الي هذه الشدّة الا من اللام الشديدة المسترخية، فلما لم تحسن اللفظة اسقطها من نظمه بتّة ..
و كذلك لفظ (الكوب) استعملت فيه مجموعة، و لم يأت بها مفردة، لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق- من الظهور و الرقّة و الانكشاف و حسن التناسب- كلفظ (أكواب) الذي هو الجمع، و (الارجاء) لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعا، و ترك المفرد و هو الرّجا: اي الجانب لعلة لفظه، و انه لا يسوغ في نظمه كما تري ..
و عكس ذلك لفظة (الأرض) فإنها لم ترد فيه الا مفردة، و لم يرد في القرآن صيغة الجمع (أرضين) و لما احتاج الي جمعها اخرجها علي هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة، و ذهب بها حتي خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة، و ذلك في قوله تعالي: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ، يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ «2» و لم يقل (و سبع أرضين) لهذه الجسأة التي تدخل للفظ، و يختل بها النظم اختلالا ...
4- و تأمل قوله تعالي فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ، وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ، وَ الضَّفادِعَ، وَ الدَّمَ، آياتٍ مُفَصَّلاتٍ «3» فإنها خمسة اسماء، أخفها في اللفظ (الطوفان، و الجراد، و الدم) و أثقلها (القمّل و الضفادع) فقدّم (الطوفان) لمكان المدّين فيها، حتي يأنس اللسان بخفتها، ثم (الجراد) و فيها كذلك مدّ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئا باخفهما في اللسان، و ابعدهما في الصوت لمكان تلك الغنّة فيه، ثم جيء بلفظة (و الدم) آخرا، و هي اخف الخمسة و اقلها حروفا، ليسرع اللّسان فيها، و يستقيم لها ذوق النظم، و يتم بها هذا الاعجاز في التركيب، و انت فمهما قلّبت هذه الاسماء الخمسة، فإنك لا تري لها فصاحة الا في هذا الوضع، فلو قدّمت او أخرت لبادرك

(1) سورة ق، الآية: 37.
(2) سورة الطلاق، الآية: 12.

(3) سورة الأعراف، الآية: 133.

التهافت و التعثر، و لأعنتك ان تجيء منها بلفظ، او نظم فصيح ..

من ذلك يخلص لنا أن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه، لأنه ليس وضعا انسانيا البتة، و لو كان من وضع انسان لجاء علي طيقة تشبه أسلوبا من أساليب العرب، او من جاء بعدهم الي هذا العهد وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «1» و لقد أحس العرب بهذا المعني، و استيقنه بلغاؤهم، و لولاه ما افحموا، و لا انقطعوا من دونه، لأنهم رأوا جنسا من الكلام غير ما تؤديه طباعهم، و كيف لهم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة «2»؟! ..

و يقول المرحوم فضيلة الشيخ (الزرقاني) في موضوع خصائص أسلوب القرآن:.

(للقرآن مسحة خلابة عجيبة، تتجلّي في نظامه الصّوتي، و جماله اللغوي ..

و نريد بنظام القرآن الصوتي: اتساق القرآن و ائتلافه في حركاته و سكناته، و مدّاته و غنّاته، و اتصالاته و سكتاته، اتساقا عجيبا، و ائتلافا رائعا، يسترعي الاسماع و يستهوي النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل اليها أي كلام آخر من منظوم و منثور ..

و نريد بجمال القرآن اللغوي، تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في وصف حروفه و ترتيب كلماته، ترتيبا دونه كل ترتيب تعاطاه الناس في كلامهم، و لقد وصل هذا الجمال اللغوي الي قمة الاعجاز، بحيث لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس، لاعتلّ مذاقه في افواه قارئيه، و اختل نظامه في آذان سامعيه، و من عجيب أمر هذا الجمال اللغوي، و ذلك النظام الصوتي، انهما كما كانا دليل اعجاز من ناحية، كانا سورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخري، و ذلك ان من شأن الجمال اللّغويّ، و النظام الصوتي، ان يسترعي الاسماع، و يثير الانتباه، و يحرّك داعية الإقبال في كل إنسان، إلي هذا القرآن الكريم، و بذلك يبقي أبد الدهر سائدا علي ألسنة الخلق و في آذانهم، و يعرف بذاته و مزاياه بينهم فلا يجرؤ أحد علي تغييره و تبديله، مصداقا لقوله سبحانه:

---

(1) سورة النساء، الآية: 82.

(2) إعجاز القرآن للرافعي، ص 261.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «1» ..

و من خصائص اسلوب القرآن العظيم انه يخاطب العقل و القلب معا، و يجمع الحق و الجمال معا، انظر إليه و هو في معمعان إقامة الدليل العقلي علي البعث و النشور في مواجهة المنكرين المكذبين، كيف يسوق استدلاله

سوقا يهز القلوب هزا، و يمتع العاطفة امتاعا، بما جاء في طيّ هذه الادلة المسكتة المقنعة، إذ قال سبحانه في سورة (فصّلت):.
وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَي الْأَرْضَ خاشِعَةً، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ، إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتي، إِنَّهُ عَلي كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «2». و استمع إليه في سورة (ق) إذ يقول:.
وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ* وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ* رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ «3» ..
تأمل هذا الاسلوب البارع، الذي اقنع العقل، و امتع العاطفة في آن واحد، حتي في الجملة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل، إذ قال في الآية الأولي إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتي و في الآيات الأخيرة قال كَذلِكَ الْخُرُوجُ أي الخروج من القبور، و البعث و النشور ..
يا للجمال الساحر، و يا للإعجاز الباهر، الذي يستقبل عقل الانسان و قلبه معا، بأنصع الأدلة، و اجمل البيان، في هذه الكلمات المعدودات!!.
ثم أنظر الي القرآن و هو يسوق قصة (يوسف) مثلا، كيف يأتي في خلالها بالعظات

---

(1) سورة الحجر، الآية: 9. أنظر: مناهل العرفان، ج 2، ص 208.
(2) سورة فصلت، الآية: 39.
(3) سورة ق، الآيتان: 9- 11.

البالغة، و يطلع من خلالها بالبراهين الساطعة، علي وجوب الاعتصام، بالعفاف، و الشرف، و الأمانة، إذ قال في فصل من فصول تلك القصة الرائعة:.
وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ، وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ، وَ قالَتْ: هَيْتَ لَكَ، قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ «1» ..
فتأمل في هذه الآية كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث، بدواعي العفاف الثلاث، مقابلة صورت من القصص الممتع جدالا عنيفا بين (جند الرحمن) و (جند الشيطان) و وضعتهما امام العقل المنصف في كفتي ميزان!! و هكذا تجد القرآن كلّه مزيجا حلوا سائغا، يخفّف علي النفوس ان تجرع الأدلة العقلية، و يرفه عن العقول باللفتات العاطفية، فهل تسعد بمثل هذا في كلام البشر؟ لا، ثم لا، فكلام البشر إن و في بحقّ العقل، بخس العاطفة حقها، و إن وفي بحقّ العاطفة بخس العقل حقه، حتي لقد بات العرف العام يقسم الاساليب البشرية الي قسمين، لا ثالث لهما (اسلوب علمي) و (اسلوب ادبي) فطلاب العلم لا يرضيهم اسلوب الادب، و طلاب الادب لا يرضيهم اسلوب العلم، و هكذا تجد كلام العلماء و المحققين فيه من الجفاء

و العري، ما لا يهزّ القلوب و يحرّك النفوس، و تجد في كلام الأدباء و الشعراء، من الهزال و العقم العلمي ما لا يغذي الأفكار و يقنع العقول، اما القرآن فقد انفرد بهذه المزيّة بين أنواع الكلام، لأنه تنزيل من القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ «2» ..

3- الوجه الثالث من وجوه الاعجاز،

3- الوجه الثالث من وجوه الاعجاز،
ذلك الايجاز الرائع، و الجزالة «3» الخارقة التي ليس بإمكان مخلوق من البشر ان يحيط بها، أو يأتي بمثلها لأنها فوق الطاقة البشرية، و القدرة الانسانية. لقد كان البدوي، راعي الغنم، يسمع القرآن فيخر ساجدا للّه رب العالمين، و ذلك لروعة هذا الكتاب المجيد، و لما يفعل به في نفوس السامعين، و هو دليل رقة الإحساس، و لطف الشعور من اولئك الرعاة الجفاة.

---

(1) سورة يوسف، الآية: 23.
(2) سورة غافر، الآية: 64. أنظر مناهل العرفان، ص 210.
(3) المراد بالجزالة: الفخامة في الألفاظ، و الإجادة في التعبير مع قوة الحبك و عدم التعقيد.
التبيان في علوم القرآن، ص: 115

قصة الجارية و الأصمعي:.

يروي أن (الأصمعي) خرج ذات يوم فلقي جارية خماسيّة او سداسيّة، و سمعها تنشد أبياتا من الشعر رائعة، فأعجب بتلك الابيات و هزّت منه النفس و القلب، بجمال اسلوبها، و روعة بيانها، و فصاحة الفاظها، فقال لها: قاتلك اللّه ما أفصحك؟ فقالت له: ويحك أ و يعد هذا فصاحة بعد قول اللّه تبارك و تعالي وَ أَوْحَيْنا إِلي أُمِّ مُوسي أَنْ أَرْضِعِيهِ، فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ، وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ «1» ثم قالت له: فقد جمعت هذه الآية علي وجازتها بين أمرين، و نهيين، و خبرين، و بشارتين «2» .. الخ. قال الاصمعي فأعجبت بفهمها و إدراكها اكثر ما اعجبت بشعرها، فهي جارية بدوية صغيرة السن و لكنها واسعة العلم و الفهم، أما الأبيات التي كانت تنشدها فهي قولها:.

(أستغفر اللّه لذنبي كلّه قبّلت إنسانا بغير حلّه)

(مثل الغزال ناعما في دلّه و انتصف الليل و لم أصلّه)

و قد أشارت هذه الجارية علي الأصمعي بروعة ما في القرآن من بلاغة و فصاحة، و إيجاز و إعجاز، فالآية الكريمة جمعت بين امرين و هما (أرضعيه) و (ألقيه في اليمّ) و نهيين و هما (لا تخافي) و (لا تحزني) و خبرين و هما (أوحينا) و (خفت) و بشارتين و هما (إنا رادّوه إليك) و (جاعلوه من المرسلين) فالبشارة الأولي برده اليها سليما كريما، و البشارة الثانية و هي أن اللّه سبحانه و تعالي سيجعله رسولا هاديا. فانظر- رعاك اللّه- كيف أدركت هذه الجارية البدوية، بفطرتها العربية، سرا من أسرار هذا الايجاز و الاعجاز، و انتبهت الي ما لم يدركه هو من أسرار هذا القرآن، فكأنّ الآية نظمت في عقد من اللؤلؤ و المرجان، فكانت لآلئها بميزان ..

---

(1) سورة القصص، الآية: 7.

(2) القصة ذكرها القرطبي في تفسيره الجزء الثالث عشر ص 252، و ذكرها صاحب المنار في الجزء الأول ص 28 و المراد بقوله (خماسية او سداسية) أي طولها خمسة او ستة أشبار. أي أنها معتدلة القامة.

ب- و يروي أن (ابن المقفع) الكاتب البليغ المشهور، حاول أن يعارض القرآن ذات مرّة، فسمع صبيا يقرأ قوله تعالي: وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ، وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي، وَ غِيضَ الْماءُ، وَ قُضِيَ الْأَمْرُ، وَ اسْتَوَتْ عَلَي الْجُودِيِّ، وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «1» فكسّر الأقلام، و مزّق الصحف التي كان قد بدأ بها في المعارضة و قال:

هذا و اللّه مما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، فمزق ما جمع و استحيا علي نفسه من إظهاره ..
و هكذا رجع الأديب الكبير البليغ عن عزمه، بعد ان حدثته نفسه بمعارضة بعض سوره لأنه شعر بروعة القرآن ..
ثم انظر الي الجزالة و الايجاز في أسلوب القرآن، و قارنها بأروع اسلوب نطق به عربي، و هو أسلوب افصح من نطق بالضاد، سيد المرسلين محمد بن عبد اللّه، الذي شهد ببلاغته و فصاحته اعداؤه قبل أنصاره، قارن بين (القرآن و السنة النبوية) تجد الفرق شاسعا، و البون بعيدا، كفرق ما بين السماء و الأرض، فبلاغة القرآن و نضارته و إشراقه في أعلي طبقات الإحسان، و أرفع درجات الإيجاز و البيان، تأمل قوله صلّي اللّه عليه و سلم في صفة الجنة و ما فيها من نعيم و خلود:.
«فيها ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر علي قلب بشر ...» الحديث، و قارن بين هذه الألفاظ علي روعتها و بين قوله تعالي في وصف نعيم أهل الجنة ..
وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ، وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ .. «2» الآية. و قوله تعالي فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ «3» فهذا أعدل وزنا، و أحسن تركيبا، و أعذب لفظا، و أجزل عبارة، و أقلّ حروفا. !!.
و وازن بين قوله صلّي اللّه عليه و سلم «كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته، الرجل راع في بيته

---

(1) سورة هود، الآية: 44.
(2) سورة الزخرف، الآية: 71.
(3) سورة السجدة، الآية: 17.

و مسئول عن رعيته» الحديث. و بين قوله تعالي فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ «1» و قوله فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ «2» و كذلك قارن بين سائر اقواله صلّي اللّه عليه و سلم و بين القرآن الكريم تجد أن كلام الرسول علي بلاغته لا يخرج عن كونه كلام بشر في الذروة العليا من الكلام، أما كلام اللّه تعالي فلا يشبهه كلام لانه كلام خالق البشر، انظر إليه و هو يتحدث في جزء آية من آياته المجيدة عن احوال الامم السابقين، و مآل الجاحدين المكذبين، و ما حل بهم من كوارث و نكبات، نتيجة لطغيانهم و تمردهم، ثم كيف انتقم اللّه منهم جميعا بعد ان جاوزوا الحدّ في الطغيان، فلم ينج منهم إنسان يقول جلّ ثناؤه:.
فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً، وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ، وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا، وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ «3» ..

يقول القرطبي رحمه اللّه نقلا عن (ابن الحصّار): و هذه الثلاثة اوجه من (النظم، و الاسلوب، و الجزالة) لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية، و بمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية و كل سورة عن سائر كلام البشر، و بها وقع التحدّي و التعجيز، و مع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير ان ينضاف اليها أمر آخر من الوجوه العشرة، فهذه سورة (الكوثر) ثلاث آيات قصار، و هي اقصر سورة في القرآن، و قد تضمنت الإخبار عن معنيين:.

أحدهما: الإخبار عن الكوثر (نهر في الجنة) و عظمه و سعته و كثرة اوانيه، و ذلك يدل علي ان المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل ..

و الثاني: الإخبار عن (الوليد بن المغيرة) و كان عند نزول الآية ذا مال و ولد، ثم

---

(1) سورة الحجر، الآية: 92، 93.

(2) سورة الأعراف، الآية: 6.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 40.

التبيان في علوم القرآن، ص: 118

أهلك اللّه سبحانه ماله و ولده «1»، و انقطع نسله «2» ..) انتهي.

4- التشريع الالهي الكامل:.

4- التشريع الالهي الكامل:.
و من وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك التشريع الإلهي الكامل، الذي يسمو فوق كل تشريع وضعي عرفه البشر، في القديم و الحديث، فالقرآن الكريم هو الذي وضّح أصول العقائد، و أحكام العبادات، و قوانين الفضائل و الآداب، و قواعد التشريع الاقتصادي، و السياسي، و المدني، و الاجتماعي، و هو الذي نظّم حياة الاسرة، و المجتمع، و وضع أعدل المبادئ الإنسانية الكريمة التي ينادي بها دعاة الإصلاح في القرن العشرين ألا و هي (المساواة، الحرية، العدالة التي يسمونها (الديمقراطية) الشوري) الي غير ما هنالك من أسس الحضارة و التشريع، الذي تسعي اليه المدنية الحديثة. ففي العقائد دعا القرآن الي عقيدة طاهرة سامية، واضحة جلية، عمادها الايمان باللّه عز و جلّ و التصديق بجميع انبيائه و رسله، و الايمان بجميع الكتب السماوية مصداقا لقوله تعالي:.
آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ «3». و دعا أهل الكتاب (اليهود و النصاري) الي كلمة سواء، لا انحراف فيها و لا التواء قال تعالي: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلي كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ «4» ..

---

(1) معني الأبتر: الذي لا ولد له و لا نسل، و الشانئ معناه: المبغض، و قد قال الزمخشري أنها نزلت في (العاص بن وائل).
(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج 1، ص 74.
(3) سورة البقرة، الآية: 285.
(4) سورة آل عمران، الآية: 64.
التبيان في علوم القرآن، ص: 119
و في العبادات جاء القرآن العظيم بأسس العبادات و دعائمها، فشرع الصلاة، و الصيام، و الحج، و الزكاة، و سائر اعمال البرّ و الطاعة، و ليست (العبادة) في الاسلام قاصرة علي هذه الدعائم و الأركان، بل هي تشمل كل عمل خير، و فعل برّ او طاعة، و لهذا فإن العلماء قرروا أن كل عمل يقصد به الإنسان وجه اللّه يكون عبادة، و قالوا (إن النية الصالحة تقلب العادة الي عبادة) فإذا عمل الإنسان و احترف له صنعة بقصد التعفف عن الحرام و الإنفاق علي أهله و عياله، و إذا اكل أو شرب بقصد التقوّي علي طاعة اللّه كان عمله عبادة يثاب عليها، و الاصل في هذا قول النبي الكريم «و إنك لن

تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللّه إلا اجرت عليها، حتي اللقمة تضعها في فيّ امرأتك) الحديث «1». و قوله صلّي اللّه عليه و سلم «و في بضع أحدكم صدقة، قالوا يا رسول اللّه: أ يأتي احدنا شهوته و يكون له فيها أجر؟ قال: أ رأيتم لو وضعها في حرام أ كان عليه وزر؟
فكذلك اذا وضعها في حلال كان له أجر» «2» و إذا امعنا النظر في اصول العبادات المفروضة نجد ان الإسلام قد وسّعها و نوّعها، و جعلها ضروبا متفاوتة، فمنها ما هو (عبادة مالية) كالزكاة و الصدقات، و منها ما هو (عبادة بدنية) كالصلاة و الصيام، و منها ما هو يجمع بين الامرين (عبادة مالية و بدنيّة) كالجهاد في سبيل اللّه يكون بالمال و النفس و هذا التنويع له مغزاه و حكمته السامية و ذلك لئلا تألف النفس شيئا فتصبح لها عادة او تملّ و تضجر من العبادة الواحدة. و في مجال (التشريع العام) نجد القرآن العظيم قد وضع قواعد عامة في التشريع المدني، و الجنائي، و السياسي، و الاقتصادي، و وضع أسسا للتعامل الدولي في حالة السلم و الحرب، علي اكمل وجه و اعدل نظام، ففي أمر المعاملات حرّم القرآن اكل اموال الناس بالباطل يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ «3»

---

(1) الحديث من رواية البخاري في قصة (سعد بن أبي وقاص) حين دخل الرسول صلّي اللّه عليه و سلم يزوره من وجع اشتد به.
(2) الحديث من رواية مسلم، و هو في باب كثرة طرق الخير و أوله: أن ناسا قالوا يا رسول اللّه ذهب أهل الدثور بالأجور.
(3) سورة النساء، الآية: 29.

الآية، و دعا الي الإشهاد عند إبرام البيع و بكتابة الدين يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلي أَجَلٍ مُسَمًّي فَاكْتُبُوهُ وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ «1» الآية. و في الأمور الجنائية شرع القرآن الحدود، و أوجب علي الأمة تنفيذها، من أجل حماية المجتمع و صيانته من الفوضي و الاضطراب و تأمين الأمة علي حياتها و مستقبلها، و أموالها و أعراضها لتعيش الحياة الكريمة السعيدة التي لن تكون إلا عن طريق (الأمن و الاستقرار) ..
و قد نص القرآن الكريم علي أمهات الجرائم، و أعظمها خطرا علي مستقبل الفرد و الجماعة، و وضع لكل منها عقوبات مقدرة لا يجوز الزيادة عليها او النقصان منها، أو التساهل في تطبيقها، و ترك ما سوي ذلك من (الجرائم الخفيفة) للحاكم المسلم، ينفّذ فيها ما يراه من العقوبة، علي ضوء السنة النبويّة المطهّرة، و بالشكل الذي يحقق روح الإسلام من إرادة الخير للناس، و تطهير المجتمع من المفاسد و المظالم الاجتماعية، أما الجرائم الكبيرة التي عين لها القرآن عقوبات رادعة فهي خمسة: (جريمة القتل،

جريمة الزني، جريمة السرقة، جريمة قطع الطريق، جريمة الاعتداء علي كرامة الناس بالقذف) ..

و لعلّ أروع مثل للمقارنة بين (التشريع الإلهي القرآني) و بين (التشريع الوضعي) الذي هو من صنيع البشر ذلك الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب بسبب تلك الطريقة الحكيمة التي سلكها في معالجة المفاسد و الأمراض الاجتماعية، حيث قضي علي كل فساد، و استأصل كل جريمة من نفوسهم، و جعلهم خير أمة اخرجت للناس، فملكوا الدنيا و سادوا العالم ..

أمثلة من واقع الحياة:.
و من الأمثلة علي تفوّق ذلك التشريع القرآني الحكيم، علي بقية التشاريع البشرية

---
(1) سورة البقرة، الآية: 282.
التبيان في علوم القرآن، ص: 121
و النظم الارضية ما نلمسه في واقع الحياة، و يمكن ان نشير إشارة خاطفة الي سموّ الشريعة الإسلامية علي بقية النظم فيما يلي:.
1- منذ زمن قريب حرّمت (أمريكا) الخمر، و لكنها فشلت و لم تنجح لأنها لم توفق الي الطريقة الحكيمة التي اتّبعها الإسلام في تحريم الخمر، فعادت الي إباحته مع اعتقادها بضرره الفادح ..
2- أباحت بعض الدول الغربية و خاصة (أمريكا) الطلاق بعد ان كان ممنوعا لديها بسبب تعاليم الكنيسة، و لكنها أسرفت فيه إلي درجة ضارّة، و لا تزال تأخذ بتشريع الطلاق ..
3- مصلحو اوربا يرفعون اصواتهم بضرورة السماح (بتعدد الزوجات) حتي بعض نسائهم طالبن بذلك نتيجة لكثرة العوانس من النساء، بحيث أصبحت المشكلة ذات أهميّة خطيرة علي المجتمع الاوربي ..
4- الخيانات الزوجية انتشرت في المجتمع الاوربي (المتمدّن) بشكل فظيع، و بصورة مذهلة حتي أصبحت الاسر مهددة بانفصام عراها، و كثر فيها اللقطاء و ذلك بسبب السفور و التبرج و الاختلاط بين الجنسين ..
5- إسبانيا أصدرت حكومتها قرارا و سنت قانونا بمنع البغاء الرسمي في بلادها، و بمنع النساء من البروز علي الشواطئ في ثياب الاستحمام ..
6- زعيم فرنسا نادي غداة هزيمتها امام الألمان في الحرب الاخيرة يقول: إن سبب انهيار دولة فرنسا و سبب هزيمتها و انكسارها هو انغماسهم في الشهوات الجنسية، و إسرافهم في المفاسد و المفاتن ..
7- و أخيرا نجد ان الجرائم تزداد في كل يوم في المجتمع المتمدن (المجتمع العربي) مع صراحة العقوبات المشروعة، عندهم بالحبس و السجن السنوات الطوال، او الإعدام بالشنق، و مع ذلك نجد الجرائم المروّعة من خطف للفتيات و الفتيان، و إزهاق للأرواح، و سرقة- في وضح النهار- للبيوت و البنوك و المحلات الكبيرة حتي لقد اصبحنا نسمع عن وجود عصابات خطيرة، تهدد امن البلاد و سلامة العباد، و ذلك من
التبيان في علوم القرآن، ص: 122
أعظم البراهين علي فشل النظم الوضعية، و التشريعات البشرية، اما

الاسلام فقد حقق الامن و السلام، و قضي علي الجريمة في مهدها و لقد أحسن من قال:

(أينما نظّمت عقول ضعاف من نظام المهيمن الديّان)

(إيه عصر العشرين ظنوك عصرا نيّر الوجه مسعد الانسان)

(لست نورا بل انت نار و ظلم مذ جعلت الإنسان كالحيوان)

ذلك هو الفرق بين تشريع الرحمن، و تشريع الإنسان، و لكن أكثر الناس لا يعلمون «1».

5- الإخبار عن المغيّبات:.
و من وجوه إعجاز القرآن الكريم (إخباره عن المغيّبات) و ذلك برهان ساطع، و دليل قاطع علي أن هذا القرآن ليس من كلام البشر، إنما هو كلام علّام الغيوب، الذي لا تخفي عليه خافية، و لو كان من صنع محمد- كما زعموا- لظهرت علائم الوضع في تلك الأخبار الغيبية، بوقوعها علي خلاف ما اخبر و لافتضح امره بالكذب الصريح، و حاشاه صلّي اللّه عليه و سلم من الكذب علي اللّه ..
أ- فمن هذه الاخبار الغيبية، إخباره عن الحرب التي ستقع بين الروم و الفرس، و ستكون الغلبة فيها و الانتصار للروم بعد ان انكسروا في الحرب السابقة و ذلك في قوله تعالي:.
الم* غُلِبَتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَي الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ* فِي بِضْعِ سِنِينَ، لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ* بِنَصْرِ اللَّهِ، يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «2» ..
يذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية ان حربا وقعت بين دولة الروم و هي

---

(1) أنظر كتاب مناهل العرفان للزرقاني.
(2) سورة الروم، الآيات: 1- 5.

(مسيحية) و دولة الفرس و هي (وثنية) فانتصر الفرس علي الروم، ففرح المشركون و شمتوا و قالوا للمسلمين: تزعمون انكم أهل كتاب و أن النصاري أهل كتاب، و ها قد ظهر إخواننا علي إخوانكم، و لنظهرنّ نحن عليكم، فاغتمّ المسلمون و حزنوا لانهزام الروم و هم دولة متدينة، أمام دولة الفرس و هم وثنيون، فنزلت الآية الكريمة تبشر المسلمين بانتصار الروم علي الفرس في مدة وجيزة تتراوح بين الثلاث و التسع من السنين (في بضع سنين) و لم يكن مظنونا وقت تلك البشارة أن الروم تنتصر علي الفرس، لأن الحروب الطاحنة انهكتها حتي غزيت في عقر دارها، و لأن دولة الفرس كانت قوية منيعة، و زادها الظفر الأخير قوة و منعة. فلما نزلت الآية الكريمة راهن ابو بكر بعض المشركين و هو (أبي بن خلف) علي مائة ناقة الي تسع سنين، و لم تمض المدة حتي وقعت الحرب بين الروم و الفرس، فانتصر فيها الروم و انهزمت الفرس و تحققت نبوءة القرآن و ذلك- 622- ميلادية الموافقة للسنة الثانية من الهجرة النبوية، و كسب أبو بكر الرهان فأمره صلّي اللّه عليه و سلم بالتصديق به ..

و في الآية نبوءة اخري و هي ان المسلمين سيفرحون بنصر قريب، في الوقت الذي ينتصر فيه الروم وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ* بِنَصْرِ اللَّهِ .. و لقد صدق اللّه وعده في هذه كما صدقه في تلك، فكان ظفر المسلمين في بدر واقعا في الظرف الذي انتصر فيه الروم، و هكذا تحققت النبوءتان في وقت واحد بفضل اللّه ..

يقول الزمخشري: (و هذه الآية من الآيات البينة الشاهدة علي صحة النبوّة، و أن القرآن من عند اللّه، لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا اللّه) «1».

ب- التنبؤ بدخول الرسول و اصحابه مكة آمنين مطمئنين .. روي ان النبي صلّي اللّه عليه و سلم رأي رؤيا في منامه و ذلك قبل خروجه الي الحديبية، رأي كأنه هو و أصحابه قد دخلوا مكة آمنين و قد حلقوا و قصّروا فقصّ الرؤيا علي أصحابه، ففرحوا و استبشروا، و حسبوا انهم داخلوها من عامهم، و قالوا: إن رؤيا رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم

(1) انظر الكشاف، ج 4 ص 345. في سبب نزول الآية الكريمة.

حق، فلما كان صلح الحديبية خرجوا من المدينة محرمين يسوقون الهدي إلي مكة لا يقصدون حربا، و إنما يقصدون العمرة و النسك، و لكنّ قريشا صدتهم، و كادت تقع الحرب بين المسلمين و المشركين لو لا ان الرسول صلّي اللّه عليه و سلم رضي معهم بالصلح إثارا منه للسّلم و حبا للسلام العام، و كان من شروط ذلك الصلح ان يرجع الرسول و من معه من ذلك العام علي ان يدخلوا مكة في العام القابل، و اتخذ المنافقون ضعفاء الايمان من ذلك سبيلا الي الطعن و الدسّ و اللمز، حتي قال رئيس المنافقين (عبد اللّه بن أبيّ): و اللّه ما حلقنا، و لا قصّرنا، و لا رأينا المسجد الحرام، و لكن نزلت الآية الكريمة تحمل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة و هي: دخول مكة، و أداء النسك، و الأمن من قريش، علي رغم ما هو معروف من غدر قريش و نكثهم العهود، و تقطيعهم الأرحام، و قد انجز اللّه وعده فتمّ الأمر و دخل المؤمنون مكة آمنين مطمئنين و في ذلك يقول القرآن الكريم:.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ، لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ، إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ، لا تَخافُونَ، فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً «1» ..

ج- تنبأ القرآن بانهزام المشركين قبل وقوع الحرب و ذلك في قوله تعالي في سورة القمر:.

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ* سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ* بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهي وَ أَمَرُّ «2» و سورة القمر مكّية، و الجهاد لم

يشرع إلّا في السنة الثانية من الهجرة، فأين هي إذا فكرة الحرب، و من الذي كان يجول بخاطره ان ينهزم جمع المشركين، و ينتصر عليهم المسلمون و هم قلّة في العدد و العدد؟
و لكنه وعد اللّه لا يخلف ..
روي عن عكرمة انه قال: لما نزلت هذه الآية سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ

---

(1) سورة الفتح، الآية: 27.
(2) سورة القمر، الآيات: 44- 46.

قال عمر بن الخطاب: أيّ جمع هذا الذي سيهزم؟ فلما كانت غزوة بدر رأي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم و هو يثب في الدرع و يقول (سيهزم الجمع و يولّون الدّبر) فعرف عمر تأويلها «1». و روي عن ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية و بين بدر سبع سنين ..
د- تنبأ القرآن بذلك المستقبل الاسود الذي ينتظر كفار قريش، و ذلك في قوله تعالي في سورة الدخان:.
فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ* يَغْشَي النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ* رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ* أَنَّي لَهُمُ الذِّكْري وَ قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ* ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ* إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ* يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْري إِنَّا مُنْتَقِمُونَ «2» ..
و سبب نزول هذه الآيات الكريمة أن أهل مكة لما كذّبوا رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم و استعصوا و تمرّدوا عليه، دعا عليهم فقال: «اللهم أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنة حصّت كل شيء حتي أكلوا الجلود و الميتة من الجوع، و ينظر أحدهم الي السماء فيري كهيئة الدخان، فأتاه (أبو سفيان) فقال: يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة اللّه، و بصلة الرحم، و إن قومك قد هلكوا فادعوا اللّه لهم فأنزل الله هذه الآيات الكريمة» «3» ..
قال الزرقاني رحمه اللّه: و في هذه الآيات عند التأمل خمسة تنبؤات:.
أولها: الإخبار بما يغشاهم من القحط و الجوع حتي يري الرجل بينه و بين السماء كهيئة الدخان ..
الثاني: الإخبار بأنهم سيضرعون الي اللّه حين تحل بهم هذه الازمة ..

---

(1) أنظر الكشاف، ص 440، الجزء الرابع.
(2) سورة الدخان، الآيات: 10- 16.
(3) الحديث من رواية البخاري و مسلم.

الثالث: الإخبار بأن اللّه سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلا ..
الرابع: الإخبار بأنهم سيعودون إلي كفرهم و عتوّهم ..

الخامس: الإخبار بأن اللّه سينتقم منهم يوم البطشة و هو يوم بدر. ثم قال: و لقد حقق اللّه ذلك كله ما انخرم منه و لا نبوءة واحدة، فأصيبوا بالقحط حتي أكلوا العظام و جعل الرجل ينظر إلي السماء فيري بينه و بينها كهيئة الدخان من شدة جوعه و جهده، ثم قالوا متضرعين رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ، ثم كشف اللّه عنهم العذاب قليلا ثم عادوا الي كفرهم و عتوهم، فانتقم اللّه منهم يوم بدر فبطش بهم البطشة الكبري حيث قتل منهم سبعون و أسر سبعون و أديل للمسلمين منهم. أ رأيت ذلك كله هل يمكن ان يصدر مثله من مخلوق؟ كلّا بل هو اللّه العزيز الحكيم «1» ..

ه- التنبؤ بإظهار الإسلام علي جميع الأديان، و ذلك في قوله تعالي:.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدي وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَي الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ «2» ..

و كذلك التنبؤ بالمستقبل الباسم الذي سيكون للمؤمنين و ذلك في قوله تعالي:.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضي لَهُمْ، وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً «3» .. الآية ..

و قد تحقق هذا الوعد الإلهي فأظهر اللّه الإسلام علي جميع الأديان، و مكّن للمسلمين في الأرض في حياة النبي صلّي اللّه عليه و سلم حتي استولوا علي جميع البلاد العربية، و لم يبق جزء منها إلا دان للمسلمين بالطاعة و من لم يدخل في الاسلام دخل في ذمة المسلمين، و خضع لسلطانهم،: و دفع الجزية لهم، ثم سار أصحابه من بعده إلي ارض كسري

---

(1) أنظر مناهل العرفان، ج 2، ص 273.

(2) سورة التوبة، الآية: 33.

(3) سورة النور، الآية: 55. أنظر: الكشاف للزمخشري، ج 3، ص 252.

و أرض هرقل، فأزالوا دولة الفرس، و دولة الرومان، و لم يمض قرن من الزمان حتي اتسعت رقعة الدولة الاسلامية، فصارت تمتد من بحر الظلمات في المغرب الي تخوم الصين في المشرق، فتحقق بذلك الوعد الكريم، و كان وعد اللّه مفعولا ..

و كل هذه- و أمثالها في القرآن كثير- أخبار عن المستقبل و قد تحققت جميعها، و هذا أمر خارق للعادة فكان وجها من وجوه الإعجاز لأن مثله لا يتفق إلا بإخبار من عند اللّه جلّ و علا. و لا يغيب عن بالنا أن جميع القصص التي جاء في القرآن الكريم هو من باب الإخبار عن غيوب الماضي الذي أطلع اللّه رسوله الكريم عليه، و ما كان له علم بها، و لهذا ذكر اللّه جلّ ثناؤه قصة نوح ثم اعقبها بهذه الآية الكريمة و هي قوله تعالي:.

تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ «1» ..

و ما اروع قصص القرآن الذي نزل علي خاتم المرسلين، ليكون تثبيتا لقلبه و ذكري للمؤمنين؟! و ذلك أعظم برهان علي أنه تنزيل رب العالمين، فيا لها من حكمة سامية، و معجزة باهرة!!

6- سادسا: عدم التعارض مع العلم الحديث:.

و من وجوه إعجاز القرآن تلك الإشارات الدقيقة، إلي بعض العلوم الكونيّة، التي سبق اليها القرآن قبل ان يكتشفها العلم الحديث، ثم عدم تعارضه مع ما يكشفه العلم من نظريات علمية حديثة، و قد أشار القرآن الكريم الي هذه الناحية من نواحي الإعجاز بقوله جلّ شأنه:.

سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّي يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلي كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ؟ «2» ..

---

(1) سورة هود، الآية 49.

(2) سورة فصلت، الآية: 53.

التبيان في علوم القرآن، ص: 128

و مع اعتقادنا بأن القرآن العظيم ليس كتاب طبيعة أو هندسة أو فيزياء، و إنما هو كتاب (هداية و إرشاد) و كتاب (تشريع و إصلاح) و لكن مع ذلك لم تخل آياته من الإشارات الدقيقة، و الحقائق الخفيّة، إلي بعض المسائل الطبيعيّة، و الطبّية، و الجغرافية مما يدل علي إعجاز القرآن و كونه وحيا من عند اللّه، فمن المقطوع به ان محمدا صلّي اللّه عليه و سلم كان أميا لا يقرأ و لا يكتب، و انه نشأ في بيئة بعيدة عن مظاهر الحضارة، حيث لم تكن علوم و لا معارف و لا مدارس تقرأ فيها العلوم الكونية، لأن قومه و عشيرته كانوا (أميين) و مع ذلك فإن النظريات العلمية التي أشار إليها القرآن لم تكن معلومة في عصره، و لم يكتشف العلم أسرارها إلّا منذ زمن قريب، و ذلك من أصدق البراهين علي ان هذا القرآن ليس من تأليف محمد- كما يزعم بعض المستشرقين- إنما هو وحي من اللّه، أنزله علي قلب سيد المرسلين، بلسان عربي متين. و لقد أجاد الاستاذ (عفيف طبّارة) في كتابه (روح الدين الإسلامي) فذكر بعض هذه الحقائق العلمية الدقيقة، و نحن ننقل بعضها بشيء من الإيجاز مع التصرف.

التبيان في علوم القرآن، ص: 129

الفصل الثامن معجزات القرآن العلميّة

أولا: وحدة الكون:.

أظهر النظريات العلمية الحديثة تقول: إن الأرض كانت جزءا من المجموعة الشمسية ثم انفصلت عنها و تبرّدت و أصبحت صالحة لسكني الإنسان، و يبرهنون علي صحّة هذه النظرية بوجود البراكين و المواد الملتهبة في باطن الأرض، و قذف الارض بين حين و حين بهذه الحمم من المواد البركانية الملتهبة .. الخ ..

هذه النظرية تتفق مع ما أشار اليه القرآن الكريم في قوله جل ثناؤه:.

أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً «1» فَفَتَقْناهُما «2» وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ، أَ فَلا يُؤْمِنُونَ «3» ..

يقول الاستاذ (طبارة): هذه معجزة من معجزات القرآن يؤيدها العلم الحديث الذي قرّر ان الكون كان شيئا واحدا متصلا من غاز ثم انقسم الي سدائم، و عالمنا الشمسي كان نتيجة تلك الانقسامات .. اما الشطر الثاني من الآية وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍ

---

(1) الرتق: الضم و الالتحام.

(2) الفتق: الفصل بين الشيئين.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 30.

التبيان في علوم القرآن، ص: 130

فهو من أبلغ ما جاء في تقرير حقيقة علمية أدرك العلماء سرّها، فمعظم العمليات الكيمياوية تحتاج إلي الماء، و هو العنصر الأساسي لاستمرار الحياة لجميع الكائنات و النباتات و للماء خواص أخري تدل علي ان مبدع الكون قد صمّمه بما يحقق صالح مخلوقاته، و الماء يمتص كميات كبيرة من الأوكسجين عند ما تكون درجة حرارته منخفضة، و عند ما يتجمد تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد الأحياء التي تعيش في البحار من أسماك و غيرها، فما أعجب حكمة القرآن الذي يبين بكلمات جليلة سرّ الحياة؟!..

و قد روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال في تفسير هذه الآية الكريمة:

كانت السماء رتقا لا تمطر، و كانت الأرض رتقا لا تنبت، فلمّا خلق للأرض أهلا، فتق السماء بالمطر، و فتق الأرض بالنبات «1» ..

أقول: هذا التفسير جميل و حسن و يكون من باب (الاستعارة) و هو الذي ذهب إليه المفسّرون القدامي، و لكن لا يمنع أن يكون في القرآن بعض هذه الروائع العلمية التي كشف عنها العلم الحديث، فالقرآن حمّال وجوه، و ليس هناك تحكّم في فهم أسراره، فربما فهم المتأخرون ما لم يفهمه

المتقدمون، و اللّه تعالي يقول: سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّي يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ «2». فلعلّ هذا من الآيات التي أطلعهم اللّه عليها في القرن العشرين.

ثانيا: نشأة الكون:.
يقول العالم الفلكي (جينز): (إن مادة الكون بدأت غازا منتشرا خلال الفضاء بانتظام، و إن السدائم (المجموعات الفلكية) خلقت من تكاثف هذا الغاز) ..
و يقول الدكتور (جامو): (إن الكون في بدء نشأته كان مملوءا بغاز موزّع توزيعا منتظما و منه حدثت عمليات) ..

---

(1) أنظر: تفسير ابن كثير: ج 3، ص 187.
(2) سورة فصلت، الآية: 53.

التبيان في علوم القرآن، ص: 131
هذه النظرية نجد لها في القرآن الكريم ما يؤيدها- و لو لا أنّ القرآن أخبر عن ذلك لاستبعدنا هذه النظرية- يقول تعالي: ثُمَّ اسْتَوي إِلَي السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ، فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ: ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، قالَتا: أَتَيْنا طائِعِينَ «1» فالقرآن صوّر مصدر خلق هذا الكون (بالدخان) و هو الشيء الذي يفهمه العرب من الأشياء الملموسة. أ يكون في مقدور امّي- منذ أربعة عشر قرنا- أن يدرك هذا في وقت كان الناس لا يعرفون شيئا عن هذا الكون و خفاياه؟!.

ثالثا: تقسيم الذرّة:.
ظلّ الاعتقاد السائد حتي القرن التاسع عشر أن الذرّة هي أصغر جزء يمكن ان يوجد في عنصر من العناصر. و أنها غير قابلة للتجزئة لأنها الجزء الذي لا يتجزأ، و قد مضت قرون علي هذا الاعتقاد و منذ عشرات السنين الماضية حوّل العلماء اهتمامهم الي مشكلة (الذرّة) فأمكنهم تجزئتها و تقسيمها، و قد وجدوا أنها تحتوي علي الدقائق الآتية: (1) البروتون. (2) النيترون. (3) الالكترون، و بواسطة هذه التجزئة اخترعوا القنبلة الذرية، و القنبلة الهيدروجينية، و نعوذ باللّه من قيام الساعة و من شر ابليس اللعين. استمع إلي قوله تعالي عند الإخبار عن الذرّة وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ، وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ «2» ..
فكلمة (أصغر) من الذرة في الآية القرآنية تصريح جلي بإمكان تجزئتها، و في قوله (و لا في السماء) بيان بأنّ خواصّ الذرات في الأرض هي نفس خواص الذرات الموجودة في الشمس و النجوم و الكواكب. فهل درس محمد خواص الذرة و أمكنه تجزئتها و الوقوف علي خواصها في الأرض و السماء؟ إنها لدليل قويّ علي أن القرآن وحي إلهي.

---

(1) سورة فصلت، الآية: 11.
(2) سورة يونس، الآية: 61. يعزب: أي يغيب و يخفي.
التبيان في علوم القرآن، ص: 132

رابعا: نقص الاوكسجين:.
منذ اكتشاف الطيران ظهرت للعلماء بادرة طبيعية و هي نقص الاوكسجين في طبقات الجو العليا، فكلّما حلق الإنسان و ارتفع في أجواء السماء كلّما أدركته هذه الظاهرة، و شعر عند ذلك بضيق الصدر و صعوبة التنفس، حتي ليكاد يشعر بالاختناق، و لهذا فإن الطيّارين يعطون تعليمات للركاب بأن يستعملوا (الأوكسجين الصناعي) حين تعلو بهم الطائرة إلي مرتفعات عالية تزيد عن 35 خمسة و ثلاثين الف قدم. هذه الظاهرة العلمية أشار اليها القرآن الكريم قبل اختراع الطيران و قبل أربعة عشر قرنا.
استمع إلي قوله تعالي: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ، وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً «1» كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ «2» ..
و لقد كان القدماء يفسّرون هذا الآية حسب مفاهيمهم التي تتفق مع زمانهم فكانوا يقولون (كأنما يصّعد في السماء) أي كمن يحاول الصعود إلي السماء و هو ليس بمستطيع او كمن يخاول عمل المستحيل، و قد جاء هذا العصر فأظهر معجزة القرآن، و سجّل اتفاقا رائعا للآية القرآنية مع الواقع العلمي فكان تأييدا لصدق نبوة محمد صلّي اللّه عليه و سلم، فللّه ما أروع هذا القرآن و ما أسماه؟!؟.

خامسا: الزوجيّة منبثّة في كل شيء:.

كان الناس يعتقدون بأن الزوجيّة (الذكر و الأنثي) منبثّة بين النوعين (الإنسان و الحيوان) فقط، فجاء العلم الحديث فأثبت انها الزوجية توجد في النبات كذلك و في الجماد، و في كل ذرّة من ذرات الكون و الوجود، حتي الكهرباء ففيها (الموجب) و فيها (السالب) هذه فيها شحنة كهربائية موجبة، و تلك فيها شحنة كهربائية سالبة، و حتي الذرّة فيها (البروتون) و (النيترون) و كل منهما يشبه الذكر و الأنثي و هذا الاكتشاف سبق اليه القرآن العظيم في عديد من الآيات الكريمة استمع إلي هذه الروائع البينات ..

---

(1) حرجا: شديد الضيق.

(2) سورة الأنعام، الآية: 125.

التبيان في علوم القرآن، ص: 133

أ- وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ «1». فالعموم هنا واضح (و من كلّ شيء) ..

ب- أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَي الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ «2» (الإشارة هنا للنبات).

ج- سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ. وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ «3» ..

فهذه الآية الكريمة عمّمت الزوجية في النبات و الإنسان و في كل شيء مما نعلمه او لا نعلمه فسبحان الإله القدير العليم، الذي أحاط علمه بكل الأكوان و أحصي كل شيء عددا .. !

سادسا: أغشية الجنين:
ثبت علميا أن الجنين في بطن أمه محاط بثلاثة أغشية، و هذه الأغشية لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق، و تظهر بالعين المجرّدة كأنها غشاء واحد، و هذه الأغشية هي التي تسمي (الغشاء المنباري) و (الخوربون) و (اللفائفي) هذا ما أثبته الطبّ الحديث، و قد جاء القرآن الكريم مؤيدا هذه الحقيقة العلمية، و ذلك في سورة الزمر في قوله جلّ و علا:
يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ، ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ «4» ففي هذه الآية معجزة علمية للقرآن، فقد أخبر ان الجنين له ثلاثة أغشية أسماها (ظلمات) لأن الغشاء حاجز و حجاب يحجز عنه النور و الضياء، و هي في العلم الحديث ثلاثة أغشية.

---

(1) سورة الذاريات، الآية: 49.
(2) سورة الشعراء، الآية: 7.
(3) سورة يس، الآية: 36.
(4) سورة الزمر، الآية: 6.

سابعا: التلقيح بواسطة الرياح:

سابعا: التلقيح بواسطة الرياح:

أثبت العلم الحديث أن الهواء ينقل الأعضاء المذكّرة إلي المؤنثة في النخيل و التين و غيرها من الأشجار المثمرة فيكون التلقيح بواسطة الرياح «1» و الهواء، و هذه الناحية العلمية تحدّث عنها القرآن الكريم في قوله جلّ ثناؤه وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَ ما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ «2» و هذا سبق للقرآن في الحقائق العلمية الثابتة مما يدل علي صدق النبوّة.

ثامنا: الحيوان المنوي:
اكتشف الطب الحديث أن هذا السائل من منيّ الإنسان يحوي حيوانات صغيرة تسمي (الحيوانات المنوية) و هي لا تري بالعين المجرّدة، إنما تري (بالمكرسكوب) و كل حيوان منها له رأس و رقبة و ذيل يشبه دودة العلق في شكلها و رسمها، و أن هذا الحيوان يختلط بالبويضة الأنثوية فيلقحها، فإذا ما تمّ اللقاح انطبق عنق الرحم فلم يدخل شيء من بعده الي الرحم، و أمّا بقية الحيوانات فتموت، و هذه الناحية العلمية و هي أنّ الحيوان المنوي يشبه العلق في الشكل و الرسم فقد أثبتها القرآن، استمع الي قوله جلّ و علا: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ «3» فهذه الآية معجزة بليغة من معجزات القرآن لم يظهر وقت نزولها و لا بعده بمئات السنين إلي أن اكتشف المجهر المكبّر (المكرسكوب) و عرف كيف يتكون الإنسان بقدرة اللّه.

تاسعا: اختلاف بصمات الإنسان:

تاسعا: اختلاف بصمات الإنسان:
في القرن الماضي سنة 1884 م استعملت في انكلترا رسميا طريقة للتعرف علي

---

(1) يقول المستشرق المستر (أجنيري) الأستاذ في مدرسة (أكسفورد) في القرن الماضي: إن أصحاب الإبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار و الثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرنا، يشير بذلك إلي أن هذا مما سبق إليه القرآن و الفضل ما شهدت به الأعداء.
(2) سورة الحجر، الآية: 22.
(3) سورة العلق، الآيتان: 1 و 2
التبيان في علوم القرآن، ص: 135
الشخص بواسطة بصمات الأصابع، و أصبحت هذه الطريقة متبعة في جميع البلاد، ذلك لأن بشرة الأصابع مغطاة بخطوط دقيقة و علي عدّة أنواع (أقواس، عراو، دوامات) و هذه الخطوط لا تتغير مدي الحياة و جميع أعضاء الجسم تتشابه أحيانا و لكن الأصابع لها مميزات خاصة إذ انها لا تتشابه و لا تتقارب و هنا المعجزة الإلهية، فلما ذا اختار اللّه سبحانه بنان الإنسان في إقامة الدليل علي البعث أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ* بَلي قادِرِينَ عَلي أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ «1».

7- الوفاء بالوعد:
و من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم (الوفاء بالوعد) في كل ما أخبر عنه، و في كل ما وعد اللّه سبحانه عباده به، و هذا الوعد ينقسم إلي قسمين:
أ- وعد مطلق.
ب- وعد مقيّد.
فالوعد المطلق، كوعده بنصر رسوله، و إخراج الذين أخرجوه من وطنه، و نصر المؤمنين علي الكافرين، و قد تحقق ذلك كله إن شئت قوله جلّ و علا: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً* وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً «2» و قد تحقق هذا النصر بفتح مكة، و بدخول الناس في الإسلام أفواجا أفواجا، و بذلك تمت النعمة علي سيّد الأنام محمد صلّي اللّه عليه و سلم و أقر اللّه عينه بنصره علي أعدائه إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ* وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً «3». و صدق اللّه وعده بنصرته لأنبيائه و أوليائه إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ «4».

---

(1) سورة القيامة، الآية: 3، 4.
(2) سورة الفتح، الآيات: 1- 3.
(3) سورة النصر، الآيات: 1- 3.
(4) سورة غافر، الآية: 51.

و من الوعد المطلق قوله جلّ ثناؤه: وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ «1» و قد تحقق نصر المؤمنين في مواطن عديدة (في بدر، و أحد) و غيرهما من المعارك العظيمة التي شهدها تاريخ الإسلام، اقرأ قوله تعالي وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «2» و قوله جلّ و علا وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ «3». تحسّونهم: أي تقتلونهم قتلا ذريعا.
و من الوعد المطلق قوله سبحانه:
وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. «4» الآية. و قد تحقق الوعد فانتصر المؤمنون حتي فتحوا مشارق الأرض و مغاربها، و سارت جيوشهم حتي بلغت أقاصي المعمورة، و قد كان (أبو بكر) إذا أرسل جيوشه للغزو عرّفهم ما وعدهم اللّه ليتقوا بالصبر و يستيقنوا بالظفر. و من الوعد المطلق قوله سبحانه هُوَ

الّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدي وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَي الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفي بِاللّهِ شَهِيداً «5». أما الوعد المقيّد فهو ما كان فيه شرط، كشرط التقوي، و شرط الصبر، و شرط نصرة دين اللّه و ما شابه ذلك. قال تعالي إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ «6» و قال تعالي وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ «7» و قال تعالي وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً «8» و قد وعد اللّه المؤمنين بالنصر بشرط الصبر كما قال تعالي

---

(1) سورة الروم، الآية: 47.
(2) سورة آل عمران، الآية: 123.
(3) سورة آل عمران، الآية: 152.
(4) سورة النور، الآية: 55.
(5) سورة الفتح، الآية: 28.
(6) سورة محمد، الآية: 7.
(7) سورة الطلاق، الآية: 2.
(8) سورة الطلاق، الآية 4.

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَي الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ «1».

8- العلوم و المعارف:

8- العلوم و المعارف:
و من وجوه إعجاز القرآن هذه العلوم و المعارف التي زخر بها القرآن الكريم، و التي بلغت من نصاعة البرهان و قوة الحجّة مبلغا يستحيل علي محمد- و هو رجل أمي نشأ بين الأميّين- ان يأتي بها من عند نفسه، بل يستحيل علي أهل الأرض جميعا من أدباء و علماء، و فلاسفة و حكماء، و من مشرعين و عباقرة، أن يأتوا بمثل هذه العلوم و المعارف، و في هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن حجة دامغة، و برهان ساطع، يقصم ظهر كلّ أفّاك معاند، يزعم أن ما جاء به محمد إن هو إلا (تعاليم الكتب السابقة) استمدّها محمد من بعض أهل الكتاب في عصره ثم نسبها إلي ربه ليستمدّ من هذه النسبة قدسيتها كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً «2». و نحن نقول لهؤلاء العمي: كيف يكون القرآن نسخة عن الكتب السابقة، و قد جاء منكرا علي أهلها، مخالفا لأكثرها، بل جاء مبطلا و هادما لأصول أفكارها و عقائدها بسبب ما دخل فيها من تحريف و تبديل؟! و كيف يمكن أن تتفق عقيدة (التوحيد) مع عقيدة (التثليث) و بينهما كما بين السماء و الأرض؟! أ لم يسمعوا الحكم القاطع الجازم فيهم بأنهم كفرة فجرة يعبدون احبارهم و رهبانهم من دون اللّه؟
وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ، وَ قالَتِ النَّصاري الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ «3» قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ، قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّي يُؤْفَكُونَ* اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ «4».

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 65.
(2) سورة الكهف، الآية: 5.
(3) يضاهئون: أي يشابهون و يماثلون، و المضاهاة: المشابهة.
(4) سورة التوبة، الآيتان: 30، 31.

التبيان في علوم القرآن، ص: 138

جاء القرآن بالعلوم المتنوعة، و المعارف المتعدّدة، في العقائد، و العبادات و التشريع و التنظيم، و في الأخلاق و المعاملات، و في حقوق شتي، في التربية، و التعليم، و في السياسة و الاقتصاد، و في الفلسفة و الاجتماع، و كذلك في القصص و الأخبار، و في أصول المناظرة و الجدل. و لا شك أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز، فكيف يستطيع رجل أمّي، لم يقرأ و لم يكتب و لا نشأ في بلد علم و تشريع، و لا في مدينة ذات حضارة و مدنيّة أن يأتي بمثل ما في القرآن من هذه العلوم و المعارف تحقيقا و كمالا، مؤيدا

بالحجج و البراهين بعد أن قضي معظم حياته لا يعرف شيئا عنها، و لم ينطق بقاعدة او أصل منها، و لا حكم بفرع من فروعها إلا ان يكون ذلك وحيا من اللّه تعالي؟! و أحب أن أقتصر هنا علي مثل من هذه العلوم المتنوعة العديدة، و هو بحث (العقيدة في القرآن) و أن أقارن بين تعاليم الإسلام، و تعاليم اليهودية و النصرانية علي عهد نزوله، ليتبين الصبح لذي عينين، و نظهر ضياء الحق الساطع، و نوره الباهر و كما قيل:

(و بضدّها تتميّز الأشياء).

العقيدة الإسلامية:
جاء القرآن بعقيدة سمحة صافية، بيضاء نقيّة، في ذات اللّه تبارك و تعالي، و في حق رسله الكرام، فاللّه رب العالمين واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد و لا ولد، له جميع صفات الكمال، و منزّه عن جميع صفات النقص: (لا ذاته تشبهها الذوات: و لا حكت صفاته الصفات) لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «1» و هو جلّ و علا قيّوم، لا تأخذه سنة و لا نوم، و لا يشغله شأن عن شأن لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّري «2» .. هو الخالق المتفرد بالخلق و الايجاد، و بيده ناصية العباد، يضل من يشاء و يهدي من يشاء، و هو علي كل شيء قدير، الكلّ خلقه و الجميع عبيده إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً «3» اقرأ إن شئت هذه الآيات الرائعة في صفات اللّه عزّ و جل:

---

(1) سورة الشوري، الآية: 11.
(2) سورة طه، الآية: 6.
(3) سورة مريم، الآية: 93.
التبيان في علوم القرآن، ص: 139
1- إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ* رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ «1».
2- إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً «2».
3- قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْني، وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَ لا تُخافِتْ بِها وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا* وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً «3».
4- يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَي اللَّهِ، وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ* إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ* وَ ما ذلِكَ عَلَي اللَّهِ بِعَزِيزٍ «4».

العقيدة اليهودية:
و ضل اليهود بعد موسي فعبدوا بعلا، و زعموا أن للّه ابنا هو العزيز و شبهوا اللّه بالإنسان فزعموا انه تعب من خلق السموات و الأرض فاستراح يوم السبت و استلقي علي قفاه، و ركبوا رءوسهم فقالوا إنه- جلّ و علا- ظهر في صورة إنسان و صارع اسرائيل فلم يستطع أن يغلبه و لم يتخلص منه الرب حتي باركه و ذريته فأطلقه عند ذلك يعقوب، و ادعوا انهم الشعب المختار من بين الشعوب، و أنهم ابناء اللّه و أحباؤه، و أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، و ان النار لن تمسّهم إلا أياما معدودة، هي مدة عبادتهم العجل أربعين يوما، كما افتروا علي السيد المسيح (عيسي) فزعموا أنه ابن زني، و أن أمه زانية، و أنهم صلبوه ليطهّروا بني اسرائيل من هذه الجريمة الشنيعة، كلّ هذا و أمثاله كثير من أباطيل و اضاليل اليهود، جاء القرآن هادما لها، و جريا

---

(1) سورة الصافات، الآية: 4، 5.
(2) سورة طه، الآية: 98.
(3) سورة الإسراء، الآيتان: 110، 111.
(4) سورة فاطر، الآيات: 15- 17.

عليها، فكيف يزعمون أن القرآن نسخة عن التوراة؟

العقيدة النصرانية:
و ضل النصاري فزعموا ان للّه ولدا، و ذهبوا الي عقيدة معقدة من الايمان بالتثليث (الأب، و الابن، و روح القدس) و سمّوها بالأقانيم، فعيسي هو (الاقنوم) الثاني من الثالوث الإلهي الذي هو عين الأول و الثالث، و كل منهما عين الآخر، الثلاثة واحد، و الواحد ثلاثة، و خلعوا علي رجال كهنوتهم ما هو حق للّه وحده من التشريع و التحليل و التحريم، و زعموا أن (ابن الإله) صلب ليخلص الإنسان من خطيئته و يطهّره من أوزاره، و الأعجب من هذا أن كثيرين منهم يعتقدون بأن (عيسي بن مريم) هو اللّه نزل الي الأرض بصورة بشر، إلي غير ذلك من الأباطيل و المخازي التي نسبوها إلي اللّه تعالي تَعالي عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً «1».
فانظر مدي البون الشاسع بين الحق الذي جاء به القرآن، و بين الباطل الذي جاء به هؤلاء و هؤلاء علي أن القرآن الكريم لم يكتف بسرد هذه الأباطيل و الإخبار بها عن تحريف أهل الكتاب، بل ردّ علي أولئك ببراهينه الساطعة، و أدلّته القاطعة، استمع إليه و هو يقول عن أهل الكتاب (النصاري) يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ، وَ لا تَقُولُوا عَلَي اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَي ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلي مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ، وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ، انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ، سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كَفي بِاللَّهِ وَكِيلًا* لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً «2».
و استمع اليه و هو يتكلم عن أهل الكتاب (اليهود) فيقول:

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 43.
(2) سورة النساء، الآيتان: 171، 172.

فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ، وَ كُفْرِهِمْ بِآياتِ اللَّهِ، وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا* وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلي مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً* وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَي ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ، وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ، ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ، وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً* بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً «1». و لقد صرح القرآن بالتحريف الذي وقع عند أهل الكتاب في (التوراة و الانجيل) و بيّن ان مهمة الرسول إنما هي في تصحيح ما ارتكبه أهل الكتاب من الكذب و البهتان، و في كشف ما

أخفوه من آياتِ اللّه في التوراة و الانجيل يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ. قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ، وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَي النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلي صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ «2».
فهل بعد هذا البرهان من حجة أوضح علي صدق سيد المرسلين و يرحم اللّه (البوصيري) حيث يقول:
(كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية و التأديب في اليتم)

9- وفاؤه بحاجات البشر:

و هذا الوجه من وجوه الإعجاز ظاهر جلي، يدركه كل متأمل في شريعة الإسلام، فقد جاء القرآن الكريم بهدايات تامة كاملة، شاملة واسعة، تفي بحاجات البشر في كل زمان و مكان و يتجلي ذلك اذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمي إليها القرآن في هدايته و ارشاده و هي بإيجاز: 1- اصلاح الافراد 2- اصلاح المجتمعات 3- إصلاح العقائد 4- إصلاح العبادات 5- إصلاح الاخلاق 6- إصلاح الحكم و السياسة 7- اصلاح الشئون المالية 8- اصلاح الشئون الحربية 9- اصلاح

---

(1) سورة النساء، الآيات: 155- 158.

(2) سورة المائدة، الآية: 15، 16.

التبيان في علوم القرآن، ص: 142

الثقافة العلمية 10- تحرير العقول و الأفكار من الخرافات. و لقد احسن من قال:

شريعة اللّه للإنسان تبيان و كل شيء سوي القرآن خسران «1»

10- تأثير القرآن في القلوب:

و من وجوه إعجاز القرآن ذلك التأثير البالغ الذي أحدثه في قلوب أتباعه و أعدائه، حتي لقد بلغ من شدة التأثير ان المشركين أنفسهم كانوا يخرجون في جنح الليل يستمعون إلي تلاوة القرآن من المسلمين، و حتي تواصوا فيما بينهم الا يستمعوا الي القرآن، و ان يرفعوا أصواتهم بالضجيج حينما يتلوه محمد لئلا يؤمن به الناس وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ «2».

و لقد بلغ من تأثير القرآن في القلوب ان يفيء الي ظلاله أشد الناس عداوة له، و أعظمهم عنادا، فيسلم كثير من هؤلاء الزعماء، و علي رأسهم (عمر بن الخطاب) و (سعد بن معاذ) و (أسيد بن حضير) و غيرهم من القادة و الرؤساء، هذا هو عمر بن الخطاب الذي يبلغ من شدة قسوته علي المسلمين أن يقول فيه أحدهم (و اللّه لن يسلم حتي يسلم حمار الخطاب) و الذي يبلغ من شدة عدائه ان يتقلد سيفه بالظهيرة ثم يخرج ليفتش عن محمد صلّي اللّه عليه و سلم ليقتله ثم لا يأتي المساء إلا و قد رجع معتنقا للإسلام بسبب بضع آيات سمعها في بيت اخته من (سعيد بن زيد) و القصة مشهورة و تأمل كيف أسلم (سعد بن معاذ) سيد قبيلة (الخزرج) هو و ابن أخيه (أسيد بن حضير). تروي كتب السيرة ان رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم حين كان في مكة جاءه وفد المدينة الذين بايعوه بيعة العقبة فأرسل معهم مبعوثين جليلين يعلّمانهم الإسلام و القرآن و هما (مصعب بن عمير) و (عبد اللّه بن أم مكتوم)، فلما وصلا المدينة أخذا يعلمان الناس القرآن، فبلغ ذلك (سعد بن معاذ) سيد القبيلة فقال لابن اخيه (أسيد بن حضير) أ لا تذهب إلي هذين الرجلين، اللذين جاءا يسفّهان ضعفاءنا فتنهاهما و تزجرهما عن هذا الضيع؟ فسار إليهما

---

(1) من قصيدة للأستاذ وليد الاعظمي.

(2) سورة فصلت، الآية: 26.

(أسيد) فلما انتهي إليهما قال لهما: ما جاء بكما جئتما تسفّهان ضعفاءنا؟ ثم توعّدهما و هدّدهما فقال: اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة؟ فقال له (مصعب) رضي اللّه عنه: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته و إن كرهته كففنا عنك ما تكره، فجلس أسيد و جعل مصعب يقرأ و هو يسمع، فما انتهي من مجلسه حتي أسلم، ثم كرّ راجعا إلي سعد فقال له، و اللّه ما رأيت بالرجلين بأسا، و أخفي أمامه إسلامه، فغضب (سعد) و قام بنفسه

ثائرا مهتاجا، فقال لهما: ما جاء بكما أ جئتما تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته منا و إن كرهته كففنا عنك ما تكره، فقال أنصفتما، فجعل مصعب يتلو القرآن عليه و سعد يستمع، يقول (مصعب): و اللّه لقد كان وجه سعد يشرق بالإيمان و هو يستمع القرآن فما انتهي مصعب من القراءة حتي أعلن سيد الأوس إيمانه، ثم كرّ راجعا فجمع قبيلته و قال لهم:

كيف تعدونني فيكم؟ قالوا: سيدنا و ابن سيدنا، فقال لهم سعد: كلام رجالكم و نسائكم عليّ حرام حتي تسلموا بمحمد، فدخلوا جميعا في الإسلام .. رضي اللّه عن سعد و أرضاه!! هكذا كان تأثير القرآن في قلوب الأولياء و الأعداء، و لا تنس قصة (الوليد بن المغيرة) و (عتبة بن ربيعة) و غيرهما ممن تأثروا بالقرآن، و لو لا حبّ الزعامة، و لو لا حبّ الجاه و السلطان لدخلوا جميعا في دين اللّه، و لكنّ الهداية بيد اللّه يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ «1» وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ «2».

ذكر صاحب تفسير المنار أن فيلسوفا من فلاسفة فرنسا ألف كتابا ردّ فيه ما زعمه دعاة النصرانية من أن محمدا صلّي اللّه عليه و سلم لم يأت بمثل آيات (موسي و عيسي) عليهما السلام، و لم يكن له من الآيات الخوارق ما كان لمن قبله فقال ذلك الفيلسوف: إنّ محمدا كان يقرأ القرآن خاشعا مولها مدّلها، صادعا و متضرعا فيفعل في جذب القلوب إلي الإيمان به فوق ما كانت تفعله جميع آيات الأنبياء السابقين» انظر تفسير المنار.

---

(1) سورة النحل، الآية: 93.

(2) سورة النحل، الآية: 125.

التبيان في علوم القرآن، ص: 144

و ذكر الرافعي، كلمة قيّمة في كتابه (إعجاز القرآن) هذه الكلمة نقلها عن الامير شكيب ارسلان: «أن (لوثير) و (كلفين) المصلحين المعروفين في التاريخ المسيحي، ذكرا مرّة امام (فولتير) فيلسوف فرنسا فقال: إنهما لا يليقان حذاءين لنعال محمد صلّي اللّه عليه و سلم».

11- سلامته من التناقض:

11- سلامته من التناقض:

و أخيرا فإن من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم سلامته من التناقض و التعارض خلافا لجميع كلام البشر و صدق اللّه حيث يقول وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «1». هذه بعض وجوه الإعجاز في القرآن و هناك وجوه أخري ضربنا عنها صفحا خشية التطويل، و لا يزال الزمن يكشف عن أسرار إعجاز القرآن، فكلما تقدّم الزمن تجلّت نواح من نواحي إعجازه، و قام البرهان القاطع أنه تنزيل الحكيم الحميد، و مع ذلك فإن هذه الأسرار التي ذكرها العلماء إن هي إلا قطرة من بحر علوم القرآن، و مهما اتسع القول و عظم البيان، فإن كلام اللّه تعالي لا يحيط به أحد، كما لا يحيط أحد بعظمة ذاته، و جليل صفاته !!

دفع شبهة القول بالصرفة:
و إذ قد انتهينا من وجوه إعجاز القرآن الكريم نري لزاما علينا أن ندفع تلك الشبهة التي ذهب إليها بعض المعتزلة و بعض الشيعة و هي (شبهة القول بالصّرفة) و خلاصتها: أن اللّه عزّ و جلّ صرف العرب عن معارضته علي حين أنه لم يتجاوز في بلاغته المستوي الذي يعجز عنه البشر، و لو لا أن اللّه صرف هممهم عن معارضته لاستطاعوا أن يأتوا بمثله .. الخ. فأنت تري أصحاب هذا القول يذهبون إلي ان القرآن ليس معجزا و إنما كان إعجازه بسبب أمرين:
الاول: الصارف الإلهي الذي زهدهم في المعارضة، فكسلوا و قعدوا،.
الثاني: العارض المفاجئ الذي عطّل مواهبهم البيانية و قدرتهم البلاغية.

---

(1) سورة النساء، الآية: 82.

التبيان في علوم القرآن، ص: 145

و هذا القول- بشقّيه- باطل، لا بثبت أمام البحث، و لا يتفق مع الواقع و ذلك لعدة أسباب:
أولا: لو كان هذا القول صحيحا لكان الإعجاز في (الصّرفة) لا في القرآن نفسه و هذا باطل بالإجماع.
ثانيا: لو صحّ القول بالصّرفة لكان ذلك (تعجيزا) لا (إعجازا) لأنه حينئذ يشبه ما لو قطعنا لسان إنسان ثمّ كلفناه بعد ذلك بالكلام، فهذا ليس من باب العجز و إنما هو من باب التعجيز.
(ألقاه في اليمّ مكتوفا و قال له إيّاك إيّاك أن تبتلّ بالماء)
ثالثا: لو كان هناك صارف زهّدهم في المعارضة من (كسل أو ملل) لما وقفوا في وجه نبيّ الإسلام، و لما آذوه و أصحابه، و لما عذّبوا المسلمين و شرّدوهم، و لما قاطعوا الرسول و عشيرته و حاصروهم في الشّعب حتي أكلوا ورق الشجر، و لما فاوضوه و ساوموه علي أن يترك الدعوة ثم اضطروه الي الهجرة هو و أصحابه الكرام، إلي غير ما هناك من دوافع و بواعث جعلتهم يسلكون كل سبيل للقضاء علي الإسلام.
رابعا: لو كان هناك عارض مفاجئ عطّل مواهبهم البيانية لأعلنوا ذلك في الناس، ليلتمسوا العذر لأنفسهم، و بالتالي ليقللوا من شأن القرآن، و لكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة و بلاغة منهم قبل نزوله، و هذا باطل واضح البطلان.
خامسا: لو كان هذا العارض المفاجئ صحيحا لأمكننا نحن الآن، و أمكن المشتغلين بالأدب العربي في كل عصر أن يعارضوا القرآن، و أن يتبينوا

الكذب في دعوي إعجازه. و كل هذه الأشياء باطلة فهل يرضي عاقل لنفسه ان يقول بعد ذلك كله: إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن و نبيّ القرآن، و أنهم كانوا مخلدين الي العجز و الكسل زاهدين في النزول لذلك الميدان؟! و هل يصح لإنسان يحترم نفسه و عقله أن يصدّق بمثل هذا الافتراء القول بتعطيل المواهب و الحواس) بعد أن يستمع الي شهادة ألدّ الأعداء من صناديد قريش و هو (الوليد بن المغيرة) حين قال كلمته المشهورة .. (و اللّه لقد سمعت آنفا كلاما ليس من كلام بشر ليس بشعر و لا نثر و لا

كهانة، و اللّه إن له لحلاوة، و إن عليه لطلاوة، و إن أعلاه لمثمر، و إن اسفله لمغدق، و إنه ليعلو و ما يعلي) و الفضل ما شهدت به الأعداء.

و أختم هذه الكلمة بما ذكره العلّامة القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) حيث قال: (فهذه عشرة وجوه ذكرها علماؤنا رحمهم اللّه في إعجاز القرآن)، و هناك قول آخر ذكره النظّام: أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته، و الصّرفة عند التحدي بمثله، و ان المنع و الصّرفة هو المعجزة دون ذات القرآن، و ذلك أن اللّه تعالي صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله، و هذا فاسد، لأن اجماع الأمة أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا إن المنع و الصرفة هو المعجز لخرج القرآن ان يكون معجزا «1» .. انتهي .. و الصحيح ان الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، و يظهر لك قصور البشر في عجزهم عن الإتيان بمثل سورة من أقصر سور القرآن مع التحدّي اللاذع.

هل حاول أحد معارضة القرآن؟

أجمع رواة التاريخ و الآثار، علي ان اساطين البلغاء، و فحول الشعراء من مشركي العرب لم تحدثهم أنفسهم بمعارضة القرآن، و لم ينقل عن أحد منهم أنه حاول ان يأتي بمعارضة للقرآن، مع شدة حرصهم علي صدّ الناس عن الإسلام، و التكذيب برسالة محمد عليه الصلاة و السلام .. و لكن نقل عن بعض السفهاء الحمقي، انهم حاولوا معارضة القرآن، فكان ما أتوا به لا يخرج عن أن يكون محاولات مضحكة، أخجلتهم امام البشر، و جعلتهم اضحوكة لدي العقلاء، فباءوا بغضب من اللّه و سخط من الناس، و كان مصرعهم هذا كسبا جديدا للحق، و برهانا ناصعا علي أن القرآن كلام اللّه الذي لا يستطيع معارضته إنسان فمن أولئك:

أ- (مسيلمة الكذّاب) الذي ادّعي النبوة، و زعم انه شريك لرسول اللّه في شأن النبوة و قد كتب إليه في السنة العاشرة للهجرة يقول: (اما بعد، فإني قد شوركت في

---

(1) أنظر تفسير القرطبي: ج 1 ص 75.

التبيان في علوم القرآن، ص: 147

الأرض معك، و إنما لنا نصف الأرض، و لقريش نصفها، لكن قريشا قوم يعتدون .. !)

و قد زعم (مسيلمة) أن له قرآنا نزل عليه من السماء، و يأتيه به ملك يسمي (رحمن)، و ها نحن ننقل طائفة من أقواله و هذيانه، ليظهر كذب هذا الأحمق الدجّال، و يتّضح امره، فكفاه ذلك الوصف أنه كذاب.

قال أخزاه اللّه معارضا سورة العاديات:
(و الطاحنات طحنا، و العاجنات عجنا، و الخابزات خبزا، و الثاردات ثردا.
و اللاقمات لقما، إهالة و سمنا .. لقد فضلتم علي أهل الوبر، و ما سبقكم أهل المدر ..
ريفكم فامنعوه، و المقبر فآووه! و الباغي فناوئوه). و قال: (و الشاء و ألوانها، و أعجبها السود و ألبانها، و الشاة السوداء، و اللبن الأبيض، إنه لعجب محض، و قد حرم المذق فما لكم لا تمجعون).
و من قرآنه المفتري: (الفيل ما الفيل، و ما ادراك ما الفيل، له ذنب و بيل، و خرطوم طويل ...) الخ. و قوله (يا ضفدع بنت ضفدعين، نقّي ما تنقّين، نصفك في الماء و نصفك في الطين، لا الماء تكدرين، و لا الشارب تمنعين).
و قد زعم انه عارض سورة الكوثر فخرج إلي الناس بهذا الهذيان:
(إن أعطيناك الجماهر، فصل لربك و جاهر، إن شانئك هو الكافر).
و كل كلامه علي هذا النمط واه سخيف لا ينهض و لا يتماسك، و أنت خبير بأن مثل ذلك الإسفاف ليس من المعارضة في قليل و لا كثير، يقول (الرافعي) رحمه اللّه: إن مسيلمة لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية (الصناعة البيانية) و إنما اراد أن يأخذ سبيله الي استهواء قومه من ناحية اخري ظنها اهون عليه و أقرب تأثيرا في نفوسهم، و ذلك أنه رأي العرب تعظّم الكهّان في الجاهلية، و كانت عامة أساليب الكهّان من هذا السجع القلق، الذي يزعمون انه من كلام الجن كقولهم: (يا جليح، امر نجيح، رجل فصيح، يقول لا إله إلا اللّه) فجعل يسجع ليوهم أنه يوحي إليه، علي أنه لم يفلح في هذه الحيلة إذ كان أشياعه يعرفونه بالكذب و الحماقة، و يقولون: إنه لم يكن في تعاطيه

الكهانة حاذقا، و لا في دعوي النبوة صادقا، و إنما كان أتباعهم إياه علي حد قول قائلهم: كذّاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر ..).
ب- و منهم (الاسود العنسي) ادّعي النبوة في اليمن، و كان يزعم ان الوحي ينزل عليه فيخفض رأسه الي الأرض ثم يرفعه فيقول: قال لي كذا و كذا- يعني شيطانه- الذي يوحي إليه، و كان جبارا و لكنه كان فصيحا معروفا بالكهانة و السجع و الخطابة و الشعر و النسب، و لم يذكر أنه حاول المعارضة للقرآن و إنما اكتفي بدعوي النبوة و بنزول الوحي عليه وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلي أَوْلِيائِهِمْ «1».
ج- و منهم (طليحة بن خويلد الأسدي) ادّعي النبوة، و كان يزعم ان (ذا النون) يأتيه بالوحي و لكنه لم يدّع لنفسه قرآنا لأن قومه كانوا من الفصحاء،

و لكنهم تابعوه عصبيّة و طلبا للجاه و الشهرة، و قد ذكر صاحب (معجم البلدان) أن له كلاما كان يزعم أنه نزل عليه بالوحي و لم يظفر من كلامه إلا علي هذه المقالة (إن اللّه لا يصنع بتعفير وجوهكم، و قبح أدباركم شيئا، فاذكروا اللّه قياما، فإن الرغوة فوق الصريح) يريد لا تركعوا و لا تسجدوا و اكتفوا بالصلاة قياما و بذكر اللّه في حالة القيام، و قد أرسل له أبو بكر جيشا بقيادة خالد بن الوليد فلما التقي الجمعان، قتل عدد كبير من أتباعه، و تزمّل هو بكساء ينتظر الوحي، فقال له (عيينة) هل أتاك بعد؟ فقال و هو من تحت الكساء، لا و اللّه ما جاء بعد، فقال له عيينة: لقد تركك أحوج ما كنت إليه، ثم قال: يا بني فزارة هذا كذّاب ما بورك لنا و له فيما يطلب، ثم انهزم طليحة و لحق بنواحي الشام، و يقال أنه أسلم بعد ذلك و كان له في القادسية بلاء حسن.

د- و منهم (النضر بن الحارث) و هو من صناديد قريش، و رؤساء الكفر و الضلالة، و هو لم يدّع النبوّة و لا الوحي و لكنه زعم أنه يعارض القرآن، فلفّق أخبارا من حوادث الفرس و ملوك العجم، و كان يجلس إلي قريش فيحدّثهم بهذه الأساطير ثم يقول لهم: هذا خير مما أنزل علي محمد.

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 121.

التبيان في علوم القرآن، ص: 149

ه- و يروي أن (أبا العلاء المعرّي) و (المتنبي) و (ابن المقفع) حاولوا معارضة القرآن و لكنهم ما كادوا يبدءون هذه المحاولة حتي خجلوا و استحيوا فكسروا الأقلام و مزّقوا الصحف، و قد ذكرنا فيما مضي محاولة (ابن المقفع) و أنه بعد أن عزم علي المعارضة و بدأ بها فعلا، سمع صبيا يقرأ قوله تعالي: وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي، وَ غِيضَ الْماءُ، وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَي الْجُودِيِّ، وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «1» فمزق ما جمع و استحيا من إظهاره أمام الناس بعد أن قال قولته المشهورة: هذا و اللّه ما يستطيع البشر أن يأتوا بمثله. و هذه القصة عن (ابن المقفع) يذكرها (الرافعي) عليه رحمة اللّه ثم يعقب عليها بقوله:

«إن ابن المقفع من أبصر الناس باستحالة المعارضة، لا لشيء من الأشياء إلا لأنه من أبلغ الناس و إذا قيل لك: إن فلانا يزعم إمكان المعارضة و يحتج لذلك و ينازع فيه، فاعلم أنّ فلانا في الصناعة أحد رجلين اثنين: إمّا جاهل يصدق في نفسه، و إما عالم يكذب علي الناس، و لن يكون ثالث ثلاثة» «2» فالرافعي ينكر صحة هذه الرواية عن (ابن المقفع) كما ينكرها علي (المعرّي فكلاهما في نظره باطل و افتراء عليهما.

و- و تحدثنا الأيام القريبة أن زعماء (البهائية و القاديانية) وضعوا كتبا يزعمون أنهم يعارضون بها القرآن ثم خافوا أو خجلوا أن يظهروها أمام

الناس، فأخفوها علي أمل أن يأتي الوقت المناسب فيخرجوها بعد أن يكثر الجهل و يطيش العقل.

شبهات حول إعجاز القرآن و الرد عليها:

الشبهة الأولي: يقول أعداء الإسلام في معرض الطعن في القرآن، و في نبيّ القرآن:

إنّ محمدا صلّي اللّه عليه و سلم قد تلقي هذا القرآن من (بحيرا الراهب) و نسبه إلي اللّه عزّ و جل ليوهم البشر قدسيته. و الجواب: أن هذه فرية ما فيها مرية، و هؤلاء الخبثاء من الصليبيّين و أعوانهم من الملاحدة، إنّما يروّجون مثل هذه الأباطيل ليشوّشوا علي

---

(1) سورة هود، الآية: 44.

(2) أنظر اعجاز القرآن للرافعي.

التبيان في علوم القرآن، ص: 150

المثقفين من أبناء المسلمين دينهم و يفسدوا عليهم عقائدهم بأمثال هذه الشبهات الافتراءات، و هذه الشبهة باطلة لعدة أمور:

أولا: ان الرسول لم يثبت عنه أنه سافر إلي الشام إلّا مرتين: مرّة في صغره مع عمه (أبي طالب) و مرة في شبابه مع (ميسرة) غلام السيدة خديجة، و لم يحدثنا التاريخ إنه سمع من (بحيرا) أو تلقّي عنه درسا واحدا، و إنما غاية الأمر أن (بحيرا الراهب) رأي سحابة تظلّل الرسول، فحدّث عمّه بأنّ هذا الغلام سيكون له شأن، ثمّ طلب منه أن يعيده إلي مكة خوفا عليه من اليهود، ثم هل يعقل و الرسول في سن الصغر أن يتلقي هذه العلوم و المعارف؟ أو يأتي بمثل هذا القرآن المعجز و هو لم يتجاوز بعد سن العاشرة؟ و في المرة الثانية كان غرضه التجارة و لم يثبت أنه التقي بأحد من الرهبان في هذه السفرة، فمن أين لهم هذا البهتان و الافتراء؟!.

ثانيا: من المستحيل عقلا علي أي إنسان أن يصبح في هذه المرتبة (أستاذ العالم) لمجرد مصادفته لراهب من الرهبان مرتين مع أنه كان في الأولي صغيرا و في الثانية تاجرا، و أن يأتي بهذا الكتاب المعجز و هو أمّي لمجرّد التقائه بأحد الرهبان مرة أو مرتين.

ثالثا: لو كان هذا الراهب المسمي (بحيرا) هو مصدر هذا القرآن، لكان هو الأحري بالنبوءة و الرسالة، أو لكانت عبقريته تفوق عباقرة الدنيا، لأنه أتي بكلام أعجز فيه الأولين و الآخرين.

رابعا: نقول إن المشركين من كفّار قريش كانوا أعقل و أسلم تفكيرا من هؤلاء المجانين لأنهم- مع شدة حرصهم علي تكذيب الرسول و تبهيته- لم يقبلوا علي أنفسهم مثل هذا الكذب الرخيص، و لم يفكّروا أن يقولوا إنه تعلّم من (بحيرا الراهب) لمجرد الالتقاء به مرتين لأن العقل لا يستسيغ ذلك.

الشبهة الثانية: يقولون هذا القرآن من تعليم (جبر الرومي) تعلّم منه الرسول في مكة .. الخ. و الجواب أن هذه الشبهة قد تولي اللّه عزّ و جل الردّ عليها بأبلغ حجة

و أنصع بيان فقال عزّ من قائل: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ «1». فهذا الرجل الذين ينسبون إليه تعليم محمد صلّي اللّه عليه و سلم هو رومي أعجمي لا يعرف اللسان العربيّ فكيف يعلمه القرآن؟

و قد كان (جبر) هذا حدّدا يمتهن الحدادة، و قد أسلم، فكان النبي صلّي اللّه عليه و سلم كثيرا ما يمر عليه فيجلس عنده، فقال المشركون: وا صلّي اللّه عليه و سلم ما يعلّم محمدا هذا القرآن إلا جبر الرومي، و كان سيّده يضربه و يقول له: أنت تعلّم محمدا، فيقول: لا و اللّه، بل هو يعلمني و يهديني .. و من الغريب أنّ هذه التّهمة قد لاقت استحسانا عند بعض الأفراد مع أنها في منتهي الغرابة و الهزل، إذ كيف يكون الأستاذ عبدا حدادا أعجميا، لا يفقه شيئا من اللغة العربية ثم يعلّم الرسول لغة الضاد!! و هل من المعقول أن يكون هذا الرومي الأعجمي مصدرا لهذا القرآن الذي هو أبلغ نصوص العربية، بل هو معجزة المعجزات و مفخرة العرب و اللغة العربية!! و لهذا كان ردّ القرآن مفحما و قاطعا لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ.

الشبهة الثالثة: إن محمدا عبقريّة فذّة، و هذه العبقرية الخارقة، لما ذا لا يمكن أن تكون هي منبع هذه الأخبار، و أن يكون هذا القرآن من تأليف محمد و ترتيبه لأنه ذو شخصية رائعة؟!.

و الجواب: إن هذا الكلام إنما يصدر عن جاهل لا يعرف شيئا عن حياة النبي صلّي اللّه عليه و سلم و لا عن تاريخ عشيرته و قومه، فالرسول صلّي اللّه عليه و سلم عاش أربعين سنة بين قومه و هو يشار إليه بالبنان، في صدقه و أمانته و نبله و فضله، حتي كان المشركون يلقبونه ب (الصادق الأمين) فهل يعقل بعد هذه الحياة الشريفة الطاهرة، أن يأتي بأعظم بهتان فيزعم أن هذا القرآن من عند اللّه، و أنه رسول اللّه؟! و بداية الإنسان تدل علي نهايته فكيف يتفق هذا مع تاريخ الرسول الشريف الطاهر، و حياته الفاضلة العطرة، و حين سأل (هرقل) ملك الروم أبا سفيان عن رسول اللّه. هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ أجابه أبو سفيان بقوله: لا، بل هو عندنا الصادق الأمين، فقال له

---

(1) سورة النحل، الآية: 103.

هرقل: لم يكن ليدع الكذب علي الناس و يكذب علي اللّه. و من ناحية ثانية

فقد ثبت في التاريخ ثبوتا قاطعا أن محمدا صلّي اللّه عليه و سلم كان أميا لا يعرف القراءة و الكتابة، و قد أكّد هذا القرآن بقوله عزّ من قائل وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ «1» فمن أين لرسول اللّه معرفة أخبار الأولين من الأنبياء و المرسلين؟ و من أين له معرفة دقائق التاريخ و أحوال الأمم الغابرة و أنباء من سبق من البشر علي وجه الدقة و التفصيل، و هو بعد لم يقرأ كتابا، و لم يدرس علما، و لم يتلق هذه الأنباء عن أحد من علماء أهل الكتاب؟!.

ثم مهما كانت عبقرية الإنسان فذّة، و نبوغه عظيما، و ذكاؤه وافرا فمن أين له معرفة أمور الغيب، و أحوال المستقبل، و هل يمكن لبشر مهما سما أن يخبر عن الغيب بحيث لا يشذ عن أخباره واحدة من هذه المغيّبات إلا أن يكون رسولا صادقا يوحي إليه من عند اللّه؟! إن العقل ليجزم بأن هذا ليس في طوق البشر، و مهما بلغت العبقرية من النبوغ و الذكاء، و مهما كانت الشخصية قوية و مثالية، فلن تستطيع أن تخرق أستار الغيب أو تخبر بما ليس في مقدورها و صدق اللّه كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً .. «2».

الشبهة الرابعة: يقولون: إن عجز البشر عن الإتيان بمثل هذا القرآن لا يدلّ علي أنه كلام اللّه، و ما هذا إلّا كمثل عجزهم عن الإتيان بمثل (الكلام النبوي) فهل يكون كلام الرسول من عند اللّه؟ أو يقال إنه كلام اللّه؟.

و الجواب: أن الحديث النبوي إن عجز عامة الناس عن الإتيان بمثله فلن يعجز أحد الخاصة عن الإتيان بمثل بعضه، و لو بمقدار حديث واحد أو سطر واحد من كلامه، و كلام الرسول صلّي اللّه عليه و سلم و إن كان في الذروة العليا من الفصاحة و البلاغة إلا أنه لا يخرج عن كونه كلام بشر، و قد يشتبه كلام البشر بعضهم مع بعض، حتي لنجد تشابها بين كلام النبوّة و كلام بعض الخواص من الصحابة و نسمع الحديث فيشتبه علينا أمره:

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 48.

(2) سورة طه، الآية: 99.

أ هو مرفوع ينتهي إلي النبي صلّي اللّه عليه و سلم؟ أم هو موقوف عند الصحابي أي من كلامه؟ أم مقطوع عند التابعي؟ و لا نستطيع أن نميّز حتي يرشدنا السند إلي عين قائله. و من أوتي حدسه بيانية يدرك هذا الشبه كثيرا، و قد يلتبس علينا الأمر حين نسمع كلاما رائعا بليغا لأحد الفصحاء فنظنه من كلام الرسول صلّي اللّه عليه و سلم، فإذا قد يكون هناك بعض الشبه بين كلام أفصح من نطق بالضاد و بين كلام بعض النبغاء، و استمع مثلا إلي هذه الجملة الرائعة (المعدة بيت الداء، و الحمية رأس كل دواء، و عوّدوا كل جسم ما اعتادِ) فإنّ الإنسان إذا سمع هذهِ لم يستبعد أن تكون

حديثا لجمالها و صحتها و أسلوبها الأخّاذ، و ربما جزم بأنها حديث شريف مع أنها ليست بحديث إنما هي من كلام طبيب العرب المشهور (ابن كلدة) و أما القرآن فذاك له شأن آخر لا يلتبس مع غيره من الكلام، و لن تستطيع أن تجد له شبيها أو ندا، لأن الذي صنعه علي عينه لن تستطيع أن تجد له شبيها أو ندا، فكيف يقاس القرآن الكريم بالحديث الشريف في هذا المقام؟.

ثانيا: و من ناحية ثانية لو كان هذا القرآن من تأليف محمد صلّي اللّه عليه و سلم لكان ينبغي أن يكون الأسلوب في (القرآن و السنة) واحدا ضرورة أنهما صادران عن شخص واحد، استعداده واحد، و مزاجه واحد، مع اننا نجد الفرق بينهما واضحا، و البون شاسعا، فأسلوب القرآن ضرب وحده تظهر عليه سمات الألوهية و الربوبية التي تجل عن المشابهة و المماثلة، و أسلوب الحديث الشريف ضرب آخر، لا يجل عن المشابهة و المماثلة، بل هو محلّق في جو البيان بقدر الأساليب البشرية الرفيعة، و لا يستطيع بحال أن يصعد إلي سماء إعجاز القرآن، و هذا يدركه كل إنسان إذا ما قارن بين الأسلوبين بأبسط نظرة و صدق اللّه حيث يقول: وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «1» و صدق اللّه قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلي أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «2».

---

(1) سورة لقمان، الآية: 27.

(2) سورة الإسراء، الآية: 88.

التبيان في علوم القرآن، ص: 155

القسم الثاني التفسير بالدراية (الرّأي)

اشارة

القسم الثاني التفسير بالدراية (الرّأي)

بعد أن تحدثنا عن التفسير بالرواية، ننتقل الآن إلي الحديث عن التفسير بالدراية، و هذا النوع يسمي عند علماء التفسير (التفسير بالرأي) أو التفسير بالمعقول، لأن المفسر لكتاب اللّه تعالي يعتمد فيه علي اجتهاده، لا علي المأثور المنقول عن الصحابة أو التابعين، بل يكون فيه الاعتماد علي اللغة العربية، و فهم أسلوبها علي طريقة العرب، و معرفة طريقة التخاطب عندهم، و إدراك العلوم الضرورية، التي ينبغي أن يكون ملما بها كل من أراد تفسير القرآن، كالنحو و الصرف و علوم البلاغة، و أصول الفقه، و معرفة أسباب النزول، إلي غير ما هنالك من العلوم التي يحتاج إليها المفسّر، كما سنبينه فيما بعد إن شاء اللّه تعالي.

معني التفسير بالرأي:
المراد بالرأي هنا (الاجتهاد) المبني علي أصول صحيحة، و قواعد سليمة متّبعة، يجب أن يأخذ بها من أراد الخوض في تفسير الكتاب، أو التصدي لبيان معانيه، و ليس المراد به مجرد (الرأي) أو مجرد (الهوي) أو تفسير القرآن بحسب ما يخطر للإنسان من خواطر، أو بحسب ما يشاء. فقد قال القرطبي: من قال في القرآن بما سنح في وهمه، أو خطر علي باله، من غير استدلال عليه بالأصول، فهو مخطئ مذموم، و عليه يحمل
التبيان في علوم القرآن، ص: 156
الحديث الشريف «من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، و من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» «1».
و قد قال صلّي اللّه عليه و سلم: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» «2».
قال القرطبي رحمه اللّه في مقدمة تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) ما نصّه:
فسّر حديث ابن عباس «و من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» تفسيرين:
أحدهما: من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الصحابة و التابعين فهو متعرض لسخط اللّه.
ثانيهما: من قال في القرآن قولا يعلم أن الحق غيره فليتبوّأ مقعده من النار.
و قد رجح القرطبي القول الثاني فقال: و هو أثبت القولين، و أصحهما معني. ثمّ قال:
و أما حديث (جندب) فقد حمل بعض أهل العلم هذا الحديث علي أنّ الرأي معني به (الهوي) و المراد من قال في القرآن قولا يوافق هواه، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ، لحكمه علي القرآن بما لا يعرف أصله، و لا يقف علي مذاهب أهل الأثر و النقل فيه.
و قال ابن عطية: و معني هذا أن يسأل الرجل علي معني في كتاب اللّه عز و جل، فيتسور عليه (أي يهجم عليه) برأيه دون نظر فيما قال العلماء و اقتضته قوانين العلم كالنحو و الأصول، و ليس يدخل في هذا الحديث، أن يفسّر اللغويون لغته، و النحويون نحوه، و الفقهاء معانيه و أحكامه، و يقول كل واحد باجتهاده المبني علي قوانين علم و نظر، فإن القائل علي هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه «3».

---

(1) الحديث رواه الترمذي عن ابن عباس، و معني يتبوأ: أي ينزل و يحل.

(2) الحديث من رواية أبي داود عن جندب.
(3) تفسير القرطبي، ج 1، ص 32.
التبيان في علوم القرآن، ص: 157

أنواع التفسير بالرأي:
و علي هذا يمكن تقسيم التفسير بالرأي إلي قسمين:
1- تفسير محمود.
2- تفسير مذموم.
فالتفسير المحمود: ما كان موافقا لغرض الشارع، بعيدا عن الجهالة و الضلالة متمشيا مع قواعد اللغة العربية، معتمدا علي أساليبها في فهم النصوص القرآنية الكريمة، فمن فسّر القرآن برأيه (أي باجتهاده) ملتزما الوقوف عند هذه الشروط معتمدا عليها فيما يري من معاني الكتاب العزيز، كان تفسيره جائزا سائغا، جديرا بأن يسمي (التفسير المحمود) أو التفسير المشروع.
و أمّا التفسير المذموم: فهو أن يفسّر القرآن بدون علم، او يفسّره حسب الهوي، مع الجهالة بقوانين اللغة أو الشريعة، أو يحمل كلام اللّه علي مذهبه الفاسد، و بدعته الضالّة، أو يخوض فيما استأثر اللّه بعلمه، و يجزم بأن المراد من كلام اللّه هو كذا و كذا، فهذا النوع من التفسير هو (التفسير المذموم) أو التفسير الباطل. و باختصار:
فإن التفسير المحمود، ما كان صاحبه عارفا بقوانين اللغة، خبيرا بأساليبها، بصيرا بقانون الشريعة.
و التفسير الباطل المذموم: ما كان منبعثا عن الهوي، قائما علي الجهالة و الضلالة.
مثاله: ما ورد عن بعض الجهلة من ادعياء العلم في قوله تعالي يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ «1» أن المراد بها أن اللّه تعالي ينادي الناس يوم القيامة بأسماء أمهاتهم سترا عليهم، فقد فسر هذا الجاهل (الإمام) بالأمهات و ظنّ أنّ الإمام جمع أمّ، مع أن اللغة العربية تأبي هذا، لأن جمع الأم أمهات قال تعالي وَ أُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ «2» و لا يكون جمع الأم إماما فإن ذلك فاسد لغة و شرعا، و المراد بالإمام هنا (النبي) الذي

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 71.
(2) سورة النساء، الآية: 23.

اتبعته أمته، أو كتاب الأعمال بدليل تتمة الآية: فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا «1».
فإذا لم يفهم الإنسان قواعد اللغة، و لا أصول العربية، خبط خبط عشواء و كان عليل الرأي، سقيم الفهم، و كذلك من لم يفهم غرض الشرع، وقع في

الجهالة و الضلالة، كمن يأخذ بظاهر الآية الكريمة و هي قوله تعالي: وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمي، فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمي وَ أَضَلُّ سَبِيلًا «2» فيحكم علي كل أعمي بالشقاوة و الخسران و دخول جهنم، مع أنّ المراد بالعمي ليس عمي البصر، و إنما هو (عمي القلب) بدليل قوله تعالي: فَإِنَّها لا تَعْمَي الْأَبْصارُ، وَ لكِنْ تَعْمَي الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ «3» و ربما كان عمي البصر سببا لسعادة الإنسان كما جاء في الحديث القدسي: (من ابتليته بحبيبته (يعني عينيه) فصبر عوّضته الجنّة).

و سنذكر بعض النماذج عن التفسير الباطل المذموم عند الكلام علي غرائب التفسير فارجع إليه هناك.

أمهات التفسير:
و الأمور التي ينبغي استناد الرأي إليها في التفسير، أمهاتها أربعة كما ذكرها (الزركشي) في كتابه البرهان، و نقلها السيوطي عنه في كتابه الإتقان و نحن نلخصها بإيجاز:
الأول: النقل عن الرسول صلّي اللّه عليه و سلم مع التحرز عن الضعيف و الموضوع.
الثاني: الأخذ بقول الصحابي في التفسير، فإنه في حكم المرفوع.
الثالث: الأخذ بمطلق اللغة، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين، مع ترك ما لا تحتمله لغة العرب.

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 71.
(2) سورة الإسراء، الآية: 72.
(3) سورة الحج، الآية: 46.
التبيان في علوم القرآن، ص: 159
الرابع: الأخذ بما يوافق الكلام العربي، و يدل عليه قانون الشرع، و هذا هو الذي دعا به النبي عليه السلام لابن عباس في قوله: «اللّهم فقهه في الدين و علّمه التأويل» «1»

العلوم التي يحتاجها المفسّر:
يحتاج المفسر لكتاب اللّه تعالي، إلي انواع من العلوم و المعارف، يجب أن تتوفر فيه، حتي يكون أهلا للتفسير، و إلّا كان داخلا في الوعيد السابق «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار». و قد ذكر العلماء أنواع العلوم التي يجب توفرها في المفسّر، و أوصلها السيوطي في كتابه (الاتقان) إلي خمسة عشر علما «2»، و نحن نوجزها فيما يلي:
1- معرفة اللغة العربية و قواعدها (علم النحو، و الصرف، و علم الاشتقاق).
2- معرفة علوم البلاغة (علم المعاني، و البيان، و البديع).
3- معرفة أصول الفقه (من خاص، و عام، و مجمل، و مفصل .. الخ) 4- معرفة أسباب النزول.
5- معرفة الناسخ و المنسوخ.
6- معرفة علم القراءات.
7- علم الموهبة.
أما الأول: و هو اللغة و ما يتعلق بها من نحو و صرف و اشتقاق، فإنه ضروري للمفسّر، إذ كيف يمكن فهم الآية بدون معرفة المفردات و التراكيب و هل باستطاعة

---
(1) أنظر: الإتقان، ج 2، ص 179.
(2) عدّ السيوطي العلوم خمسة عشر و سردها علي النحو التالي: أحدها: اللغة، الثاني: النحو، الثالث:
التصريف، الرابع: الاشتقاق، الخامس: البيان، السادس: المعاني، السابع: البديع، الثامن: علم القراءات، التاسع: أصول الدين، العاشر: أصول الفقه، الحادي عشر: أسباب النزول، الثاني عشر: علم الناسخ و المنسوخ، الثالث عشر: علم الفقه، الرابع عشر: الأحاديث المبنية للمجمل و المبهج، الخامس عشر: علم الموهبة (الاتقان بايجاز).
التبيان في علوم القرآن، ص: 160
أحد أن يفسر قوله تعالي: لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «1» بدون أن يعرف المعني اللغوي للإيلاء، و التربص، قال الإمام مالك: (لا أوتي برجل غير عالم بلغة العرب، يفسّر كتاب اللّه، إلّا جعلته نكالا).
و قال مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن باللّه و اليوم الآخر أن يتكلم في كتاب اللّه، إذا لم يكن عالما بلغات العرب».
فإذا لم يتفق اللفظ مع المعني اللغوي كان باطلا، كتفسير بعض الروافض

قوله تعالي: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ «2» أنهما علي و فاطمة، و قوله يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ «3» يعني الحسن و الحسين.
و كتفسير (فرعون) بالقلب في قوله تعالي: اذْهَبْ إِلي فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغي «4» و يريد به قلب الإنسان القاسي، قال القرطبي: و هذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة، تحسينا للكلام، و ترغيبا للمستمع، و هو ممنوع لأنه قياس في اللغة، و ذلك غير جائز، و هو أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي «5».
و علم النحو ضروري للمفسّر، لأن المعني يتغيّر بتغيّر الحركات تغيرا كبيرا، فقوله تعالي: إِنَّما يَخْشَي اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ «6» بنصب هاء الجلالة، و رفع همزة العلماء، و المعني صحيح، لأنّ معني الآية: الذين يخشون اللّه من عباده العلماء دون غيرهم، فمن ازداد علما باللّه، ازداد منه خوفا، و لو عكس فضم هاء الجلالة، و نصب همزة العلماء لفسد المعني.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 226.
(2) سورة الرحمن، الآية: 19.
(3) سورة الرحمن، الآية: 22.
(4) سورة طه، الآية: 24.
(5) تفسير القرطبي، ج 1 ص 33.
(6) سورة فاطر، الآية: 28.

قصة لطيفة:
ذكر القرطبي في تفسيره هذه القصة في عدم اللّحن في القرآن، قال: «قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه إلي المدينة المنورة فقال: من يقرئني مما أنزل علي محمد صلّي اللّه عليه و سلم؟ قال: فأقرأه رجل سورة (براءة) فقرأ عليه الآية الكريمة أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ «1» بالجر أي بجر اللام في (رسوله) بدل الضم فقال الأعرابي: أو قد برئ اللّه من رسوله؟ فإن يكن اللّه بريء من رسوله، فأنا أيضا أبرأ من رسوله، فاستعظم الناس الأمر، و بلغ عمر مقالة الأعرابي، فدعاه فقال يا أعرابي؟
أتبرأ من رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم؟
فقال يا أمير المؤمنين: إني قدمت المدينة، و لا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني؟
فأقرأني هذا الرجل سورة (براءة) فقال: أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فقلت: أو قد برئ اللّه من رسوله، إن يكن اللّه بريء من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال عمر: ما هكذا الآية يا أعرابي؟ قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال: أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فقال الأعرابي: و أنا و اللّه أبرأ ممّا برئ اللّه و رسوله منه، أبرأ من المشركين .. فأمر عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ألّا يقرئ الناس إلّا عالم باللغة، و أمر أبا الأسود فوضع النحو «2».
و معرفة علم الصرف و الاشتقاق ضرورية أيضا للمفسّر، حتي لا يخبط الإنسان خبط عشواء، قال الزمخشري: من بدع التفاسير قول من قال إنّ (الإمام) في قوله تعالي:
يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ «3» جمع أمّ، و أن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، قال: و هذا غلط فاحش أوجبه جهل القائل بالتصريف فإن (أمّا) لا تجمع علي إمام «4».
2- و أما علوم (المعاني و البيان و البديع) فضرورية لمن أراد تفسير الكتاب

(1) سورة التوبة، الآية: 3.
(2) تفسير القرطبي، ج 1 ص 24.
(3) سورة الإسراء، الآية: 71.
(4) أنظر: الإتقان، ج 2 ص 181.

العزيز، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، و ذلك لا يدرك إلا بهذه

العلوم، فمثلا قوله تعالي وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ «1» أي أشربوا حبّ العجل فهو علي حذف مضاف. و مثله وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ «2» المراد أهل القرية و قوله تعالي هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ «3» ليس علي الحقيقة و إنما هو استعارة فكما يستر اللباس العورة، و يزيّن الإنسان و يجمّله، كذلك الرجل و المرأة كل منهما كاللباس لصاحبه يزينه و يكمّله و يجمّله، و هو من روائع النظم، و بدائع الكلام، و إذا حمل الإنسان المعني علي ظاهره، فسد المعني، كما يذكر أن (الفرنسيين) أرادوا ترجمة القرآن إلي لغتهم، فلما وصلوا إلي هذه الآية الكريمة هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ ترجموها بالظاهر و لم يدركوا السّر الدقيق فيها، فكانت الترجمة كالتالي (هنّ بنطلونات لكم، و أنتم بنطلونات لهن) لأن اللباس عندهم يسمي (البنطلون) و هكذا ساء فهمهم و لم يدركوا روعة تعبير القرآن. و قريب من هذا ما وقع لبعض الأعراب حين سمع قوله تعالي وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّي يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ «4» أخذ عقالين أبيض و أسود و جعل يأكل و ينظر إليهما حتي كادت الشمس. أن تطلع، فجاء إلي النبي صلّي اللّه عليه و سلم فأخبره بذلك فقال له: إنّك لعريض القفا «5» إنما ذلك بياض النهار، و سواد الليل. و في القرآن الكريم أمثلة كثيرة علي الاستعارة و الكناية و المجاز، و لا بد في فهمها من معرفة علم البيان و البديع مثل قوله تعالي عن سفينة نوح تَجْرِي بِأَعْيُنِنا «6» أي بحفظنا و رعايتنا، و قوله قَدَمَ صِدْقٍ «7» و لِسانَ صِدْقٍ «8» و جَناحَ الذُّلِّ «9» كل ذلك و أشباهه يحتاج إلي فهم علوم البلاغة و أسرار البيان.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 93.

(2) سورة يوسف، الآية: 82.

(3) سورة البقرة، الآية: 187.

(4) سورة البقرة، الآية: 187.

(5) عريض القفا: كناية عن البلاهة و سوء الفهم.

(6) سورة القمر، الآية: 14.

(7) سورة يونس، جزء من الآية: 2.

(8) سورة مريم، جزء من الآية: 50.

(9) سورة الإسراء، جزء من الآية: 24.

التبيان في علوم القرآن، ص: 163

و هكذا بقية العلوم من: (أصول الفقه، و أسباب النزول، و معرفة الناسخ و المنسوخ، و علم القراءات) كلّ ذلك مما يحتاج إليه المفسّر لكتاب اللّه تعالي، حتي لا يخطئ في الفهم، و لا تزلّ قدمه بسبب الجهل بهذه الأمور الضرورية.

و أما علم الموهبة: فيقصد منه العلم اللدني الرباني وَ عَلَّمْناهُ «1» مِنْ لَدُنَّا

عِلْماً «2» الذي يورثه اللّه تعالي لمن عمل بما علم، و يفتح قلبه لفهم أسراره قال تعالي وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ «3» فهو ثمرة التقوي و الإخلاص، و لا ينال هذا العلم من كان في قلبه بدعة، أو كبر، أو حب للدنيا، أو ميل إلي المعاصي قال اللّه تعالي:
سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. «4» الآية، و ما أجمل قول الشافعي رحمه اللّه:
«شكوت إلي وكيع سوء حفظي فأرشدني إلي ترك المعاصي»
«و أخبرني بأنّ العلم نور و نور اللّه لا يهدي لعاصي». قال السيوطي: «و لعلك تستشكل علم الموهبة و تقول: هذا شيء و ليس في قدرة الإنسان، و ليس كما ظننت من الإشكال، و الطريق في تحصيله، ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل و الزهد. ثم قال: علوم القرآن و ما يستنبط منه بحر لا ساحل له، فهذه العلوم التي ذكرناها هي كالآلة للمفسّر، و لا يكون مفسرا إلا بتحصيلها، فمن فسّر بدونها كان مفسرا بالرأي المنهي عنه» «5».
و هذه الشروط التي ذكرها العلماء إنما هي لتحصيل أعلي مراتب التفسير و هناك معان عامة يفهمها الإنسان عند سماع اللفظ الكريم، فقد سهّل اللّه القرآن و يسّره، و أمر

---

(1) في القرآن: (و علمناه) بدل (و آتيناه).
(2) سورة الكهف، الآية: 65.
(3) سورة البقرة، الآية: 282.
(4) سورة الأعراف، الآية: 146.
(5) أنظر الإتقان، ج 2، ص 181.

بالتدبر و التذكر لكتابه المجيد أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ «1»؟ و ذلك أدني مراتب التفسير و اللّه الموفق.

مراتب التفسير:
و قد قسّم المرحوم الشيخ محمد عبده التفسير إلي مرتبتين:
1- مرتبة عليا.
2- و مرتبة دنيا.
أمّا المرتبة الأولي (العليا) فهي لا تتم إلّا بأمور:
أحدها: فهم حقائق الألفاظ المفردة، التي أودعت في القرآن عن طريق استعمالات أهل اللغة.
ثانيها: معرفة الأساليب الرفيعة. و ذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ و مزاولته، مع التفطن لنكته و محاسنه.
ثالثها: علم أحوال البشر، و معرفة السنن الإلهية الكونية في تطور الأمم و اختلاف أحوالهم، من قوة و ضعف، و عز و ذل، و إيمان و كفر.
رابعها: العلم بوجه هداية القرآن للبشرية، و ما كان عليه العرب في الجاهلية من شقاء و ضلال، فقد روي عن عمر أنه قال: «لا يعرف فضل الإسلام من لم يقرأ حياة الجاهلية».
خامسها: العلم بسيرة النبي صلّي اللّه عليه و سلم و أصحابه، و ما كانوا عليه من علم و عمل، في الشئون الدينية و الدنيوية

المرتبة الدنيا:

و أما أدني مراتب التفسير: فهو أن يتبيّن بالإجمال ما يشرب قلبه عظمة اللّه و تنزيهه

---

(1) سورة محمد الآية 24 و سورة النساء الآية 82.

التبيان في علوم القرآن، ص: 165

و يصرف النفس عن الشر، و يجذبها إلي الخير، و هذه ميسّرة لكل أحد كما قال تعالي:

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟ «1».

أوجه التفسير:
روي السيوطي نقلا عن ابن جرير من طرق متعددة، عن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما أنه قال:

التفسير أربعة أوجه:
1- وجه تعرفه العرب من كلامها.
2- و تفسير لا يعذر أحد بجهالته.
3- و تفسير يعرفه العلماء.
4- و تفسير لا يعلمه إلا اللّٰه تعالي.

(أقوال العلماء في جواز التفسير بالرأي)
بعد أن عرفنا معني (التفسير بالرأي) و شروطه، نذكر الآن أقوال العلماء فيه، و أدلة كل من المجيزين و المانعين له، حتي يظهر الحق أبلج ساطعا، مثل الشمس في رابعة النهار، فنقول و من اللّه نستمد العون: المراد بالرأي هنا الاجتهاد، و عليه فالتفسير بالرأي معناه تفسير القرآن بالاجتهاد، بعد معرفة المفسّر لكلام العرب و أسلوبهم في الخطاب، و معرفته للألفاظ العربية و وجوه دلالتها و قد اختلف العلماء في جواز التفسير بالرأي علي مذهبين:
المذهب الأول: عدم جواز التفسير بالرأي، لأنّ التفسير موقوف علي السماع، و هو قول طائفة من العلماء.
المذهب الثاني: جواز التفسير بالرأي بالشروط المتقدمة، و هو مذهب جمهور العلماء.

---

(1) سورة القمر، الآية: 17. انتهي. من تفسير المنار بتصرف و اختصار.
التبيان في علوم القرآن، ص: 166

أدلة المانعين:

استدل المانعون للتفسير بالرأي بعدة أدلة نوجزها فيما يلي:

أولا: إن التفسير بالرأي قول علي اللّه بغير علم، و هو منهيّ عنه بقوله تعالي:

وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَي اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ «1».

ثانيا: ما ورد في الحديث الشريف من الوعيد الشديد لمن فسّر القرآن الكريم برأيه، و هو قوله صلّي اللّه عليه و سلم: «اتقوا الحديث عليّ إلّا ما علمتم، فمن كذب عليّ متعمدا فليبوأ مقعده من النار، و من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» رواه الترمذي.

ثالثا: قوله تعالي وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ «2» فقد أضاف البيان إلي الرسول صلّي اللّه عليه و سلم فعلم أنه ليس لغيره شيء من البيان لمعاني القرآن.

رابعا: تحرّج الصحابة من القول في القرآن بآرائهم، حتي روي عن الصّديق أنه قال: «أيّ سماء تظلّني؟ و أيّ أرض تقلّني؟ إذا قلت في القرآن برأي، أو قلت فيه بما لا أعلم»؟.

أدلة المجيزين للتفسير بالرأي:
و قد استدل المجيزون للتفسير بالرأي و هم (الجمهور) بعدة أدلة نوجزها فيما يلي:
أولا: لقد حثنا اللّه علي التدبر، و تعبّدنا في القرآن فقال عزّ من قائل: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ، وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ «3».
و قال تعالي: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلي قُلُوبٍ أَقْفالُها «4»؟.
و التدبّر و التذكّر لا يكون إلّا بالغوص عن أسرار القرآن، و الاجتهاد في فهم

---

(1) سورة البقرة، الآية: 169.
(2) سورة النحل، الآية: 44.
(3) سورة ص، الآية: 29.
(4) سورة محمد، الآية: 24.

معانيه، فهل يعقل أن يكون تأويل ما لم يستأثر اللّه بعلمه محظورا علي العلماء، مع أنه طريق العلم، و سبيل المعرفة؟.
ثانيا: إن اللّه تعالي قسم الناس قسمين: عامة، و علماء، و أمر بالرجوع إلي أهل العلم الذين يستنبطون الأحكام فقال تعالي: وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَي الرَّسُولِ وَ إِلي أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ «1» الآية، و الاستنباط هو استخراج المعاني الدقيقة بثاقب الذهن، و هو إنما يكون بالاجتهاد و الغوص في أسرار القرآن؛ كما يغوص السباح في أعماق البحر، لاستخراج الجواهر و اللئالئ.
ثالثا: قالوا، لو كان التفسير بالاجتهاد غير جائز، لما كان الاجتهاد جائزا، و لتعطّل كثير من الأحكام، و هذا باطل فإن المجتهد في حكم الشرع مأجور سواء أصاب أو أخطأ، ما دام أنه قد استفرغ جهده، و بذل ما في وسعه، بغية الوصول إلي الحق و الصواب.
رابعا، إن الصحابة قرءوا القرآن، و اختلفوا في تفسيره علي وجوه، و معلوم أنهم لم يسمعوا كلّ ما قالوه في تفسير القرآن من النبي صلّي اللّه عليه و سلم إذ أنه لم يبيّن لهم كل شيء، بل بيّن لهم الضروري منه، و ترك البعض الآخر الذي توصلوا إلي معرفته بعقولهم و اجتهادهم، و لو بيّن لهم كلّ معانيه لما وقع بينهم اختلاف في التفسير.
خامسا: أن النبي صلّي اللّه عليه و سلم دعا لابن عباس فقال: «اللّهم فقّهه في الدين، و علّمه التأويل» فلو كان «التأويل» مقصورا علي السّماع و

النقل كالتنزيل لما كان هناك فائدة في تخصيص ابن عباس بهذا الدعاء، فدلّ علي أن التأويل هو التفسير بالرأي و الاجتهاد.

الرد علي أدلة المانعين:
و قد ردّوا علي أدلة المانعين بحجج دامغة، و براهين قاطعة، تثبت خطأهم فقالوا في الردّ علي الدليل الأول: إن التفسير بالاجتهاد ليس قولا علي اللّه بغير علم، بل هو قول

---

(1) سورة النساء، الآية: 83.

التبيان في علوم القرآن، ص: 168

بعلم مأذون به من الشارع، فقد بيّن عليه السلام أن المجتهد إذا اجتهد فأصاب فله أجران و إذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، فكيف يكون مأجورا إذا لم يكن مسموحا له بالاجتهاد؟.

ثانيا: أما الدليل الثاني و هو حديث «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» فقد ردّ السيوطي بخمسة أدلة عليه فقال جملة ما تحصل في معني التفسير بالرأي خمسة أقوال:

أحدها: التفسير من غير حصول علي العلوم التي يجوز معها التفسير.

الثاني: تفسير المتشابه الذي لا يعلّمه إلّا اللّه تعالي.

الثالث: التفسير المقرّر للمذهب الفاسد، فيجعل المذهب أصلا، و التفسير تابعا.

الرابع: الحكم بأنّ مراد اللّه كذا علي وجه القطع من غير دليل.

الخامس: التفسير بالاستحسان و الهوي «1».

ثالثا: في الرد علي الدليل الثالث قالوا: نعم إن النبي صلّي اللّه عليه و سلم مأمور بالبيان و لكنه انتقل إلي انتقل إلي جوار اللّه و لم يبيّن لهم كل شيء، فما ورد بيانه عنه صلّي اللّه عليه و سلم ففيه الكفاية، و ما لم يرد عنه بيانه فلا بدّ فيه من الاجتهاد و إعمال الفكر، و ختام الآية يشهد ذلك وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ «2» فلا بدّ إذا من الفكر و الاجتهاد.

رابعا: و في الرد علي الدليل الرابع قالوا: إن إحجام الصحابة إنما كان منهم (ورعا و احتياطا) خشية ألا يصيبوا عين اليقين، و كانوا يرون أن التفسير شهادة علي اللّه بأنه أراد باللفظ كذا فأمسكوا عنه خشية ألا يكون الصواب جانبهم، و أمّا إذا ترجّح لهم وجه الصواب فإنهم لا يمتنعون، و هذا أبو بكر الصّديق يفتي في الكلالة برأيه في قوله تعالي يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ «3» فيقول رضي اللّه عنه: أقول فيها برأي، فإن كان صوابا فمن اللّه، و إن كان غير ذلك فمني و من الشيطان الكلالة: ما خلا الوالد و الولد.

---

(1) أنظر: الإتقان، ج 2 ص 183.
(2) سورة النحل، جزء من الآية: 44.
(3) سورة النساء، الآية: 176.
التبيان في علوم القرآن، ص: 169
من هذه النظرة العابرة يتبيّن لنا خطا وجهة الذين منعوا تفسير القرآن بالاجتهاد، و قصروه علي المنقول و المأثور، و قد علمت أدلة الجمهور القويّة، و تفنيدهم لأدلة المانعين، و نزيد هنا كلمة للإمام الغزالي، و أخري للراغب الأصفهاني، و ثالثة للقرطبي حول جواز تفسير القرآن بالاجتهاد.

كلمة الإمام الغزالي:

قال الغزالي في الإحياء: «إنّ في فهم معاني القرآن مجالا رحبا، و متسعا بالغا، و إنّ المنقول من ظاهر التفسير، ليس منتهي الإدراك فيه، فبطل أن يشترط السماع في التأويل، و جاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه، و حدّ عقله ..» «1».

كلمة الراغب الأصفهاني:

و قال الراغب الأصفهاني في مقدمة التفسير- بعد أن ذكر المذهبين و أدلتهما- قال:

«و ذكر بعض المحققين أنّ المذهبين هما (الغلوّ و التقصير) فمن اقتصر علي المنقول فقد ترك كثيرا مما يحتاج إليه، و من أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرّضه للتخليط، و لم يعتبر حقيقة قوله تعالي: لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ «2»

كلمة الإمام القرطبي:
و قال العلامة القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ما نصّه:
«و قال بعض العلماء: إنّ التفسير موقوف علي السماع لقوله تعالي فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْ‌ءٍ فَرُدُّوهُ إِلَي اللَّهِ وَ الرَّسُولِ .. «3» الآية، و هذا فاسد، لأنّ النهي عن تفسير القرآن لا يخلو إمّا أن يكون المراد به الاقتصار علي النقل و المسموع و ترك الاستنباط، أو المراد به أمر آخر، و باطل أن يكون المراد به ألّا يتكلم أحد في القرآن، إلّا بما سمعه، فإنّ الصحابة رضي اللّه عنهم قد قرءوا القرآن و اختلفوا في تفسيره علي وجوه، و ليس كل ما قالوه سمعوه من النبي صلّي اللّه عليه و سلم فإنّ النبي صلّي اللّه عليه و سلم دعا لابن عباس فقال «اللهم

---

(1) أنظر: الإحياء، ج 3، ص 36، 37.
(2) سورة ص، الآية: 29. مقدمة التفسير للراغب، ص 423
(3) سورة النساء، الآية: 59.
التبيان في علوم القرآن، ص: 170

فقّهه في الدين و علّمه التأويل» فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك؟ «1» ثم قال: و النهي محمول علي أحد وجهين:
أحدهما: أن يكون له في الشي‌ء رأي، و إليه ميل من الطبع و الهوي، فيتأول القرآن علي وفق رأيه و هواه.
الثاني: أن يتسارع إلي تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع و النقل، فيما يتعلق بغرائب القرآن، و ما فيه من الحذف و الإضمار، و التقديم و التأخير، تأمل قوله تعالي وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها «2» فإنّ معناه: آتينا ثمود الناقة معجزة واضحة، و آية ظاهرة، فظلموا أنفسهم بقتلها. و الناظر إلي ظاهر العربية يظنّ أن الناقة كانت مبصرة، و لا يدري بما ذا ظلموا، و أنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم، فهذا من الحذف و الإضمار، و أمثال هذا في القرآن كثير، و ما عدا هذين الوجهين فلا يشمله النهي «3».

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، ج 1 ص 33.
(2) سورة الإسراء، الآية: 59.
(3) الجامع لأحكام القرآن، ج 1 ص 34.
التبيان في علوم القرآن، ص: 171

القسم الثالث التفسير الإشاري و غرائب التفسير

القسم الثالث التفسير الإشاري و غرائب التفسير

النوع الثالث من التفسير هو (التفسير الإشاري) و سنتعرض في هذا البحث إلي معني التفسير الإشاري، و إلي شروطه، و إلي آراء العلماء فيه، ثمّ نعقب ذلك ببيان نماذج عن التفسير الإشاري، و أهم الكتب التي نحت هذا المنحي، و ما فيها من حسنات و سيئات.

معني التفسير الإشاري:
التفسير الإشاري هو: تأويل القرآن علي خلاف ظاهره، لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للعارفين باللّه من أرباب السلوك و المجاهدة للنفس، ممّن نوّر اللّه بصائرهم فأدركوا أسرار القرآن العظيم، أو انقدحت في أذهانهم بعض المعاني الدقيقة، بواسطة الإلهام الإلهي، أو الفتح الرباني، مع إمكان الجمع بينها و بين الظاهر المراد من الآيات الكريمة.
فالتفسير الإشاري هو أن يري المفسّر معني آخر، غير معني الظاهر تحتمله الآية الكريمة، و لكنّه لا يظهر لكل إنسان و إنما يظهر لمن فتح اللّه قلبه، و أنار بصيرته،- و سلكه في ضمن عبادة الصالحين، الذين منحهم اللّه ألفهم و الإدراك، كما قال تعالي في قصة الخضر مع موسي عليه السلام فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ

التبيان في علوم القرآن، ص: 172

عِنْدِنا، وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً «1».
و هذا النوع من العلم ليس من العلم (الكسبيّ) الذي ينال بالبحث و المذاكرة و إنما هو من العلم (اللدنيّ) أي الوهبيّ الذي هو أثر التقي و الاستقامة و الصلاح كما قال تعالي وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ، وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «2».

آراء العلماء في التفسير الإشاري:

اختلف العلماء في التفسير الإشاري، و تباينت فيه آراؤهم، فمنهم من أجازه، و منهم من منعه، و منهم من عدّه من كمال الإيمان، و محض العرفان و منهم من اعتبره زيغا و ضلالا، و انحرافا عن دين اللّه تبارك و تعالي.

و الواقع أن الموضوع دقيق، يحتاج إلي بصيرة و رؤية، و غوص إلي أعماق الحقيقة، ليظهر ما إذا كان الغرض من هذا النوع من التفسير هو اتباع الهوي، و التلاعب في آيات اللّه كما فعل (الباطنية) فيكون ذلك زندقة و إلحادا أو الغرض منه الإشارة إلي أن كلام اللّه تعالي، لا يحيط به بشر، لأنه كلام خالق القوي و القدر، و أنّ لكلامه تعالي مفاهيم و أسرارا، و نكتا و دقائق، و عجائب لا تنقضي، فيكون ذلك من محض العرفان و كمال الإيمان، كما قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: (إنّ القرآن ذو شجون و فنون، و ظهور و بطون، لا تنقضي عجائبه، و لا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا، و من أوغل فيه بعنف هوي، أخبار و أمثال، و حلال و حرام، و ناسخ و منسوخ و محكم و متشابه، و ظهر و بطن، فظهره التلاوة، و بطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، و جانبوا به السفهاء) «3».

أدلة المجيزين:
و قد استدل القائلون بجواز التفسير الإشاري بما رواه البخاري في صحيحه في باب التفسير، عند تفسير سورة (النصر) و نصّ الحديث.

---
(1) سورة الكهف، الآية: 65.
(2) سورة البقرة، الآية: 282.
(3) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك. أنظر: الإتقان، ج 2 ص 185.
التبيان في علوم القرآن، ص: 173
عن ابن عباس رضي اللّه عنه أنه قال:
كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنّ بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا و لنا أبناء مثله؟ فقال: إنّه من علمتم؟ فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم، قال:
فما رأيت أنه دعاني إلّا ليريهم، فقال عمر: ما تقولون في قول اللّه تعالي إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ «1»؟ فقال بعضهم: أمرنا بأن نحمد اللّه و نستغفره، إذا نصرنا و فتح علينا، و سكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي: أ كذا تقول يا ابن عباس؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم أعلمه، فقال: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فذلك علامة أجلك فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً «2» فقال عمر: ما أعلم منها إلّا ما تقول «3».
فهذا الفهم من ابن عباس لم يفهمه بقية الصحابة، و إنما فهمه عمر و فهمه ابن عباس، و هو من (التفسير الإشاري) الذي يلهمه اللّه من شاء من خلقه، و يطلع عليه بعض عباده، فالسورة الكريمة فيها (نعي) للنبي عليه الصلاة و السلام و إشارة إلي دنو أجله. و مثل هذا ما ورد في الحديث الشريف أن النبي صلّي اللّه عليه و سلم خطب الناس يوما، فقال في جملة خطبته: «إنّ اللّه خيّر عبدا بين الدنيا، و بين ما عنده فاختار ما عنده»، فبكي أبو بكر- و في رواية فقال فديناك يا رسول اللّه بآبائنا و أمهاتنا- فعجبنا له يبكي، فلما قبض رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم علمنا أنه كان هو المخيّر، و كان أبو بكر أعلمنا «4».
فأبو بكر الصدّيق فهم (بطريق الإشارة) ما لم يفهمه عامة الصحابة، و كان الأمر كما قال.

طائفة من أقوال العلماء:
و أنا أنقل هنا طائفة من أقوال العلماء في التفسير الإشاري بإيجاز، سائلا المولي أن

---

(1) سورة النصر، الآية: 1.
(2) سورة النصر، الآية: 3.
(3) نقلا عن جمع الفوائد و أعذب الموارد، ج 2 ص 285.
(4) الحديث رواه البخاري و الترمذي.
التبيان في علوم القرآن، ص: 174

يلهمنا السداد و الرشاد، و أن يجنبنا الخطأ و الضلال، ثمّ أعقبها بكلمة لحجة الإسلام الإمام (الغزالي) رحمه اللّه فهي مسك الختام، فأقول و من اللّه أستمد العون:

كلمة الزركشي في البرهان:

قال الزركشي في البرهان: «كلام الصوفية في تفسير القرآن، قيل إنّه ليس بتفسير، و إنما هو معان و مواجيد يجدونها عند التلاوة كقول بعضهم في قوله تعالى:

قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ «1» إن المراد «النّفس» يريدون أن علّة الأمر بقتال من يلينا هي القرب، و أقرب شيء إلي الإنسان نفسه».

كلمة النسفي و التفتازاني:
و قال النسفي في العقائد: «النصوص علي ظواهرها، و العدول عنها إلي معان يدّعيها أهل الباطل إلحاد ..» ا ه.
و قال التفتازاني في شرحه علي العقائد: «سميّت الملاحدة باطنية لا دعائهم أنّ النصوص ليست علي ظاهرها، بل لها معان لا يعرفها إلّا المعلّم، و قصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية، قال: و أمّا ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص علي ظواهرها، و مع ذلك فيها إشارات خفيّة إلي دقائق تنكشف لأرباب السلوك، يمكن التوفيق بينها و بين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان، و محص العرفان» «2». فأنت تري أن النسفي أشار إلي (الباطنية) و بيّن أن طريقهم إلحاد في دين اللّه، و التفتازاني فصّل البحث، و وضّح الموضوع، فردّ علي (الباطنية) ضلالهم، و أقرّ لبعض أرباب السلوك طريقهم في استنباط الدقائق، و الإشارات الخفية، و جعلها من كمال المعرفة و الإيمان.
و من هنا يظهر لنا الفرق جليا بين (التفسير الإشاري) الذي هو تفسير بعض العارفين باللّه، و بين (التفسير الباطني) الذي هو تفسير الباطنية الملاحدة الذين يحرّفون معاني الكتاب العزيز.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 123.
(2) شرح العقائد النسفية للتفتازاني.

فالأولون: لا يمنعون إرادة الظاهر، بل يقولون إنه هو الأصل و الأساس و يحضّون عليه و يقولون: لا بدّ من معرفة الظاهر أولا، إذ من ادّعي فهم أسرار القرآن و لم يحكم الظّاهر، يكون كمن ادّعي بلوغ سطح البيت قبل أن يلج الباب.
و أما الباطنية: فإنهم يقولون: إن الظاهر غير مراد أصلا، و إنما المراد الباطن و قصدهم من وراء هذا الكلام، نفي الشريعة و إبطال الأحكام، و هذا بلا شك إلحاد في الدين، و قد قال اللّه تبارك و تعالي:
إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا، أَ فَمَنْ يُلْقي فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ، اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «1».

كلام السيوطي في الاتقان:
و العلامة السيوطي ذكر في كتابه (الاتقان) عن ابن عطاء النص الآتي: «اعلم أن التفسير من هذه الطائفة (يعني التفسير الإشاري) لكلام اللّه و كلام رسوله بالمعاني العربية، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، و لكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له، و دلت عليه في عرف اللسان، و لهم أفهام باطنة تفهم عند الآية و الحديث، لمن فتح اللّه قلبه.
فلا يصدّنك عن تلقي هذه المعاني منهم، أن يقول لك ذو جدل و معارضة هذا إحالة لكلام اللّه و كلام رسوله صلّي اللّه عليه و سلم، فليس ذلك بإحالة، و إنما يكون حالة لو قالوا: لا معني للآية إلّا هذا، و هم لم يقولوا ذلك، بل يقرّرون الظواهر علي ظواهرها، مرادا بها موضوعاتها، و يفهمون عن اللّه ما ألهمهم «2» أقول: هذا كلام الإنصاف، فقد وضع الشيخ الحقّ في نصابه، و جمع بين النصوص الظاهرة، و المعاني الخفية الواردة، التي تشرق علي قلب المؤمن العارف باللّه، كما كان الحال مع الصّديق و عمر، و لا عجب فاللّه تعالي يعطي الحكمة من يشاء، و يضع الفهم

---

(1) سورة فصلت، الآية: 40.
(2) أنظر: الإتقان، ج 2 ص 185.

فيمن أراد، و هذا هو القرآن الكريم يخبرنا عن (داود و سليمان) في أمر عرض عليهما فحكم كلّ واحد منهما بحكم يخالف الآخر فيقول: فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً «1».

معني الحديث الوارد في التفسير الإشاري:

و يجدر بنا هنا أن نبيّن معني الحديث الوارد في التفسير الإشاري، في بيان معني ظهر الآية و بطنها، و حدّ الحرف، و مطلع الحد .. الخ. لئلا يتخذه الملاحدة الباطنية حجة لهم في دعواهم الباطلة، في تفسير كلام اللّه تعالي علي طريقتهم الباطنية، و تلاعبهم في النصوص الكريمة حسب الأهواء.

روي الفريابي بسنده عن الحسن عن النبي صلّي اللّه عليه و سلم أنه قال: «لكل آية ظهر و بطن، و لكل حرف حدّ، و لكل حدّ مطلع».

و روي الطبراني عن ابن مسعود موقوفا: «إن هذا القرآن ليس منه حرف إلّا له حدّ، و لكل حدّ مطلع».

و قد ذكر العلامة السيوطي بعض الوجوه في تأويل الحديث الشريف في معني (الظهر و البطن) و نحن نذكر أقرب هذه الأوجه إلي الصواب:

الوجه الأول: أن المراد بالظاهر لفظها، و بالباطن تأويلها.

الوجه الثاني: أن المراد بالظاهر، ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، و بطنها ما تضمّنته من الأسرار، التي أطلع اللّه عليها أرباب الحقائق.

الوجه الثالث: أن القصص التي قصّها اللّه تعالي عن الأمم الماضية، و ما عاقبهم به، ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، و باطنها وعظ الآخرين، و تحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحلّ بهم مثل ما حلّ بهم، قال السيوطي: و هذا الوجه اشبهها بالصواب «2»

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 89.

(2) عن الإتقان ج 2 ص 184 بتصرف.

و أما المراد (بالحدّ) فهو أحكام الحلال و الحرام، و المراد (بالمطلع) الوعد و الوعيد و يؤيده حديث ابن عباس السابق (إن القرآن ذو شجون و فنون) الحديث و قد مرّ معك ذكره.

شروط قبول التفسير الإشاري:
و التفسير الإشاري لا يكون مقبولا إلّا إذا توفرت فيه الشروط الآتية:
أولا: عدم التنافي مع المعني الظاهر في النظم الكريم.
ثانيا: عدم ادعاء أنه المراد وحده دون الظاهر.
ثالثا: ألّا يكون التأويل بعيدا سخيفا لا يحتمله اللفظ، كتفسير الباطنية قوله تعالي:
وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ «1» أي أن الإمام عليا ورث النبيّ في علمه.
رابعا: ألّا يكون له معارض شرعي أو عقلي.
خامسا: ألّا يكون فيه تشويش علي أفهام الناس.
و بدون هذه الشروط لا يقبل التفسير الإشاري، و يكون عند ذلك من قبيل التفسير بالهوي و الرأي المنهي عنه و اللّه الموفق و الهادي إلي سواء السبيل.

كلمة قيمة للشيخ الزرقاني:

و نسوق هنا كلمة قيمة للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني حول التفسير الإشاري، فيها حكمة بالغة. و نصيحة صادقة، لمن كان له قلب أو ألقي السمع و هو شهيد. قال رحمه اللّه:

«و لعلك تلاحظ معي أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال علي دراسة تلك الإشارات و الخواطر، فدخل في روعهم أنّ الكتاب و السنة، بل و الإسلام كله ما هي إلّا سوانح و واردات، علي هذا النحو من التأويلات و التوجيهات و زعموا أنّ الأمر ما هو إلّا تخييلات، و أنّ المطلوب منهم هو الشطح مع الخيال أينما شطح، فلم يتقيّدوا بتكاليف

---

(1) سورة النمل، الآية: 16.

التبيان في علوم القرآن، ص: 178

الشريعة، و لم يحترموا قوانين اللغة العربية، في فهم أبلغ النصوص العربية، كتاب اللّه و سنة رسوله.

و الأدهي من ذلك أنهم يتخيّلون للناس، أنهم هم أهل الحقيقة الذين أدركوا الغاية، و اتصلوا باللّه اتصالا أسقط عنهم التكليف، و سما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب، ما داموا في زعمهم مع ربّ الأرباب، و هذا- لعمر اللّه- هو المصاب العظيم، الذي عمل له الباطنية كيما يهدموا التشريع من أصوله، و يأتوا بنيانه من قواعده.

فواجب النصح لإخواننا المسلمين يقتضينا أن نحذرهم الوقوع في هذه الشباك، و نشير عليهم أن ينفضوا أيديهم من أمثال تلك التفاسير الإشارية الملتوية، لأنها كلها أذواق و مواجيد خارجة عن حدود الضبط و التقييد، و كثيرا ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة، و الحق بالباطل، فالأحري بالفطن العاقل أن ينأي بنفسه عن هذه المزالق، و أن يفرّ بدينه من هذه الشبهات، و أمامه في الكتاب و السنة، و شروحهما علي قوانين الشريعة و اللغة، رياض و جنات أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْني بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ «1»؟.

كلمة حجة الإسلام الغزالي:

و يقول حجة الإسلام الغزالي رحمه اللّه في كتابه (إحياء علوم الدين) في فصل الذكر و التذكير ما نصّه:

«و أمّا الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثهما بعض الصوفية:

أحدهما: الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع اللّه تعالي، و الوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتي ينتهي قوم إلي دعوي الاتحاد، و ارتفاع الحجاب، و المشاهدة بالرؤية، و المشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا و قلنا كذا، و يتشبّهون فيه بالحسين (الحلاج) الذي صلب لاجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، و يستشهدون بقوله: «أنا الحق» و هذا فنّ من الكلام عظيم ضرره علي العوام، حتي من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين اللّه من إحياء عشرة.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 61. أنظر مناهل العرفان، ج 1 ص 558.

التبيان في علوم القرآن، ص: 179

الثاني: كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة، و فيها عبارات هائلة و ليس وراءها طائل، و لا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوّش القلوب و يدهش العقول و يحيّر الأذهان، و قد قال ابن مسعود رضي اللّه عنه «ما حدّث أحد قوما بحديث لا يفقهونه إلّا كان فتنة عليهم «1»».

و قال علي كرّم اللّه وجهه: «كلموا الناس بما يعرفون أ تريدون أن يكذّب اللّه و رسوله» «2».

أمثلة علي التأويل الإشاري الفاسد:
ثمّ قال طيّب اللّه ثراه: «و أمّا الطاعات فيدخلها ما ذكرناه من الشطح، و أمر آخر يخصها و هو: صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة، إلي أمور باطنة لا يسبق منها إلي الأفهام فائدة، فهذا أيضا حرام و ضرره عظيم. و من أمثلة تأويل أهل الطّامات، قول بعضهم في تأويل قوله تعالي اذْهَبْ إِلي فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغي «3» إنه إشارة إلي قلبه، و قال هو المراد بفرعون، و هو الطاغي علي كل انسان. و في قوله تعالي وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ «4» أي كل ما يتوكأ عليه و يعتمده مما سوي اللّه عز و جل فينبغي أن يلقيه.
و في قوله صلّي اللّه عليه و سلم: «تسحّروا فإن في السحور بركة» فسّروا السحور بأنه الاستغفار في الأسحار و أمثال ذلك حتي ليحرفون القرآن من أوله إلي آخره عن ظاهره. و عن تفسيره المنقول عن ابن عباس و سائر العلماء، و بعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعا، كتنزيل فرعون علي القلب، فإنّ فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده، و بعضها يعلم بطلانه بغالب الظنّ، و كلّ ذلك حرام و ضلالة، و إفساد للدين علي الخلق.

---

(1) روي في مقدمة صحيح مسلم موقوفا علي ابن مسعود.
(2) رواه البخاري موقوفا علي علي.
(3) سورة طه، الآية: 24.
(4) سورة القصص، الآية: 31.

و من يستجيز من أهل الطّامات مثل هذه التأويلات، مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ، يضاهي من يستجيز الاختراع و الوضع (الكذب) علي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم كمن يضع في كل مسألة يراها، حديثا عن النبي صلّي اللّه عليه و سلم فذلك ظلم و ضلال، و دخول في الوعيد «من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» .. بل الشرّ في تأويل هذه الألفاظ أطمّ و أعظم، لأنه مبطل للثقة بالألفاظ، و قاطع طريق الاستفادة و الفهم من القرآن بالكلية «1» ..) انتهي كلام الغزالي.

خلاصة البحث:

و مما تقدم يتبين لنا أن التفسير الإشاري له ما يؤيده من الشرع، و لكنه قد دخلت عليه بعض التأويلات الفاسدة، و سلك فيه بعض الناس مسلك الباطنية و لم يراعوا الشروط التي وضعها العلماء، و أخذوا يخبطون فيه خبط عشواء، بل أصبح كلّ من هبّ و دبّ، يتطاول علي كتاب اللّه تعالي، فيتأوله حسب ما يمليه عليه الهوي، أو يسوس له به الشيطان، و يزعم أنه من التفسير الإشاري مع أنه سفاهة و ضلالة و جهالة، لأنه تحريف لكتاب اللّه، و سلوك لمسلك الباطنية الملاحدة و هو إن لم يكن تحريفا لألفاظه فإنه تحريف لمعانيه. و لقد سمعت من يستشهد بالآية الكريمة قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ «2» علي ضرورة ملازمة المريد لذكر اللّه تعالي بلفظ (اللّه) فجعل هذه اللفظة مقول القول: أي (قل: اللّه) و ما دري هذا الجاهل الغبيّ أنّ هذه جملة حذف منها الخبر، و التقدير: (اللّه أنزله) بدليل سياق الآية الكريمة وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلي بَشَرٍ مِنْ شَيْ‏ءٍ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسي .. إلي قوله: قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ و أمثال هذا التخليط كثير. فلا ينبغي لعلماء المسلمين أن يسمحوا لأمثال هؤلاء الجهلة، بالتطاول علي كتاب اللّه، و بتفسيره بما يخالف الظاهر، و يجافي الحق و الصواب، زعما منهم أنه من نوع (التفسير الاشاري) فالتفسير له حدود و شروط، و ليس لكل انسان أن يقول فيه

---

(1) الإحياء للغزالي باختصار.

(2) سورة الأنعام، الآية: 91.

التبيان في علوم القرآن، ص: 181

برأيه، أو يعبث في نصوصه بفهمه العليل، و لقد صدق شيخ الإسلام (ابن تيمية) حين قال: «نصف طبيب يفسد الأبدان، و نصف عالم يفسد الأديان» و اللّه يقول الحق و هو يهدي السبيل.

(غرائب التفسير)
ذكر العلامة (السيوطي) في كتابه الاتقان، نقلا عن الكرماني أنه ألّف كتابا في مجلدين سماه (العجائب و الغرائب) ضمّنه أقوالا منكرة في التفسير، لا يجوز قولها و لا الاعتماد عليها، لأنها من أقوال أهل الضلال، و إنما ذكرها للتحذير منها، و قال: إنما أردت بذكرها أن يعلم الناس أنّ فيمن يدّعي العلم حمقي. و نحن ننقل طرفا منها، و ننقل بعض أقوال أخري عن الباطنية حتي يحذر المسلمون من أمثال هذه الأباطيل، التي دخلت علي الأمة الإسلامية بسبب التعصب الأعمي و اتباع الأهواء.

أمثلة علي هذه الغرائب.

أولا: في قوله تعالي حم عسق «1» قالوا: الحاء حرب علي و معاوية، و الميم ولاية بني مروان، و العين ولاية العباسيين، و السين ولاية السفيانيين، و القاف القدوة بالمهدي، إلي غير ما هنالك من الضلال.

ثانيا: قوله تعالي وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ «2» قالوا: القصاص المراد به قصص القرآن، و هو باطل لغة و شرعا، و قول لا يقول به إلا الجهلاء.

ثالثا: قوله تعالي وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي «3» قالوا: إن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه، و فسّروه بمعني و لكن ليسكن صديقي و هذا بعيد جدا.

---

(1) سورة الشوري، الآية: 1.

(2) سورة البقرة، الآية: 179.

(3) سورة البقرة، الآية: 260.

التبيان في علوم القرآن، ص: 182

رابعا: قوله تعالي رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ «1» قالوا: إنه الحبّ و العشق، ففسّروا ما لا طاقة للإنسان به بهذا التفسير الباطل، و هذا حكاه الكواشي في تفسيره.

خامسا: قوله تعالي وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ «2» قالوا: إنّه الذّكر إذا انتصب، و هذا بلا شك- جرأة غريبة، و وقاحة شنيعة لا تصدر إلّا من سفيه أحمق.

سادسا: قوله تعالي الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ «3» قالوا: المراد بالشجر الأخضر (إبراهيم) و نارا أي نورا (محمد) صلّي اللّه عليه و سلم، فإذا أنتم منه توقدون أي تقتبسون الدين «4». و هذا التفسير من الغرائب لا تدل عليه اللغة، و هو تأويل باطل لنصوص القرآن، و إن كان سبكه جميلا و عبارته لطيفة.

نماذج عن تفسير الشيعة:
الشيعة هم فرق عديدة، أسرفوا في حبّ الإمام (علي) كرّم اللّه وجهه، فمنهم من أغرق في نفس التشيّع حتي كفر، و علي رأس هؤلاء (ابن سبأ) اليهودي الخبيث الذي ما اعتنق الاسلام إلا بقصد الكيد له، و الدس فيه، و منهم من يعتقد بأن الأمين جبريل قد تاه و أخطأ في النزول، و أنه كان سينزل بالرسالة علي (علي) فأخطأ و نزل علي (محمد) و هؤلاء كانوا دائما في حرب و خصومة مع المسلمين، حتي ورد أنّ عليا نفسه شن الغارة عليهم و حاربهم و طاردهم علي كفرهم و ضلالهم.
و منهم أناس معتدلون، لم يسقطوا في هاوية الكفر، و إنما خالفوا أهل السنة و الجماعة، و اعتقدوا بأفضلية (علي) علي جميع الصحابة و أنه أفضل من أبي بكر و عمر و عثمان، و بأحقيته بالخلافة لأنه من آل البيت، و اعتقدوا بأن الخلفاء الثلاثة قد سلبوا

---

(1) سورة البقرة، الآية: 286.
(2) سورة الفلق، الآية: 3.
(3) سورة يس، الآية: 80.
(4) الإتقان، ج 2 ص 186 بتصرف

التبيان في علوم القرآن، ص: 183

عليا حقّه في توليهم الخلافة، و منهم من يفضّل عليا فقط، و منهم من لا يكتفي بذلك بل يشتم (الشيخين) أبا بكر و عمر، و يعتقد فيهم الضلال و العياذ باللّه، مع أنّ اللّه تعالي أثني عليهما في آيات عديدة و جعلهم من خاصة أصحاب نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة و السلام، و سنعرض إلي نماذج من تأويلات (الاثني عشرية) و الشيعة (السبئيّة) في كتاب اللّه الكريم.

من تفسيرات الشيعة (الاثني عشرية):
1- ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ «1» فسّروه بلقاء الإمام علي رضوان اللّه عنه.
2- يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ «2» الراجفة الحسين، و الرادفة أبوه علي كرم اللّه وجهه.
3- إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا «3» يعني بالذين آمنوا الأئمة الاثني عشرية.
4- لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ «4» أي لا تتخذوا إمامين إنما هو إمام واحد.
5- وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها «5» أي أشرقت بنور الإمام رضي اللّه عنه
6- مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ «6» الآية، فسروها بأنّ من لم يقرّ بولاية عليّ عليه السلام بطل عمله، و أصبح كالرماد الذي تحمله الريح فتذروه.

---

(1) سورة الحج، الآية: 29.
(2) سورة النازعات، الآية: 6.
(3) سورة المائدة، الآية: 55.
(4) سورة النحل، الآية: 51.
(5) سورة الزمر، الآية: 69.
(6) سورة إبراهيم، الآية: 18.
التبيان في علوم القرآن، ص: 184 7- يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً «1» أي من شيعة (أبي تراب) و هي كنية علي رضي اللّه عنه.

من تفسيرات السبئية:
1- السبئية من الشيعة، و هم يزعمون أنّ عليا كرّم اللّه وجهه في السحاب، و يفسرون الرعد بأنه صوت عليّ، و البرق لمعان سوطه أو تبسمه و إذا سمع أحدهم صوت الرعد يقول: عليك السلام يا أمير المؤمنين.
2- و من مزاعمهم أنهم يعتقدون بأن محمدا صلّي اللّه عليه و سلم سيرجع إلي الحياة الدنيا و يستدلون بقوله تعالي: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلي مَعادٍ «2» أي سيرجعك إلي الدنيا.
3- و في آية الأمانة إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا «3» يزعمون أنّ الظلوم الجهول هو (أبو بكر).
4- و في قوله تعالي: كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ .. «4» يفسرون الشيطان بأنه عمر «5» و من تفاسير الشيعة كتاب يسمي (مرآة الأنوار و مشكاة الأسرار) و هو مطبوع.
مؤلفه يدعي المولي (الكازلاني) من النجف. و هذا التفسير مشتمل علي تأويلات تشبه تأويلات الباطنية، فالأرض يفسّرها بالدين، و بالأئمة عليهم السلام، و بالشيعة، و بالقلوب التي هي محل العلم و قراره، و بأخبار الأمم الماضية .. الخ.

---

(1) سورة النبأ، الآية: 40.
(2) سورة القصص، الآية: 85.
(3) سورة الأحزاب، الآية: 72.
(4) سورة الحشر، الآية: 16.
(5) أنظر كتاب الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص 65، و الفرق بين الفرق للبغدادي.

التبيان في علوم القرآن، ص: 185
فيقول في قوله تعالي أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً «1» المراد دين اللّه و كتاب اللّه. و يقول في قوله تعالي: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ «2» المراد أ و لم ينظروا في القرآن الخ.
فأنت تري أنه قد حمل اللفظ الذي لا يجهله أحد، علي معان غريبة من غير دليل، و ما حمله علي ذلك إلّا مركب الهوي، و التعصب الأعمي لمذهبه، و ذلك لا شك ضلال لا يقل عن ضلال الباطنية و لا البهائية وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ «3».

تفسيرات الباطنية:

الباطنية قوم لا يقبلون الأخذ بظاهر القرآن، و إنما يقولون: إن القرآن له (ظاهر و باطن) و يعتقدون بأن المراد منه (الباطن) دون الظاهر، و يستدلون بقوله تعالي فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ، باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ، وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ «4».

و هم فرق متعدّدة نذكر أهمها:

1- الإسماعيلية: نسبة إلي (إسماعيل) أكبر أولاد جعفر الصادق و كانوا يعتقدون فيه الإمامة.

2- القرامطة: نسبة إلي (قرمط) إحدي قري واسط، و قد تزعمهم رجل منها اسمه (حمدان).

3- السبعية: نسبة إلي (السبعة) لأنهم يعتقدون أنّ في كل سبعة منهم إماما يقتدي به.

---

(1) سورة النساء، الآية: 97.
(2) سورة محمد، الآية: 10.
(3) سورة الرعد، الآية: 33. نقلا عن كتاب مناهل العرفان ج 1 ص 545.
(4) سورة الحديد، الآية: 13.

التبيان في علوم القرآن، ص: 186

4- الحرميّة: نسبة إلي (الحرمة) و ذلك لأن هؤلاء يستبيحون الحرمات و الفواحش «1».

نماذج عن تفسير الباطنية:
1- قوله تعالي لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ «2» قالوا: إنه إشارة إلي الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء، أي لتسلكن سبيل من قبلكم بالغدر في الأئمة بعد الأنبياء.
2- قوله تعالي قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ «3» يفسرونه (أو بدّله) أي بدّل عليا، و معلوم أن عليا لم يسبق له ذكر.
3- قوله تعالي إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا «4» قالوا: إن هذه الآية نزلت في أبي بكر و عمر و عثمان، آمنوا بالنبي أولا، ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية عليّ، ثم آمنوا بالبيعة لعلي، ثم كفروا بعد النبي، ثمّ ازدادوا كفرا بأخذ البيعة من كل الأمة «5».
4- قوله تعالي إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً «6» قالوا: المراد بالبقرة (عائشة) و المراد (اضربوه ببعضها) طلحة و الزبير.
5- قوله تعالي إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ «7» قالوا: المراد بهما أبو بكر و عمر، قاتلهم اللّه أنّي يؤفكون. و باختصار فمذهب الباطنية و باء و ضلال، انتقل إليهم من المجوس، و هم يؤولون (الجنابة) بإفشاء السرّ، و يؤولون (الغسل) بتجديد العهد، و

---

(1) أنظر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي.
(2) سورة الانشقاق، الآية: 19.
(3) سورة يونس، الآية: 15.
(4) سورة النساء، 137.
(5) أنظر: الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص 65.
(6) سورة البقرة، الآية: 67.
(7) سورة المائدة، الآية: 90.

(التيمم) بالأخذ عن المأذون، و (الصوم) بالإمساك عن كشف السر، إلي آخر ما لديهم من ضلالات و نجاسات. و هذه التأويلات الفاسدة، من أشد و أنكي ما يصاب به الإسلام و المسلمون، لأنها تؤدي إلي نقض بنيان الشريعة حجرا حجرا، و تجعل القرآن ألعوبة بين أيدي هؤلاء الأنعام، و من فضل اللّه أنّ كتبهم لم تظهر إلي الوجود، و أنهم يخفون هذا في نفوسهم، و ينفثون به بين كل حين و آخر، و هم إلي الزوال و الفناء إن شاء اللّه، و اللّه غالب علي

أمره و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون.
التبيان في علوم القرآن، ص: 189

اشهر كتب التفسير (بالرواية و الدراية و الاشارة) مع تعريف موجز عن أصحابها

1- تفسير ابن جرير:

1- تفسير ابن جرير:
مؤلفه هو ابن جرير الطبري، و كنيته (أبو جعفر) ولد سنة 224 ه و توفي سنة 310 ه، و كتابه من أجل التفاسير بالمأثور، و أصحها و أجمعها لأقوال الصحابة و التابعين، و يعتبر المرجع الأول للمفسرين، قال النووي: «كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنّف أحد مثله».

مزايا هذا التفسير:

مزايا هذا التفسير:

1- اعتماده علي المأثور من أقوال النبي صلّي اللّه عليه و سلم و الصحابة و التابعين.

2- عرضه للأسانيد و للأقوال المروية و ترجيحه للروايات.

3- إحاطته بالناسخ و المنسوخ من الآيات و معرفته لطرق الرواية صحيحها و سقيمها.

4- ذكره لوجوه الأعراب، و استنباط الأحكام الشرعية من الآيات الكريمة.

و أخيرا فهو كتاب عظيم جليل، حافل بالروائع، إلا أنه أحيانا أخبارا بأسانيد غير صحيحة، ثمّ لا ينبّه علي عدم صحتها، كما أنه يسوق بعض أخبار هي من (الروايات الإسرائيلية) و تفسيره مطبوع منتشر في الأقطار و هو عمدة لأكثر المفسّرين.

2- تفسير السمرقندي:

2- تفسير السمرقندي:
مؤلفه نصر بن محمد السمرقندي، و كنيته (أبو الليث توفي سنة 373 ه و كتابه يسمي (بحر العلوم) و هو تفسير بالمأثور، يذكر فيه كثيرا من أقوال الصحابة و التابعين، غير أنه لا يذكر الأسانيد، و هو مخطوط في مجلدين، و توجد نسخة منه في مكتبة الأزهر.
التبيان في علوم القرآن، ص: 191

3- تفسير الثعلبي:

3- تفسير الثعلبي:
مؤلف هذا التفسير هو أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، المقرئ المفسّر، كنيته (أبو إسحاق) و قد توفي سنة 427 ه أما ولادته فليست معروفة علي وجه الضبط، و كتابه يسمي (الكشف و البيان عن تفسير القرآن).
يفسّر القرآن بما ورد عن السلف، مع اختصاره للأسانيد، اكتفاء بذكرها في مقدمة الكتاب، و يتوسع في الأبحاث النحوية و الفقهية، و هو مولع بالقصص و الأخبار، و لهذا فإننا نجد في تفسيره قصصا اسرائيلية نهاية في الغرابة، بل منها ما هو باطل قطعا.
يقول ابن تيمية عنه: «الثعلبي في نفسه فيه خير و دين، و لكنه حاطب ليل» «1».
و تفسيره مخطوط غير كامل ينتهي إلي آخر سورة الفرقان و هو موجود بمكتبة الأزهر، و باقي الكتاب مفقود.

4- تفسير البغوي:
مؤلف هذا التفسير هو الحسين بن مسعود الفرّاء البغوي، الفقيه، المفسّر المحدّث الملقّب بمحيي السنة، كنيته (أبو محمد) توفي سنة 510 بعد أن جاوز الثمانين من العمر، و كان إماما جليلا، ورعا زاهدا، جامعا بين العلم و العمل، و قد عدّة السبكي من أعلام علماء الشافعية و قال ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير: «و البغوي في تفسيره مختصر من الثعلبي، و لكنه ضان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة، و الآراء المبتدعة «2»».
و قد طبع هذا التفسير مع تفسير ابن كثير. كما طبع مع تفسير الخازن. و تفسيره هذا فيه بعض القصص الإسرائيلية، و لكنه في جملته أحسن و أسلم من كثير من كتب التفسير بالمأثور.

---

(1) أنظر: أصول التفسير لابن تيمية ص 19.
(2) أصول التفسير لابن تيمية، ص 19.
التبيان في علوم القرآن، ص: 192

5- تفسير ابن عطية:
مؤلف هذا التفسير هو عبد الحق بن غالب بن عطيّة، الأندلسي، المغربي، الغرناطي، و كنيته (أبو محمد) ولد سنة 481 ه و توفي سنة 546 ه.
كان نحويا لغويا، أديبا شاعرا، علي غاية من الذكاء و الدهاء، و قد تولي القضاء بالأندلس في العصور الذهبية للإسلام، و تفسيره يسمي (المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) و قد جمع فيه مؤلفه الأقوال التي ذكرها علماء (التفسير بالمأثور) و تحرّي ما هو أقرب إلي الصحة منها.
و ابن تيمية في فتاواه يعقد مقارنة بين تفسير (ابن عطية) و تفسير (الزمخشري) فيقول: «و تفسير ابن عطيّة خير من تفسير الزمخشري، و أصح نقلا و بحثا و أبعد عن البدع، و أن اشتمل علي بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعلّه أرجح هذه التفاسير» «1».
و هذا الكتاب علي شهرته الواسعة، و مزاياه الفريدة، لا يزال مخطوطا إلي اليوم، و هو يقع في عشر مجلدات كبار، و لعلّ اللّه يوفق من يخرج لنا هذا الكنز الثمين، و يطبعه ليعم به نفعه.

6- تفسير ابن كثير:

مؤلف هذا التفسير هو الحافظ عماد الدين (اسماعيل بن عمرو بن كثير) القرشي الدمشقي كنيته (أبو الفداء) ولد سنة 700 ه و توفي سنة 774 ه.

كان ابن كثير رحمه اللّه جبلا شامخا، و بحرا ذاخرا في جميع العلوم و خاصة في التاريخ و الحديث و التفسير، و كان إماما جليلا متفنّنا في أسلوب الكتابة و التأليف، قال الذهبي عنه:

«الإمام المفتي، المحدّث البارع، فقيه متفنّن، محدّث متقن، مفسّر نقّال، و له تصانيف مفيدة».

---

(1) فتاوي ابن تيمية، ج 2 ص 142.

التبيان في علوم القرآن، ص: 193

و تفسيره هذا يسمي (تفسير القرآن العظيم) و هو من أشهر ما دوّن في التفسير بالمأثور، و يعتبر الكتاب الثاني بعد كتاب الطبري، اعتني فيه مؤلفه بالرواية عن مفسّري السلف، فروي الأحاديث و الآثار مسندة إلي أصحابها و تكلّم عن بعضها بالجرح و التعديل، و ردّ ما كان منها منكرا أو غير صحيح و هكذا يعتبر تفسيره من أحسن ما كتب في التفسير بالمأثور. و طريقته في التفسير أنه يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة، و يأتي لها بشواهد من آيات أخري، و يقارن بين هذه الآيات حتي يتبين المعني و يظهر المراد، و هو شديد العناية بهذا النوع من التفسير، الذي يسمونه (تفسير القرآن بالقرآن).

و أنا أنقل طرفا ممّا جاء في مقدمة تفسيره، يقول طيّب اللّه ثراه:

«فإن قال قائل فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أنّ أصح الطريق في ذلك أن يفسّر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنّة فإنها شارحة للقرآن و موضّحة له، بل قد قال الإمام الشافعي رحمه اللّه تعالي: كلّ ما حكم به رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم فهو ممّا فهمه من القرآن، قال اللّه تعالي إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ «1» و قال صلّي اللّه عليه و سلم:

«ألا و إني أوتيت القرآن و مثله معه» «2».

و مما يمتاز به (ابن كثير) أنه ينبّه إلي ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات و يحذّر منها، و علي الجملة فعلم ابن كثير يتجلي بوضوح لمن

يقرأ تفسيره و تاريخه، و هما من خير ما ألّف، و من أفضل ما كتب، و تفسيره هذه من أصح التفاسير بالمأثور إن لم يكن أصحها جميعا.

7- تفسير الجواهر:
مؤلف هذا التفسير هو الإمام الجليل عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي،

---

(1) سورة النساء، الآية: 105.
(2) أنظر: تفسير ابن كثير، ج 1 ص 3.
التبيان في علوم القرآن، ص: 194
الجزائري المغربي المتوفي سنة 876 ه و تفسيره هذا من التفسير بالمأثور نقل فيه أقوال السلف الصالح، و ميّز بين الصحيح و الضعيف، و تفسيره هذا مطبوع.

8- تفسير السيوطي:

8- تفسير السيوطي:
مؤلف هذا التفسير هو الإمام الحجة الثقة جلال الدين السيوطي، صاحب المؤلفات الشهيرة المولود سنة 749 المتوفي سنة 911 ه و تفسيره هو المسمي (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) قال في مقدمته: إنه لخصّه من كتاب ترجمان القرآن، و هو التفسير المسند إلي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم و هو مطبوع بمصر، و قد ذكر في كتابه الإتقان: أنه شرع في تفسير جامع لما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة، و الأقوال المعقولة، و الاستنباط و الإشارات و الأعاريب و اللغات، و نكت البلاغة و محاسن البديع و سمّاه (مجمع البحرين و مطلع البدرين) و هو غير هذا التفسير المسمّي بالدر، و قد احصيت مؤلفاته فبلغت قريبا من خمس مائة. رحمه اللّه تعالي علي ما قدّم في سبيل خدمة العالم و الدين.
التبيان في علوم القرآن، ص: 195

اشهر كتب التفسير بالدراية (بالرأي)
الرقم اسم الكتاب اسم المؤلف تاريخ الوفاة الشهرة 1 مفاتيح الغيب محمد بن عمر بن 606 ه تفسير الرازي الحسين الرازي 2 أنوار التنزيل عبد اللّه بن عمر 685 ه تفسير البيضاوي و أسرار التأويل البيضاوي 3 لباب التأويل في عبد اللّه بن محمد 741 ه تفسير الخازن معاني التنزيل المعروف بالخازن 4 مدارك التنزيل عبد اللّه بن أحمد النسفي 701 ه تفسير النسفي و حقائق التأويل 5 غرائب القرآن نظام الدين الحسن 728 ه تفسير النيسابوري و رغائب الفرقان محمد النيسابوري 6 ارشاد العقل السليم محمد بن محمد بن 952 ه تفسير أبي السعود مصطفي الطحاوي 7 البحر المحيط محمد بن يوسف بن 745 ه تفسير أبي حيّان حيان الأندلسي 8 روح المعاني شهاب الدين محمد 1270 ه تفسير الأوسي الألوسي البغدادي
التبيان في علوم القرآن، ص: 196
9 السراج المنير محمد الشربيني الخطيب 977 ه تفسير الخطيب 10 تفسير الجلالين 1- جلال الدين المحلي 864 ه تفسير الجلالين 2- جلال الدين السيوطي 911 ه
التبيان في علوم القرآن، ص: 197

التعريف بكتب التفسير بالرأي

1- تفسير الفخر الرازي:

1- تفسير الفخر الرازي:

مؤلف هذا التفسير هو العلامة الشيخ محمد بن عمر الرازي المتوفي سنة 606 ه و تفسيره يسمّي (مفاتيح الغيب) و قد سلك في تفسير، مسلك الحكماء الإلهيّين، فضاع أدلته في مباحث الإلهيات، و ردّ علي المعتزلة و الفرق الضّالة بالحجج الدامغة، و البراهين القاطعة، و تعرّض لشبهات المنكرين و الجاحدين بالنقض و التنفيد، و تفسيره من أوسع التفاسير في موضوع علم الكلام، كما أنه في العلوم الطبيعية و الكونية إمام جليل، فقد تكلّم عن الأفلاك و الأبراج و عن السماء و الأرض، و الحيوان و النبات، و في أجزاء الإنسان، بشكل واسع و غرضه نصرة الحق و إقامة البراهين علي وجود اللّه عز و علا.

و الرد علي أهل الزيغ و الضلال.

2- تفسير البيضاوي:
مؤلف هذا التفسير هو العالم الجليل الشيخ عبد اللّه البيضاوي المتوفي سنة 685 ه، و تفسيره يسمي (أنوار التنزيل) و هو كتاب جليل دقيق، جامع بين الرواية و الدراية و هو يقرر الأدلة علي مذهب أهل السنّة، و هو حجة ثبت، و قد التزم أن يختم كل سورة بما روي في فضلها من الأحاديث، غير أنه لم يتحر الصحيح، و له حواش عديدة أشهرها حاشية الشهاب الخفاجي و حاشية سعدي افندي.
التبيان في علوم القرآن، ص: 198

3- تفسير الخازن:
مؤلف هذا التفسير الإمام عبد اللّه بن محمد المشهور بالخازن المتوفي سنة 741 ه و تفسيره يسمي (لباب التأويل في معاني التنزيل) و هو تفسير مشهور يعني بالمأثور، بيد أنه لا يذكر السند، و عبارته سهلة لا تعقيد فيها، و لا غموض و له ولوع بالتوسع في الروايات و القصص، و قد يذكر في تفسيره بعض الروايات الإسرائيلية لينبّه علي ما فيها من باطل، فيسوق القصة الطويلة ثم يحكم عليها بالضعف او الكذب، و لكنه في بعض الأحيان يسكت عنها حتي يظنّ القارئ أنّ هذه الرواية صحيحة، و بالجملة فتفسيره حسن رائع لو لا كثرة ما فيه من قصص و روايات لا يحسن ذكرها لكونها ضعيفة أو مكذوبة.

4- تفسير النسفي:
مؤلف هذا التفسير هو الشيخ العالم الزاهد عبد اللّه بن أحمد النسفي المتوفي سنة 701 و تفسيره يسمي (مدارك التنزيل و حقائق التأويل) و هو تفسير جليل، متداول مشهور، سهل و دقيق، يعتبر بالنسبة لبقية التفاسير بالرأي أوجز تفسير و أوسطه، قال فيه صاحب كشف الظنون: «هو كتاب وسط في التأويلات جامع لوجوه الإعراب و القراءات، متضمن لدقائق علم البديع و الإشارات، مرشح لأقاويل أهل السنة و الجماعة، خال من أباطيل أهل البدع و الضلالة، ليس بالطويل الممل، و لا بالقصير المخل ..» اه.

5- تفسير النيسابوري:

مؤلف هذا التفسير هو الشيخ نظام الدين الحسن محمد النيسابوري المتوفي 728 ه و تفسيره يسمي (غرائب القرآن و رغائب الفرقان) و يمتاز هذا التفسير بسهولة عبارته و بتحقيق ألفاظه، مع خلّوه من الحشو و التعقيد، و قد عني بأمرين يلتزمهما: الكلام علي القراءات، و الكلام علي التفسير الإشاري، و هو مطبوع طبعة شهيرة علي هامش تفسير ابن جرير، و هو مختصر لتفسير الفخر الرازي مع تهذيب كبير.

التبيان في علوم القرآن، ص: 199

6- تفسير أبي السعود:
مؤلف هذا التفسير العالم اللغوي، الحجة الضليع، القاضي محمد بن محمد بن مصطفي الطحاوي، المشهور بأبي السعود، المتوفي سنة 952 ه و تفسيره هذا يعتبر من أحسن التفاسير و أجمعها، لأنه غاية في حسن الصوغ، و جمال التعبير، كشف فيه عن أسرار البلاغة القرآنية، و الحكم الربانية، يستهويك حسن تعبيره، و يروقك سلامة تفكيره، و يروعك ما أخذ نفسه به من تجلية بلاغة القرآن، و العناية في بيان إعجازه، مع سلامة في الذوق، و محافظة علي عقائد أهل السنة، و بعد عن الحشو و التطويل، و تفسيره دقيق يحتاج لفهمه الخاصة من أهل العلم.

7- تفسير أبي حيان:

مؤلف هذا التفسير هو الشيخ محمد بن يوسف بن حيّان الأندلسي المتوفي سنة 745 ه و تفسيره يسمي (البحر المحيط) و هو في ثماني مجلدات ضخمة و قد جمع المؤلف فيه فنون العلوم من نحو و صرف و بلاغة و أحكام فقهية إلي غير ما هنالك و يعتبر هذا التفسير مرجعا هاما من مراجع التفسير، و عبارته سهلة ليس فيها تعقيد أو غموض، و سمّاه البحر المحيط لكثرة ما فيه من علوم متنوعة تتعلق بمادة التفسير.

8- تفسير الألوسي:
مؤلف هذا التفسير هو الإمام العالم الجهبذ شهاب الدين السيد محمود الألوسي المتوفي سنة 1270 ه مفتي بغداد، حجة الأدباء، و قدوة العلماء، و مرجع أهل الفضل و العرفان، كان رحمه اللّه علي جانب عظيم من الفهم و العلم وسعة الاطلاع، و كتابه المسمّي (روح المعاني) جامع لآراء السلف رواية و دراية، مشتمل علي أقوال أهل العلم، جامع لخلاصة ما سبقه من التفاسير، و هو شديد النقد للروايات الإسرائيلية، يعتني بالتفسير الإشاري، و بوجوه البلاغة و البيان، و يعتبر تفسيره من خير المراجع في علم التفسير بالرواية و الدراية و الإشارة.
التبيان في علوم القرآن، ص: 200

أشهر تفاسير آيات الأحكام
الرقم* اسم الكتاب و مذهب* اسم المؤلف* تاريخ الوفاة الشهرة 1* أحكام القرآن (حنفي)* أحمد بن علي الرازي الجصاص* 370 ه* تفسير الجصاص 2* أحكام القرآن (شافعي)* علي بن محمد الطبري لكيا الهراسي* 504 ه* تفسير لكيا الهراسي 3* الإكليل في استنباط التنزيل (شافعي)* جلال الدين السيوطي* 911 ه* تفسير السيوطي 4* أحكام القرآن (مالكي)* محمد بن عبد اللّه الأندلسي* 543 ه* تفسير ابن العربي 5* الجامع لأحكام محمد بن أحمد بن 671 ه تفسير القرطبي القرآن (مالكي)* فرح القرطبي* 671 ه* تفسير القرطبي 6* كنز العرفان (شيعي)* مقداد بن عبد اللّه السيوري* التاسع الهجري* تفسير السيوري 7* لثمرات اليانعة (زيدي)* يوسف بن أحمد الثلاثي* 832 ه* تفسير الزيدي

التبيان في علوم القرآن، ص: 201

اشهر كتب التفسير الاشاري
الرقم* اسم الكتاب* اسم المؤلف* الشهرة 1* تفسير القرآن الكريم* سهل بن عبد اللّه التستري* تفسير التستري 2* حقائق التفسير* أبو عبد الرحمن السّلمي* تفسير السلمي 3* الكشف و البيان* أحمد بن إبراهيم النيسابوري* تفسير النيسابوري 4* تفسير ابن عربي* محيي الدين بن عربي* تفسير ابن عربي 5* روح المعاني* شهاب الدين محمد الألوسي* تفسير الألوسي

التبيان في علوم القرآن، ص: 202

(اشهر تفاسير المعتزلة و الشيعة)
الرقم* اسم الكتاب و المذهب* اسم المؤلف* تاريخ الوفاة* الشهرة 1* تنزيه القرآن عن المطاعن (معتزلي)* عبد الجبار بن أحمد الهمذاني* 415 ه* تفسير الهمذاني 2* أمالي الشريف المرتضي (معتزلي)* علي بن أحمد الحسين* 436 ه* تفسير المرتضي 3* الكشاف (معتزلي) محمود بن عمر الزمخشري* 538 ه* تفسير الزمخشري 4* مرآة الأنوار و مشكاة الأسرار (شيعي)* عبد اللطيف الكازراني)* غير معروف* تفسير المشكاة 5* تفسير العسكري (شيعي)* الحسن بن علي الهادي* 260 ه* تفسير العسكري 6* مجمع البيان (شيعي) الفضل بن الحسن الطبرسي* 538 ه* تفسير الطبرسي 7* الصافي في تفسير القرآن (شيعي)* محمد بن الشاه مرتضي الكاشي* 1090 ه* تفسير الكاشي 8* تفسير القرآن (شيعي)* عبد اللّه بن محمد العلوي* 1242 ه* تفسير العلوي 9* بيان السعادة (شيعي) سلطان محمد بن حيدر الخراساني* 1315 ه* تفسير الخراساني
التبيان في علوم القرآن، ص: 203

اشهر كتب التفسير في العصر الحديث
الرقم* اسم الكتاب* اسم المؤلف* الشهرة 1* تفسير القرآن الكريم* محمد رشيد رضا* تفسير المنار 2* تفسير المراغي* أحمد مصطفي المراغي* تفسير المراغي 3* محاسن التأويل* جمال الدين القاسمي* تفسير القاسمي 4* في ظلال القرآن* الشهيد سيد قطب* تفسير الظلال 5* التفسير الواضح* محمد محمود الحجازي* التفسير الواضح 6* تفسير الجواهر* طنطاوي جوهري* تفسير الجوهري 7* تيسير التفسير* الشيخ عبد الجليل عيسي* تفسير عيسي 8* المصحف المفسّر* محمد فريد و جدي* تفسير و جدي 9* الهداية و العرفان* أبو زيد الدمنهوري* تفسير الدمنهوري 10* صفوة البيان* حسنين مخلوف* تفسير مخلوف 11* فتح البيان* صدّيق حسن خان* تفسير حسن خان و هناك تفاسير أخري غير هذه التفاسير السابقة لم نذكرها خشية التطويل و اللّه الموفق و الهادي إلي سواء السبيل.
التبيان في علوم القرآن، ص: 205

فصل

(في التنبيه علي أحاديث وضعت في فضل سور القرآن)

قال العلامة القرطبي في مقدمة تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) في باب التنبيه علي الأحاديث الموضوعة في فضل سور القرآن ما يلي:

«لا التفات لما وضعه الواضعون، و اختلقه المختلقون، من الأحاديث الكاذبة، و الأخبار الباطلة، في فضل سور القرآن، و غير ذلك من فضائل الأعمال، قد ارتكبها جماعة كثيرة، اختلفت أغراضهم و مقاصدهم في ارتكابها.

1- فمنهم قوم من الزنادقة مثل (المغيرة الكوفي) و (محمد الشامي) المصلوب و غيرهما وضعوا أحاديث، و حدّثوا بها ليقعوا بذلك (الشكّ) في قلوب الناس، منها ما رواه الشامي عن أنس بن مالك عن رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم أنه قال: «أنا خاتم النبيّين لا نبيّ بعدي إلا ما شاء اللّه» فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه الإلحاد و الزندقة.

2- و منهم جماعة وضعوا الحديث (هوي) يدعون الناس إليه، قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب: «إنّ هذه الأحاديث دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم، فإنّا كنّا إذا هوينا أمرا صيّرناه حديثا».

3- و منهم جماعة وضعوا الحديث (حسبة) كما زعموا، يدعون الناس إلي فضائل الأعمال كما روي عن (أبي عصمة المروزيّ) قيل له: من أين لك عن عكرمة

التبيان في علوم القرآن، ص: 206

عن ابن عباس، في فضل سور القرآن سورة سورة؟

فقال: إني رأيت الناس قد اعرضوا عن القرآن، و اشتغلوا بفقه أبي حنيفة و مغازي ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة «1». قال ابن الصلاح: و هكذا الحديث الطويل الذي يروي عن (أبي بن كعب) عن النبي في فضل القرآن سورة سورة، و قد بحث باحث عن مخرجه حتي انتهي إلي من اعترف بأنه و جماعة وضعوه، و إن أثر الوضع عليه لبين، و قد أخطأ الواحدي المفسّر، و من ذكره من المفسّرين في إيداعه في تفاسيرهم.

4- و منهم قوم من السؤال «2» يقفون في الأسواق و المساجد، فيضعون علي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد.

قال جعفر بن الطيالسي:

«صلي أحمد بن حنبل، و يحيي بن معين، في مسجد الرّصافة، فقام بين أيديهما قاصّ (محدّث) فقال: حدّثنا أحمد بن حنبل، و يحيي بن معين قالا أنبأنا عبد الرزاق، قال أنبأنا معمر، عن قتادة، عن أنس قال قال رسول اللّه

صلّي اللّه عليه و سلّم: «من قال لا إله إلا اللّه، يخلق من كلّ كلمة منها طائر، منقاره من ذهب، و ريشه مرجان»، و أخذ في قصة نحوا من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلي يحيي، و يحيي ينظر إلي أحمد، فقال: أنت حدّثته بهذا؟ فقال: و اللّه ما سمعت به الّا هذه الساعة، فسكتا حتي فرغ من قصصه فقال له يحيي: من حدّثك بهذا الحديث فقال: أحمد بن حنبل، و يحيي بن معين، فقال:

أنا ابن معين، و هذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قطّ في حديث رسول اللّه، فإن كان و لا بدّ من الكذب فعلي غيرنا فقال له: أنت يحيي بن معين؟ قال: نعم، قال: لم أزل أسمع أنّ يحيي بن معين أحمق، و ما علمته إلّا هذه الساعة، فقال له يحيي: و كيف علمت أني أحمق؟ قال: كأنه ليس في الدنيا يحيي بن معين، و أحمد بن حنبل غيركما.

---

(1) حسبة: أي لوجه اللّه و ترغيبا في الدين.

(2) السّؤال: جمع سائل الذي يسأل الناس المعونة.

التبيان في علوم القرآن، ص: 207

كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا، قال: فوضع أحمد كمّه علي وجهه و قال: دعه يقوم، فقام كالمستهزئ بهما.

قال القرطبي: فهؤلاء الطوائف كذبة علي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم و من يجري مجراهم .. ثم قال: فلو اقتصر الناس علي ما ثبت في الصحاح و المسانيد و غيرهما من المصنفات التي تداولها العلماء، و رواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم في ذلك غنية، و خرجوا عن تحذيره صلّي اللّه عليه و سلّم حيث قال: «من كذب عليّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار».

فحذار مما وضعه أعداء الدين، و زنادقة المسلمين، في باب الترغيب و الترهيب و غير ذلك، و أعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلي الزهد، وضعوا الحديث حسبة فيما زعموا. فتقبّل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، و ركونا إليهم، فضلوا و أضلوا «1».»

هل في القرآن ألفاظ غير عربية؟
من المقطوع به أن القرآن نزل بلسان العرب، و أنه كتاب عربي. نزل علي أمة عربية بلسان عربي مبين، ليكون منهاجا لحياتهم، و دستورا لمجتمعهم و ليعتبروا به و يذكروا بما فيه لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ، وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ «2» و قد تضافرت النصوص القرآنية الكثيرة. علي أن القرآن «عربي» في نظمه و في لفظه. و في أسلوبه و في تركيبه و أنه ليس فيه ما يخالف طريقة العرب في المفردات و الجمل و الأسلوب و الخطاب. من هذه النصوص الكريمة ما يلي:
1- قوله تعالي لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ* بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ «3» 2- و قوله تعالي: كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «4»

---

(1) أنظر: تفسير القرطبي، ج 1 ص 78.
(2) سورة ص، الآية: 29.
(3) سورة الشعراء، الآيتان: 194، 195.
(4) سورة فصلت، الآية: 3.

3- و قوله جل ثناؤه إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «1» 4- و قوله جل علا قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ «2» و قد أجمع العلماء علي أن القرآن عربي، و لكن اختلفوا هل فيه ألفاظ مفردة من غير كلام العرب؟ علي مذهبين:
آ- المذهب الأول: مذهب الجمهور و علي رأسهم القاضي (أبو بكر ابن الطيب) و شيخ المفسرين (ابن جرير الطبري) و (الباقلاني) و غيرهم من العلماء الأعلام قالوا: إن القرآن عربي كلّه، و ليس فيه ألفاظ أو مفردات من غير كلام العرب، و ما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلي سائر اللغات، فإنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها، فتكلمت بها العرب، و الفرس، و الحبشة و غيرهم.
ب- المذهب الثاني: مذهب طائفة من العلماء قالوا: إنّ في القرآن بعض ألفاظ ليس عربية، و أنّ تلك الألفاظ لقلتها، لا تخرج القرآن عن كونه عربيا مبينا، فمثلا لفظ (المشكاة) بمعني الكوة، و لفظ (الكفل) بمعني الضعف، و لفظ (قسورة) بمعني الأسد كل هذه الألفاظ هي بلسان الحبشة و هي ألفاظ غير عربية.
و كذلك لفظ (القسطاس) بمعني الميزان بلسان الروم.
و لفظ (السجيل) بمعني الحجارة و الطين بلسان الفرس.

و لفظ (الغساق) بمعني البارد المنتن بلسان الترك.
و لفظ (اليم) بمعني البحر، و (الطور) بمعني الجبل بلسان السريانية.

قال ابن عطية:
«فحقيقة العبارة أنّ هذه الألفاظ في الأصل (أعجمية) لكنّ العرب استعملتها و عرّبتها فهي عربية بهذا الوجه، و قد كان للعرب مخالطة لجيرانهم من سائر الألسنة فعلقت العرب بألفاظ أعجمية، استعملتها في أشعارها و محاوراتها، حتي جرت مجري

---

(1) سورة يوسف، الآية: 2.
(2) سورة الزمر، الآية: 28.
التبيان في علوم القرآن، ص: 209
العربي الصحيح، و علي هذا الحدّ نزل بها القرآن «1» ..».

أدلة الجمهور:
و قد استدل الجمهور ببعض الأدلة التي تثبت أن القرآن عربي و ليس فيه ألفاظ غير عربية و فيه أسماء أعلام لمن لسانه غير لسان العرب، مثل (اسرائيل) و (جبرئيل) و (عمران) و (نوح) و (لوط). و قد استدل الجمهور بما يلي:
أولا: الآيات القرآنية السابقة التي أثبتت أن هذا القرآن عربيّ كله في لفظه، و أسلوبه، و نظمه، و تركيبه، فقد أخبر اللّه عز و جل عن القرآن بأنه عربي فقال تعالي قُرْآناً عَرَبِيًّا و تكرّر هذا اللفظ في آيات عديدة و معلوم أنّ لفظ القرآن عام يشمل جميع السور و الآيات، و يشمل كلّ الألفاظ و المفردات.
ثانيا: إن القرآن نزل بلغة العرب ليفهموه و يعقلوه و يتدبروا معانيه، و يستحيل ان يخاطب اللّه تعالي قوما بما لا يعلمون، كيف و الآيات صريحة في انزاله بلغة العرب للاعتبار و العمل إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «2» و قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «3» و هذا ينفي أن يكون فيه ألفاظ غير عربية.
ثالثا: إنّ اللّه تعالي قد ردّ علي المشركين حين زعموا أن محمدا صلّي اللّه عليه و سلّم تلقّي هذا القرآن عن بعض أهل الكتاب (جبر الرومي) و أقام الحجة عليهم باختلاف اللسانين قال تعالي وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ «4» فالقرآن عربي و ذلك أعجمي و شتّان بينهما.
رابعا: لو كان في هذا القرآن شيء ليس من لغة العرب، أو لا يفهمه العرب، أو ألفاظ (أعجمية) غير عربية، لأعلن المشركون اعتراضهم علي القرآن، و احتجوا

---

(1) انظر: تفسير القرطبي، ج 1 ص 68.
(2) سورة يوسف، الآية: 2.
(3) سورة فصلت، الآية: 3.
(4) سورة النحل، الآية: 103.

بذلك علي عدم صدق الرسول كما قال تعالي وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا: لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ، ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ .. «1» الآية.
خامسا: إن ما وجد في القرآن من ألفاظ تنسب إلي سائر اللغات، فإنما هو من باب (توارد اللغات و اتفاقها بمعني أن هذه اللفظة تكلم بها العرب، و

تكلم بها الفرس، و العجم، و تكلم بها غيرهم، فهي ممّا اتفقت عليه اللغات لا يعني أن هذه الألفاظ غير عربية، فإذا تكلم بها العرب فهي عربية، و إذا تكلم بها غيرهم أو استعملها الأعاجم فلا يخرجها عن كونها عربية.

الترجيح:

و الصحيح ما ذهب إليه (الطبري) و جمهور العلماء من أنّ القرآن كله عربي، و هو ما تشهد له النصوص الكثيرة، و الحجج الدامغة القوية التي احتج بها العلماء.

و قد انتصر العلامة القرطبي لرأي الجمهور، و ردّ الرأي الثاني، و قال- بعد أن ذكر المذهبين- إن الأول أصح، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطب بها او لا، فإن كان الأول فهي من كلامهم، و لا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم علي بعض كلماتهم.

و إن لم تكن العرب تخاطبت بها، و لا عرفتها استحال أن يخاطبهم اللّه بما لا يعرفون، و حينئذ لا يكون القرآن عربيا، و لا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم».

اه «2».

بحث ترجمة القرآن

معني الترجمة:
ترجمة القرآن معناها نقل القرآن إلي لغات أجنبية أخري غير اللغة العربية و طبع

---

(1) سورة فصلت، الآية: 44. و معني الآية: لو أنزلنا القرآن بغير لغتهم، و جعلناه باللغة الأعجمية لقالوا: هلا بينت آياته و نزلت كلماته بلغتنا العربية لنتفهمه و نتدبره؟ (أ عربي و عجمي)؟ أي رسول عربي و قرآن أعجمي؟ كيف يكون ذلك؟ و كيف ينزل القرآن الأعجمي علي الرسول العربي؟
(2) انظر: تفسير القرطبي، ج 1 ص 69.
التبيان في علوم القرآن، ص: 211
هذه الترجمة في نسخ ليطلع عليها من لا يعرف اللغة العربية (لغة القرآن) و يفهم مراد اللّه عز و جلّ من كتابه العزيز بواسطة هذه الترجمة.

أنواع الترجمة:

أنواع الترجمة:
و تنقسم هذه الترجمة إلي قسمين:
الأول: الترجمة الحرفية.
الثاني: الترجمة التفسيرية.
و المراد بالقسم الأول (الحرفية) أن يترجم القرآن بألفاظه و مفرداته و جمله و تركيبه ترجمة طبق الأصل إلي اللغة الانجليزية، أو الألمانية، أو الفرنسية.
مثلا فيقال: (القرآن باللغة الانجليزية) أو (القرآن باللغة الألمانية) و هكذا فهي تشبه وضع المرادف مكان مرادفه، و بعض الناس يسمي هذه الترجمة (ترجمة لفظية).
و أما القسم الثاني (التفسيرية) فهو يترجم معني الآيات الكريمة، بحيث لا يتقيد الإنسان باللفظ، و إنما يكون همّه المعني، فيترجم القرآن بألفاظ لا يتقيد بها بالمفردات و التراكيب، و إنما يعمد إلي الأصل فيفهمه. ثمّ يصبّه في قالب يؤديه من اللغة الأخري و يكون هذا المعني موافقا لمراد صاحب الأصل من غير أن يكلف نفسه عناء البحث و الوقوف عند كل مفرد من المفردات، أو لفظة من الألفاظ. و هذا النوع يسمي (الترجمة الحرفية) أو الترجمة المعنوية.

شروط الترجمة:

شروط الترجمة:

و يشترط للترجمة سواء كانت حرفية، أو تفسيرية، شروط عدة نوجزها فيما يلي:

1- أن يعرف (المترجم) بكسر الجيم اللغتين معا، لغة الأصل، و لغة الترجمة.

2- أن يكون ملما بأساليب و خصائص اللغات التي يود ترجمتها.

3- أن تكون (صيغة الترجمة) صحيحة بحيث يمكن أن تحل محل الأصل.

التبيان في علوم القرآن، ص: 212

4- أن تفي الترجمة بجميع معاني الأصل و مقاصده وفاء كاملا كما يشترط للترجمة (الحرفية) زيادة علي هذه الشروط شرطان آخران:

الأول: وجود مفردات كاملة في لغة الترجمة، مساوية للمفردات التي هي لغة الأصل.

الثاني: تشابه اللغتين في الضمائر المستترة، و الروابط التي تربط الجمل لتأليف التركيب.

هل تجوز الترجمة الحرفية للقرآن؟

و علي ضوء ما سبق من تقسيم الترجمة إلي حرفية، و تفسيرية، و معرفة معني كلّ منهما، و الشروط التي ينبغي أن تتوفر في الترجمة، يتضح لنا أنّ (الترجمة الحرفية) غير جائزة، و غير صحيحة و ذلك للأسباب الآتية:

أولا: أنه لا يجوز كتابة القرآن بغير أحرف اللغة العربية لئلا يقع التحريف و التبديل.

ثانيا: إنّ اللغات (غير العربية) ليس فيها من الألفاظ و المفردات و الضمائر ما يقوم مقام الألفاظ العربية.

ثالثا: إن الاقتصار علي الألفاظ قد يفسد المعني، و المفردات و الضمائر ما يقوم مقام الألفاظ العربية.

ثالثا: إن الاقتصار علي الألفاظ قد يفسد المعني، و يسبب الخلل في التعبير و النظم.

و لنضرب بعض الأمثلة علي ذلك ليتوضح الأمر فنقول:

لو أردنا ترجمة الآية الكريمة و هي قوله تعالي وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلي عُنُقِكَ، وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً «1» فإذا أردنا ترجمتها ترجمة حرفية، فإنّ الترجمة تكون كالآتي: (لا تجعل يدك مربوطة إلي عنقك، و لا تمدّها كل المد) إلي آخره و هو معني فاسد لم يقصده القرآن الكريم بل قد يستنكر المترجم له هذا الوضع، فيقول: لما ذا ينهانا اللّه عن ربط اليد بالعنق، أو مدها غاية المدّ؟

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 29.

التبيان في علوم القرآن، ص: 213

فالتعبير الذي جاء في القرآن إنما هو من (باب التمثيل) لبيان عاقبة الإسراف أو الشح، و هو معني من أروع المعاني لا يدركه إلّا من فهم أساليب العرب في التخاطب بالأسلوب البليغ. و كذلك قوله تعالي وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ «1» فإن هذا اللفظ لا يمكن ترجمته ترجمة حرفية لوجود نوع خاص من التعبير البليغ يسمي ب (الاستعارة المكنية) و هذا لا يوجد في غير اللغة العربية، و مثله قوله تعالي قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ «2» و قوله تَجْرِي بِأَعْيُنِنا «3» و مثله كذلك قوله تعالي هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ «4» فإذا ترجمناها ترجمة حرفية يفسد المعني تماما، و يصبح ضربا من الهذيان في الكلام و أمثال هذا كثير و فساده واضح.

ترجمة القرآن بالمعني:
أما ترجمة القرآن بالمعني فهي جائزة بالشروط المتقدمة، و هي لا تسمي (قرآنا) و إنما تسمّي تفسيرا للقرآن. ذلك لأن اللّه تعبدنا بألفاظ القرآن، و لم يتعبدنا بغيره من الكلام. فكلام الرسول صلّي اللّه عليه و سلّم تجوز روايته بالمعني بأن نقول قال رسول اللّه: ما معناه، و لكن القرآن لا يجوز روايته بالمعني، فلا يصح ان نقول: قال اللّه تعالي ما معناه، بل لا بدّ من تلاوة النص بحروفه و ألفاظه لأنه موحي به من عند اللّه، و لأنه معجز بلفظه و معناه.
فالترجمة في الحقيقة هاهنا ليست ترجمة للقرآن، و إنما هي ترجمة لمعاني القرآن، او ترجمة لتفسير القرآن، و قد أنزل اللّه كتابه الي الخلق اجمعين، ليكون مصدر هداية، و إرشاد و إسعاد لهم، فلا مانع لنا ان ننقل معاني القرآن إلي الامم الأخري ممن لا يعرفون اللغة العربية، ليستنيروا بهذا القرآن و يقبسوا من هديه و إرشاده. و هذا بلا شك غرض من أغراض القرآن إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ «5».

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 24.
(2) سورة يونس، الآية: 2.
(3) سورة القمر، الآية: 14.
(4) سورة البقرة، الآية: 187.
(5) سورة الاسراء، الآية: 9.
التبيان في علوم القرآن، ص: 214
فترجمة القرآن بهذا المعني يجيزها العلماء بل هي واجبة علي المسلمين ليبلغوا الناس دعوة اللّه، و يحملوا اليهم هداية القرآن، و بغير هذه الترجمة لا يمكن أن يدرك الناس عظمة هذه الشريعة، و روعة هذا الدين، و جمال هذا القرآن و اللّه يقول الحقّ و هو يهدي السبيل.
التبيان في علوم القرآن، ص: 215

الفصل التاسع نزول القرآن علي سبعة أحرف و القراءات المشهورة

تمهيد

لما خلق اللّه الخلق، جعل لكل منهم شرعة و منهاجا، و كان للعرب لهجات متعددة، اكتسبوها من فطرتهم، و اقتبسوا بعضها من جيرانهم، و كانت لغة (قريش) لها الصدارة و الذيوع لأسباب عدة منها: اشتغالهم بالتجارة و وجودهم عند بيت اللّه الحرام و قيامهم علي السدانة و الرفادة، و كان القرشيون يقتبسون بعض اللهجات و الكلمات التي تعجبهم من غيرهم، و كان من الطبيعي، أن ينزل اللّه احكم الحاكمين القرآن، باللغة التي يفهمها العرب أجمع لتيسير فهمها و للاعجاز و التحدي لأرباب الفصاحة بالاتيان بسورة او بآية و تيسير قراءته و فهمه و حفظه لهم، لأنه نزل بلغتهم كما قال جلّ ثناؤه:

إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «1».

أدلة نزول القرآن علي سبعة أحرف:
أولا: روي البخاري و مسلم في صحيحهما عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال:

---
(1) سورة يوسف، الآية: 2.
التبيان في علوم القرآن، ص: 216
قال رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم: «اقرأني جبريل علي حرف فراجعته فلم أزل أستزيده و يزيدني حتي انتهي الي سبعة أحرف» «1» زاد مسلم: (قال ابن شهاب: بلغني ان تلك السبعة في الأمر الذي يكون واحدا لا يختلف في حلال و لا حرام).
ثانيا: روي البخاري و مسلم- و اللفظ للبخاري- ان عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال (سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم فاستمعت. لقراءته فإذا هو يقرؤها علي حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم فكدت أساوره في الصلاة فانتظرته حتي سلم ثم لبيته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: اقرأنيها رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم قلت له: كذبت، فو اللّه إن رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت اقوده الي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم فقلت:
يا رسول اللّه اني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان علي حروف لم تقرئنيها و أنت أقرأتني سورة الفرقان فقال رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم، أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها قال رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم: هكذا أنزلت، ثم قال: «إن هذا القرآن أنزل علي سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه».
و في بعض الروايات ان رسول اللّه استمع إلي قراءة عمر أيضا و قال: هكذا انزلت.
ثالثا: روي مسلم بسنده عن أبي بن كعب قال: (كنت في المسجد، فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر، فقرأ قراءة سوي قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا علي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم، فقلت: إن هذا قرأ قراءة انكرتها عليه، و دخل آخر فقرأ سوي قراءة صاحبه فأمرهما رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم فقرءا، فحسن النبي صلّي اللّه عليه و سلم شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب و لا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقا، و كأنما انظر الي اللّه

(1) صحيح البخاري، ج 3، ص 227 و صحيح مسلم، ج 1، ص 561 بسندهما عن عبيد اللّه بن عبد اللّه ابن عتبة.

عز و جل فرقا فقال لي: يا أبي، أرسل إلي ان اقرأ القرآن علي حرف فرددت إليه: أن هوّن علي أمتي، فرد الي الثانية اقرأه علي حرفين، فرددت إليه: أن هون علي أمتي، فردّ إلي الثالثة: اقرأه علي سبعة أحرف، و لك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها فقلت «اللهم اغفر لامتي و أخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق، كلهم حتي إبراهيم صلّي اللّه عليه و سلم» أه.

قال القرطبي «فكان هذا الخاطر (يشير إلي ما سقط في نفس أبي) من قبيل ما قال فيه النبي صلّي اللّه عليه و سلم حين سألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم. طال ذلك صريح الإيمان» رواه مسلم.

رابعا: روي الحافظ أبو يعلي في مسنده الكبير أن عثمان رضي اللّه عنه قال يوما و هو علي المنبر: «أذكر اللّه رجلا سمع النبي صلّي اللّه عليه و سلم قال: إن القرآن أنزل علي سبعة أحرف كلها شاف كاف» لما قام. فقاموا حتي لم يحصوا، فشهدوا أن الرسول صلّي اللّه عليه و سلم قال (أنزل القرآن علي سبعة حروف كلها شاف كاف). فقال عثمان رضي اللّه عنه:

(و أنا أشهد معهم).

خامسا: روي مسلم بسنده عن أبي بن كعب أن النبي صلّي اللّه عليه و سلم كان عند أضاة «1» بني غفار قال: (فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن اللّه يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن علي حرف. فقال: أسأل اللّه معافاته و مغفرته، و إن أمتي لا تطيق ذلك. ثم أتاه الثانية فقال: ان اللّه يأمرك ان تقرا أمتك القرآن علي حرفين. فقال: أسأل اللّه معافاته و مغفرته، و إن أمتي لا تطيق ذلك. ثم جاءه الثالثة فقال: إن اللّه يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن علي ثلاثة أحرف. فقال: أسأل اللّه معافاته و مغفرته و إن أمتي لا تطيق ذلك. ثم جاءه الرابعة فقال إن اللّه يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن علي سبعة أحرف. فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا) أ. ه.

سادسا: روي الترمذي عن أبي بن كعب أيضا قال: لقي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم جبريل

(1) أضاة بني غفار: مستنقع الماء كالغدير. و هو موضع بالمدينة نسب إلي بني غفار لأنهم نزلوا عنده.

أحجار المروة. قال: فقال رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم لجبريل: إني

بعثت إلي أمة أميين، فيهم شيخ الفاني، و العجوز الكبير، و الغلام، قال: «فمرهم فليقرءوا القرآن علي سبعة احرف» قال الترمذي: حسن صحيح.
و في لفظ: (فمن قرأ بحرف منها فهو كما قرأ).
و في لفظ حذيفة: «فقلت يا جبريل إني أرسلت إلي أمة أمية فيهم الرجل و المرأة؟؟؟ و الجارية و الشيخ الفاني الذي لم يقرأ كتابا قط قال: «إن القرآن أنزل علي سبعة احرف».
سابعا: أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي قيس مولي عمرو بن العاص عن عمرو أن لا قرأ آية من القرآن. فقال له عمرو: إنما هي كذا و كذا، فذكر ذلك للنبي صلّي اللّه عليه و سلم،: (إن هذا القرآن أنزل علي سبعة أحرف، فأي ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا).
ثامنا: روي الطبري و الطبراني عن زيد بن أرقم قال: جاء رجل إلي رسول اللّه فقال: أقرأني ابن مسعود سورة أقرأنيها زيد بن ثابت، و اقرأنيها أبي بن كعب؟؟؟ تلفت قراءتهم، فبقراءة أيهم آخذ؟ فسكت رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم و عليّ إلي جنبه فقال: ليقرأ كل انسان منكم كما علم، فإنه حسن جميل.
تاسعا: أخرج ابن جرير الطبري عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم:
هذا القرآن أنزل علي سبعة أحرف فاقرءوا و لا حرج، و لكن لا تختموا ذكر بعذاب و لا ذكر عذاب برحمة» اه.

حكمة من نزول القرآن علي سبعة أحرف:

حكمة من نزول القرآن علي سبعة أحرف:
1- التيسير عليّ الأمة الإسلامية و خاصة الأمة العربية التي نزل عليها القرآن لها لهجات متعددة علي الرغم أنها تجمعها كلمة العروبة، نأخذ هذا من قوله: «أن هوّن علي أمتي» «و إنّ أمتي لا تطيق ذلك» و غيرها.
التبيان في علوم القرآن، ص: 219

قال المحقق ابن الجزري:

قال المحقق ابن الجزري:
«و أما سبب وروده علي سبعة أحرف فللتخفيف علي هذه الأمة، و إرادة اليسر بها، و التهوين عليها شرفا لها، و توسعة و رحمة و خصوصية لفضلها و إجابة لقصد نبيها أفضل الخلق و حبيب الحق، حيث أتاه جبريل فقال «إن اللّه يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن علي حرف، فقال صلّي اللّه عليه و سلم: أسأل اللّه معافاته و معونته، فإن أمتي لا تطيق ذلك و لم يزل يردد المسألة حتي بلغ سبعة أحرف» ثم قال: و كما ثبت أن القرآن نزل من سبعة أبواب علي سبعة أحرف، و أنّ الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد علي حرف واحد، و ذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام كانوا يبعثون إلي قومهم الخاصين و النبي صلّي اللّه عليه و سلم بعث إلي جميع الخلق، أحمرهم و أسودهم، عربيهم و عجميهم، و كان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، لغاتهم مختلفة، و ألسنتهم شتي، و يعسر علي أحدهم الانتقال من لغة إلي غيرها، أو من حرف إلي آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر علي ذلك و لو بالتعليم و العلاج لا سيما الشيخ و المرأة، و من لم يقرأ كتابا كما أشار إليه صلّي اللّه عليه و سلم، فلو كلفوا العدول عن لغتهم، و الانتقال عن ألسنتهم، لكان من التكليف بما لا يستطاع، و ما عسي أن يتكلف المتكلف و تأبي الطباع» اه.

2- جمع الأمة الإسلامية علي لسان واحد يوحد بينها هو لسان قريش الذي انتظم كثيرا من مختارات ألسنة القبائل العربية التي كانت تختلف إلي مكة في موسم الحج و غيره. و لذلك نزل القرآن علي سبعة أحرف نصطفي ما شاء من لغات القبائل العربية التي تمثلت في لسان القرشيين و هذه حكمة إلهية سامية فإن وحدة اللسان العام من أهم العوامل في وحدة الأمة خصوصا أول عهدها بالتوثب و النهوض.

معني نزول القرآن علي سبعة أحرف:

معني نزول القرآن علي سبعة أحرف:
الأحرف: جمع حرف و الحرف له معان كثيرة قال صاحب القاموس: (الحرف من كل شيء طرفه، و شفيره وحده، و من الجبل اعلاه المحدد، و واحد حروف التهجي «و من الناس من يعبد اللّه علي حرف» أي وجه واحد، و هو ان يعبد، علي السراء لا علي الضراء، او علي شك، او علي غير طمأنينة من أمره، أي لا
التبيان في علوم القرآن، ص: 220
يدخل في الدين متمكنا. «و نزل القرآن علي سبعة أحرف» أي سبع لغات من لغات العرب. و ليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه إن جاء علي سبعة أو عشرة أو أكثر. و لكن معناه أن هذه اللغات السبع متفرّقة في القرآن» اه. بتصرف.
مما تقدم نري أن الحرف من قبيل المشترك اللفظي، و المشترك اللفظي يراد به أحد معانيه التي تعينها القرائن و تناسب المقام.
فالمراء من لفظ الحرف أنه الوجه بدليل ما يأتي:
قوله صلّي اللّه عليه و سلم «أنزل القرآن علي سبعة أحرف».
كلمة (علي) تشير إلي أن هذا الشرط للتوسعة و التيسير. بمعني؛ أنزل القرآن موسعا فيه علي القارئ أن يقرأه علي سبعة أوجه، يقرأ بأي حرف أراد منها علي البدل من صاحبه كأنه قال أنزل علي هذا الشرط و علي هذه التوسعة.

اختلاف العلماء في تفسير الأحرف الواردة في الحديث:

هنا يحتدم الجدال و النزاع، و يكثر القيل و القال. و سنذكر بعضا من الآراء و نرجح ما نراه أقرب للصواب.

1- ذهب بعض العلماء إلي أن المراد بها سبع لغات من لغات العرب في المعني الواحد. علي معني أنه حيث تختلف لغات العرب في التعبير في معني من المعاني يأتي القرآن بألفاظ علي قدر هذه اللغات و إذا لم يكن اختلاف فإنه يأتي بلفظ واحد و قيل:

إن السبعة هي لغة (قريش) و (هذيل) و (ثقيف) و (هوازن) و (كنانة) و (تميم) و (اليمن).

2- و قيل إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن، علي معني أنه في جملته لا يخرج في كلماته عن سبع لغات هي أفصح لغاتهم، فأكثر بلغة قريش، و منه ما هو بلغة هذيل، أو ثقيف، أو هوازن، أو كنانة، أو تميم، أو اليمن.

التبيان في علوم القرآن، ص: 221

قال بعضهم: هذا أصح الأقوال و أولاها بالصواب، و هو الذي صححه البيهقي، و اختاره الأبهري و اقتصر عليه صاحب القاموس.

3- إن المراد بالأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، سبعة أصناف في القرآن.

«و لكن أصحاب هذه الأقوال يختلفون في تعيين هذه الأصناف و في أسلوب التعبير عنها اختلافا كبيرا، فمنهم من يقول: (إنها أمر، و نهي، و حلال، و حرام، و محكم، و متشابه، و أمثال).

و منهم من يقول إنها (وعد، و وعيد، و حلال، و حرام، و مواعظ، و أمثال، و احتجاج).

و منهم من يقول إنها: (محكم، و متشابه، و ناسخ، و منسوخ، و خصوص، و عموم، و قصص) «1».

4- أن المراد بالأحرف السبعة أوجه من الألفاظ المختلفة في كلمة واحدة و معني واحد، نحو: هلمّ، و أقبل، و تعال، و عجل، و اسرع، و قصدي، و نحوي. فهذه الألفاظ السبعة معناها واحد هو طلب الإقبال.

و هذا القول منسوب لجمهور أهل الفقه و الحديث منهم ابن جرير الطبري و الطحاوي و غيرهما.

5- ان المراد بالأحرف السبعة الاختلاف في أمور سبعة:

أ- اختلاف الأسماء إفرادا و تذكيرا و فروعهما.

مثاله قوله تعالي وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ «2» فكلمة

(أمانتهم) قرئ بالجمع و الإفراد.
ب- الاختلاف في تصريف الأفعال من مضارع و ماض و أمر.

---

(1) أنظر: مناهل العرفان، ص 176.
(2) سورة المؤمنون، الآية: 8.

مثاله قوله تعالي رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا «1» قرئ بنصب لفظ (ربنا) علي أنه منادي و بلفظ (باعد) فعل أمر.
و قرئ «ربّنا بعّد» برفع «ربّ» علي أنه مبتدأ و بلفظ «بعد» فعلا ماضيا مضعف العين جملته خبر.
ج- الاختلاف بالإبدال، سواء كان ابدال حرف بحرف كقوله تعالي وَ انْظُرْ إِلَي الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها «2» قرئ بالزاي و بالراء مع فتح النون ..
و قوله سبحانه وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ «3» قرئ (و طلع) فلا فرق في هذا بين الاسم و الفعل أو ابدال لفظ بلفظ كقوله سبحانه كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ «4» قرأ ابن مسعود (كالصوف المنفوش).
د- اختلاف بالتقديم و التأخير إما في حرف كقوله تعالي أَ فَلَمْ يَيْأَسِ «5» قرئ (أ فلم يأيس) و أما في الكلمة نحو (فيقتلون و يقتلون) قرئ بالبناء للفاعل في الأول و للمفعول في الثاني و قرئ بالعكس و كقوله سبحانه وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ «6» قرئ و جاءت سكرة الحق بالموت.
ه- اختلاف وجوه الإعراب كقوله سبحانه ما هذا بَشَراً «7» قرأ ابن مسعود بالرفع و كقوله سبحانه ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ «8» برفع المجيد علي أنه نعت كلمة ذو. و جرها علي أنها صفة العرش.

---

(1) سورة سبأ، الآية: 19.
(2) سورة البقرة، الآية: 259.
(3) سورة الواقعة، الآية: 29.
(4) سورة القارعة، الآية: 5.
(5) سورة الرعد، جزء من الآية: 31.
(6) سورة ق، الآية: 19.
(7) سورة يوسف، جزء من الآية: 31.
(8) سورة البروج، الآية: 15.

و- الاختلاف بالزيادة و النقص كقوله تعالي وَ ما خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثي «1» قرئ (و الذكر و الأنثي) بحذف (ما خلق).
ز- اختلاف اللهجات بالتفخيم و الترقيق و الإمالة و الإظهار و الإدغام و هو كثير و منه الإمالة و عدمها في مثل قوله تعالي هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسي

«2».

و هذا الرأي الأخير قد ذهب إليه الرازي و قاربه كل القرب مذهب ابن قتيبة و ابن الجزري و ابن الطيب و قد أخذ به الشيخ الزرقاني في كتابه مناهل العرفان) و أيّا ببعض الأدلة.

الترجيح:
و أقرب الوجوه إلي الصواب هو المذهب الأخير الذي اختاره الرازي، و اعتمد الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان» و أيده بأدلة منها:
1- إن هذا المذهب هو الذي تؤيده الأحاديث المتقدمة.
2- أنه يعتمد علي الاستقراء التام لاختلاف القراءات و ما ترجع إليه من الوجو السبعة.
3- ان هذا الرأي لا يلزمه محذور.
و الآراء في (الأحرف السبعة) كاملة تجدها في كتاب «مناهل العرفان» للزرقاني و فيها توهين المذاهب الأخري و الرد عليها في ص 165 الي 177.
و نحن ننقل خلاصة هذا المذهب من كلام أبي الفضل الرازي في اللوائح حيث يقول: الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف.
الأول: اختلاف الأسماء من إفراد، و تثنية، و جمع، و تذكير، و تأنيث.

---

(1) سورة الليل، الآية: 3.
(2) سورة النازعات، الآية: 15.
التبيان في علوم القرآن، ص: 224
الثاني: اختلاف تصريف الأفعال، من ماض، و مضارع، و أمر.
الثالث: اختلاف وجوه الإعراب.
الرابع: الاختلاف بالنقص و الزيادة.
الخامس: الاختلاف بالتقديم و التأخير.
السادس: الاختلاف بالإبدال.
السابع: اختلاف اللغات (يعني اللهجات) كالفتح و الإمالة، و الترقيق و التفخيم، و الإظهار و الإدغام و نحو ذلك. أه.

هل الأحرف السبعة موجودة في المصاحف الآن:

1- ذهب جماعة من الفقهاء و القراء و المتكلمين إلي أن جميع هذه الأحرف موجودة بالمصاحف العثمانية.

حجتهم:
1- أنه لا يجوز للأمة أن تهمل نقل شيء منها.
ب- أن الصحابة أجمعوا علي أن الصحف التي نقلها عثمان رضي اللّه عنه من الصحف التي كتبها أبو بكر رضي اللّه عنه.
ج- معني ما تقدم أن الصحف التي عند أبي بكر قد جمعت الأحرف السبعة، و نقلت منها المصاحف العثمانية بالأحرف السبعة كذلك.
د- قول النبي صلّي اللّه عليه و سلّم (إن أمتي لا تطيق ذلك) لا يختص بعهد الصحابة دون غيرهم. و بقاء تيسير القرآن مع بقاء إعجازه.
2- ذهب جماهير العلماء من السلف و الخلف و أئمة المسلمين إلي أن المصاحف العثمانية مشتملة علي ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي صلّي اللّه عليه و سلّم علي جبريل.
التبيان في علوم القرآن، ص: 225
3- ذهب ابن جرير الطبري و من معه إلي أن المصاحف العثمانية لم تشتمل إلا علي حرف واحد من الحروف السبعة.
و قالوا: ان الأحرف السبعة كانت أيام الرسول عليه الصلاة و السلام و أبي بكر و عمر فلما كان عهد عثمان رأت الأمة بقيادته ان تقتصر علي حرف واحد جمعا لكلمة المسلمين. و نسخ عثمان بهذا الحرف الّذي استبقته الأمة وحده جميع المصاحف العثمانية.
قال الزرقاني في «مناهل العرفان» ص 662 ما نصه (و نحن إذا رجعنا بهذه الأوجه السبعة إلي المصاحف العثمانية و ما هو مخطوط بها في الواقع و نفس الأمر، نخرج بهذه الحقيقة التي لا تقبل النقض، و نصل إلي فصل الخطاب في هذا الباب، و هو ان المصاحف العثمانية قد اشتملت علي الأحرف السبعة كلها، و لكن علي معني أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل علي ما يوافق رسمه من هذه الأحرف كلا أو بعضا، بحيث لم تخل المصاحف في مجموعها عن حرف منها رأسا).
و قد بيّن و وضّح الشيخ الزرقاني وجود الأوجه السبعة علي مذهبه المختار و إن الأوجه السبعة موجودة الآن في المصاحف العثمانية و سأكتفي بذكر مثال من أمثلته غير أن بعض الوجوه السبعة ذكر أنه منسوخة بالعرض الأخيرة.
مثاله قوله تعالي وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ «1» المقروءة بجمع الأمانة و إفرادها فقد اشتمل عليها المصحف إذ كان الرسم العثماني فيه هكذا:

«لأمنتهم» برسم المفرد في الحروف و لكن عليها ألف صغيرة لتشير إلي قراءة الجمع و غير منقوطة و لا مشكولة «2».

مناقشة مذهب الطبري:

قال الطبري أن الأحرف الستة نسخت باجماع الأمة في عهد عثمان رضي اللّه عنه

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 8.

(2) أنظر، مناهل العرفان، ص 162.

التبيان في علوم القرآن، ص: 226

و بقي حرف واحد حفاظا لوحدة الأمة الإسلامية من التفرق حين كفّر بعضهم بعضا بسبب اختلاف القراءات و خيفت الفتنة، فلم تجد الأمة حلا لهذه المشكلة إلا جمع الأمة علي قراءة حرف واحد.

الرد عليه:

الرد عليه:
1- الصحابة رضوان اللّه عليهم اختلفوا في القراءة في عهد رسول اللّه و كادت أن تقع فتنة كما قلتم فكيف حلّ الرسول عليه السلام هذه المشكلة؟.
إنما كان حله الوحيد إقرار كل من المختلفين علي القراءة التي قرأ بها و أفهمهم أن تعدد وجوه القراءة هو رحمة من اللّه بهم و تيسير عليهم: كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة.
2- و قال في الحديث (إن أمتي لا تطيق ذلك) و أمته باقية إلي يوم القيامة. كما نشاهد نحن الآن أنّ بعض الشعوب الإسلامية لا يتيسر لها النطق ببعض الحروف و لا تحسن اتقان بعض اللهجات دون بعض.
3- بعد ما عرفنا ما تقدم نقول كيف يسوغ لصحابة رسول اللّه عليهم من اللّه الرضوان، و علي رأسهم عثمان بن عفان اغلاق باب الرحمة و التخفيف الذي فتحه اللّه لأمة الإسلام، مخالفين الرسول عليه الصلاة و السلام في علاجه للنزاع الذي حصل بين الصحابة بتقرير هذا التعدد للحروف.
4- إننا نربأ باصحاب رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم أن يكونوا قد وافقوا أو فكروا علي ضياع ستّة أحرف من القرآن الكريم، و هي لم تنسخ لا تلاوة و لا حكما، و لم يكونوا ليخالفوا الرسول في قوله و عمله.
5- لو كانت هذه الأحرف نسخت في عهد عثمان رضي اللّه عنه لم يبق مجال لاختلاف العلماء فيها و لكننا نجدهم اختلفوا فيها علي نحو من أربعين قولا.
6- لو فرضنا جدلا أن الأحرف الستة نسخت في عهد عثمان فلما ذا لا تبقي
التبيان في علوم القرآن، ص: 227
لمجرد التاريخ فقط في أعظم كتاب مقدس مع أن الصحابة بينوا الآيات المنسوخة تلاوة أو حكما و كذلك الآيات المنسوخة و الأحاديث الموضوعة و بينوا لكل وجهته.
7- و قصاري القول ان الصحابة رضي اللّه عنهم لم يرضوا بمخالفة رسول اللّه في قوله أو فعله و لم يكن لهم التبديل و نسخ ما لم ينسخ من كتاب اللّه و حاشاهم ان يقدموا علي مثل هذا الفعل رضي اللّه عنهم و أرضاهم.

بعض الشبهات الواردة علي الموضوع و الرد عليها

الشبهة الأولي:

الشبهة الأولي:
يقولون: ان المراد بالأحرف السبعة هي القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء.

الرد عليهم:

قولكم هذا باطل من وجوه:

1- إن قول الرسول صلّي اللّه عليه و سلّم (ان هذا القرآن أنزل علي سبعة أحرف) يكون عاريا من الفائدة علي قولكم حتي يولد الائمة السبعة مع أن قولكم غير صحيح، لان الرسول صلّي اللّه عليه و سلّم قرأ بها و صحابته و تابعيه قبل ميلاد القراء.

قال المحقق ابن الجزري (فلو كان الحديث منصرفا الي قراءات السبعة المشهورين او سبعة غيرهم من القراء الذين ولدوا بعد التابعين، لأدي ذلك إلي أن يكون الخبر عاريا عن الفائدة إلي ان يولد هؤلاء السبعة، فتؤخذ عنهم القراءة، و أدي أيضا إلي انه لا يجوز لاحد من الصحابة ان يقرأ إلا بما يعلم ان هؤلاء السبعة من القراء إذا ولدوا و تعلموا اختاروا القراءة به و هذا باطل إذ طريق أخذ القراءة ان تؤخذ عن امام، ثقة لفظا عن لفظ إماما عن إمام إلي ان يتصل بالنبي صلّي اللّه عليه و سلّم») أه.

2- ان الأحرف السبعة أعم من القراءات السبع عموما مطلقا لأن الأحرف

التبيان في علوم القرآن، ص: 228

السبعة تشمل القراءات التي قرأ بها الرسول صلّي اللّه عليه و سلّم و تشمل أيضا ما وصل الي هؤلاء القراء السبعة و ما نسخ قبل ان يصل اليهم و تنتظم جميع القراءات صحيحها و منكرها و شاذها فما دام أن الاحرف اعم من القراءات فلا تكون هي نفس القراءات.

3- من المحال عقلا أن يفرض الرسول عليه السلام قراءة القرآن علي صحابته بقراءة القراء الذين لم يخلقوا بعد، و هذا الرأي باطل.

الشبهة الثانية:

الشبهة الثانية:

يقولون: ان أحاديث نزول القرآن الكريم علي سبعة أحرف تثبت الاختلاف مع ان القرآن نفسه ينفي الاختلاف بقوله تعالي أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «1». و ذلك تناقض و لا ندري أيهما الصادق

الجواب:

الجواب:
ان الاختلاف الذي تثبته الأحاديث غير الذي ينفيه القرآن و علي هذا كلاهما صادق. إذ ان الاختلاف الذي تثبته الأحاديث فيما يتعلق بطرق الأداء و النطق بألفاظ القرآن في دائرة محدودة لا تعدو سبعة أحرف، و بشرط التلقي فيها كلها عن النبي صلّي اللّه عليه و سلّم.
فعلي هذا يكون الاختلاف في الأحاديث بمعني: التنويع اما القرآن فينفي التناقض بين أحكامه و معانيه و تعاليمه مع ثبوت التنويع في التلفظ و الأداء «2».

و الحاصل:
قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: و هذا المجموع في المصحف: هل هو جميع

---

(1) سورة النساء، الآية: 82.
(2) نقلا عن مناهل العرفان ص 179 بتصرف.

التبيان في علوم القرآن، ص: 229
الأحرف السبعة التي اقيمت القراءة عليها؟ أو حرف واحد فيها؟ قال القاضي أبو بكر إنه جميعها، و صرح أبو جعفر الطبري و الأكثرون من بعده بأنه حرف منها، و مال الشيخ الشاطبي إلي قول القاضي فيما جمعه أبو بكر، و إلي قول الطبري فيما جمعه عثمان رضي اللّه عنه.
قال الزركشي في البرهان:
قال بعض المتأخرين: القراءات السبع التي قرأها القراء السبعة كلها صحت عن رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم، و هو الذي جمع عليه عثمان رضي اللّه عنه المصحف، و هذه القراءات السبع اختيارات أولئك القراء، فإن كلّ واحد منهم اختار فيما روي و علم وجهة من القراءة ما هو الأحسن عنه، و لزم طريقة منها و رواها و قرأ بها، و اشتهرت عنه و نسبت اليه، فقيل حرف نافع و حرف ابن كثير، و لم يمنع واحد منهم حرف الآخر و لا أنكره بل سوّغه و حسّنه ..
إلي ان قال: و قد أجمع المسلمون في هذه الأعصار علي الاعتماد علي ما صح عنهم، و كان الانزال علي الأحرف السبعة توسعة من اللّه و رحمة للأمة، إذ لو كلف كل فريق منهم ترك لغته و العدول عن عادة نشئوا عليها، من الإمالة و الهمز، و التليين، و المد، و غيره لشق عليهم.

القراءات المشهورة
في نهاية البحث نري لزاما علينا ان نتكلم علي نبذة مختصرة عن القراءات و كيف نشأت؟ و من هم القراء المشهورون؟

تعريف القراءات:

تعريف القراءات:
القراءات جمع قراءة: مصدر قرأ يقرأ قراءة. و اصطلاحا: مذهب من مذاهب النطق في القرآن يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهبا يخالف غيره في النطق بالقرآن الكريم و هي ثابتة بأسانيدها إلي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم.
التبيان في علوم القرآن، ص: 230

هل كان في عهد الصحابة قراء؟

نعم يرجع عهد القراء الذين اقاموا الناس علي طرائقهم في التلاوة الي عهد الصحابة الكرام.

فقد اشتهر بالإقراء منهم: أبي، و علي، و زيد بن ثابت، و ابن مسعود و أبو موسي الاشعري و غيرهم.

و عن هؤلاء اخذ كثير من الصحابة و التابعين في الأمصار و كلهم يسند إلي رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم الي ان جاء عهد التابعين في المائة الاولي فتجرد قوم و اعتنوا بضبط القراءة عناية تامة حين دعت الحاجة الي ذلك و جعلوها علما كما فعلوا بعلوم الشريعة الأخري.

و نعود و نقول كيف نشأت القراءات:

و نعود و نقول كيف نشأت القراءات:

عرفنا آنفا ان عهد القراء من عهد الصحابة الي عهد التابعين، و ان المعول عليه في القرآن الكريم إنما هو التلقي و الأخذ ثقة عن ثقة و إماما عن إمام الي النبي صلّي اللّه عليه و سلّم.

و كانت المصاحف غير منقوطة و لا مشكولة. و أن صورة الكلمة فيها كانت محتملة لكل ما يمكن من وجوه القراءات المختلفة، و اذا لم تحتملها كتبت الكلمة بأحد الوجوه في مصحف، ثم كتبت في مصحف آخر بوجه آخر و هلم جرا.

فلا غرو ان كان التعويل علي الرواية و التلقي هو العمدة في باب القراءة و القرآن.

ثم ان الصحابة رضوان اللّه عليهم قد اختلف اخذهم عن رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلّم فمنهم من قرأ بحرف و منهم من أخذه عنه بحرفين، و منهم من زاد، ثم تفرقوا في البلاد و هم علي هذه الحال.

و كان عثمان رضي اللّه عنه حين بعث المصاحف الي الآفاق ارسل مع كل مصحف من يوافق قراءته في الأكثر الغالب، و عند تفرق الصحابة في البلدان مع اختلافهم في القراءات نقل ذلك عنهم التابعون و من تبعهم و اختلف بسبب ذلك اخذ التابعين حتي

التبيان في علوم القرآن، ص: 231

وصل الامر علي هذا النحو الي الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا و انقطعوا للقراءات يضبطونها و يعنون بها و ينشرونها.

هذا منشأ علم القراءات و اختلافها و إن كان هذا الاختلاف يرجع في الواقع إلي امور يسيرة بالنسبة لمواضع الاتفاق الكثيرة كما هو معلوم و هذا الاختلاف في حدود الاحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم كلها من عند اللّه.

و يحسن في هذا المقام ان ننقل ما كتبه الشيخ الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان» و قد نقله من كتاب للنويري مخطوط بدار الكتب المصرية وضعه شرحا للطيبة في القراءات.

قال: (و الاعتماد في نقل القرآن علي الحفّاظ، و لذلك ارسل (أي عثمان رضي اللّه عنه) كل مصحف مع من يوافق قراءته في الاكثر و ليس بلازم. و قرأ كل مصر بما في مصحفهم، و تلقوا ما فيه من الصحابة الذين تلقوه عن النبي صلّي اللّه عليه و سلم. ثم تجرد للأخذ عن هؤلاء قوم اسهروا ليلهم في ضبطها، و اتعبوا نهارهم في نقلها، حتي صاروا في ذلك أئمة للاقتداء، و أنجما للاهتداء و أجمع اهل بلدهم علي قبول قراءتهم، و لم يختلف عليهم

اثنان في صحة روايتهم و درايتهم، و لتصدّيهم للقراءة نسبت اليهم، و كان المعول فيها عليهم.

«ثم ان القراء بعد هؤلاء كثروا، و في البلاد انتشروا و خلفهم امم بعد امم، و عرفت طبقاتهم، و اختلفت صفاتهم، فكان منهم المتقن للتلاوة، المشهورة بالرواية و الدراية، و منهم المحصل لوصف واحد، و منهم المحصل لاكثر من واحد فكثر بينهم لذلك الاختلاف و قلّ منهم الائتلاف.

فقام عند ذلك جهابذة الائمة، و صناديد الأمة فبالغوا في الاجتهاد بقدر الحاصل، و ميزوا بين الصحيح و الباطل، و جمعوا الحروف و القراءات، و عزوا الاوجه و الروايات، و بينوا الصحيح و الشاذ، و الكثير و الفاذ بأصول اصّلوها و أركان فصّلوها «1» .. الخ».

---

(1) انظر مناهل العرفان ج 1 ص 407.

عدد القراءات و انواعها

ذكر صاحب كتاب (الإتقان) ان القراءات، متواترة، و مشهورة، و آحاد، و شاذ، و موضوع، و مدرج.

قال القاضي جلال الدين البلقيني: القراءة تنقسم الي متواتر و آحاد و شاذ: فالمتواتر القراءات السبع المشهورة.

و الآحاد قراءة الثلاثة التي هي تمام العشر و يلحق بها قراءة الصحابة.

و الشاذ قراءة التابعين كالأعمش و يحيي بن وثاب، و ابن جبير و نحوهم.

قال السيوطي هذا الكلام فيه نظر و أحسن من تكلم في هذا النوع إمام القراء في زمانه الشيخ ابو الخير بن الجزري قال في اول كتابه «النشر» كل قراءة وافقت العربية و لو بوجه، و وافقت أحد المصاحف العثمانية و لو احتمالا و صح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها و لا يحل انكارها بل هي من الاحرف السبعة التي نزل بها القرآن و وجب علي الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة ام عن غيرهم من الأئمة المقبولين و متي اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة اطلق عليها شاذه او باطله سواء كانت عن السبعة ام عمن هو اكبر منهم، هذا هو الصحيح عند ائمة التحقيق من السلف و الخلف «1».

قال صاحب الطيبة في ضابط قبول القراءات:

و كلّ ما وافق وجه النحو و كان للرسم احتمالا يحوي

و صح اسنادا، هو القرآن فهذه الثلاثة الاركان

و حيثما يختل ركن أثبت شذوذه لو أنه في السبعة

---

(1) أنظر مناهل العرفان، ج 1 ص 409.

التبيان في علوم القرآن، ص: 233

و القراءات: قيل: القراءات السبع، القراءات العشر، و القراءات الأربع عشرة، و أحظي الجميع بالشهرة، و نباهة الشأن، القراءات السبع.

و تنسب هذه القراءات الي الائمة السبعة المعروفين و هم: نافع، و عاصم، و حمزة، و عبد اللّه بن عامر، و عبد اللّه بن كثير، و أبو عمرو بن العلاء، و علي الكسائي.

و القراءات العشر هذه السبعة و زيادة قراءة: أبي جعفر، و يعقوب، و خلف.

و القراءات الأربع عشرة، بزيادة أربع علي قراءات هؤلاء العشرة و هي: قراءة الحسن البصري، و ابن محيص، و يحيي اليزيدي، و الشنبوذي.

أول من صنّف في القراءات:

أول من صنّف في القراءات:
علم القراءات أتي عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا.
و اول من صنف في القراءات امثال ابي عبيد القاسم بن سلّام، و أبي حاتم السجستاني، و أبي جعفر الطبري، و اسماعيل القاضي

متي اشتهرت قراءة السبعة؟

اشتهرت قراءة السبعة علي رأس المائتين في الأمصار الإسلامية.

فكان الناس في البصرة علي قراءة (أبي عمرو) و (يعقوب)، و بالكوفة علي قراءة (حمزة) و (عاصم).

و بالشام علي قراءة (ابن عامر).

و بمكة علي قراءة (ابن كثير).

و بالمدينة علي قراءة (نافع).

متي دونت القراءات؟
دونت في نهاية القرن الثالث ببغداد علي يد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسي بن عباس فجمع قراءات هؤلاء السبعة غير أنه اثبت اسم الكسائي و حذف يعقوب.
التبيان في علوم القرآن، ص: 234

طريقته:
كان آخذا علي نفسه ألا يروي إلا عمن اشتهر بالضبط، و الأمانة، و طول العمر في ملازمة القراءة، و اتفاق الآراء علي الأخذ عنه و التلقي منه.
و اقتصار ابن مجاهد علي هؤلاء السبعة، ليس بحاصر للقراء فيهم، و لا بملزم أحدا أن يقف عند حدود قراءتهم.

القرّاء السبعة المشهورون

القراءات المتواترة نقلت لنا عن القرّاء الحفظة، المشهورين بالحفظ و الضبط و الإتقان. و هم أئمة القراءات المشهورة، الذين نقلوا لنا قراءة الصحابة عن رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم و كان لهم فضل العلم و التعليم، لكتاب اللّه العظيم كما قال صلوات اللّه و سلامه عليه (خيركم من تعلّم القرآن و علّمه) و قد جمع الشيخ ابو اليسر عابدين هؤلاء القراء في بيتين من الشعر فقال:

«فنافع، و ابن كثير، و عاصم و حمزة، ثمّ أبو عمرو همو»
«مع ابن عامر أتي الكسائي ائمة السبع بلا امتراء»

القرّاء السبعة:
1- ابن عامر: اسمه عبد اللّه اليحصبي قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك، و يكني أبا عمران، و هو تابعي، و قد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي، عن عثمان بن عفان، عن رسول اللّه صلّي اللّه عليه و سلم توفي بدمشق سنة ثماني عشر و مائة، و قد اشتهر برواية قراءته هشام و ابن ذكوان.
قال فيهم صاحب الشاطبية:
«و أما دمشق الشام دار بن عامر فتلك بعبد اللّه طابت محللا التبيان في علوم القرآن، ص: 235
هشام و عبد اللّه و هو انتسابه لذكوان بالاسناد عنه تنقلا
2- ابن كثير: هو ابو محمد، عبد اللّه بن كثير الداري المكي كان إمام الناس في القراءة بمكة، و هو تابعي لقي من الصحابة عبد اللّه بن الزبير، و أبا أيوب الأنصاري و أنس بن مالك و توفي بمكة سنة مائة و عشرين.
و راوياه: البزي (ت 250) و قنبل (ت 291 ه).
قال فيهم صاحب الشاطبية:
و مكة عبد اللّه فيها مقامه هو ابن كثير كاثر القوم معتلا
روي أحمد البزي له و محمد علي سند و هو الملقب قنبلا
3- عاصم الكوفي: هو عاصم بن أبي النجود الأسدي، و يقال له: ابن بهدلة، و يكني أبا بكر، و هو تابعي.
توفي بالكوفة سنة 127 او 128 ه و راوياه شعبة (ت 193 ه) و حفص (ت 180 ه).
يقول فيهم صاحب الشاطبية:
و بالكوفة الغراء منهم ثلاثة أذاعوا فقد ضاعت شذي و قرنفلا
فأما أبو بكر و عاصم اسمه فشعبة راويه المبرز أفضلا
و ذاك بن عياش أبو بكر الرضا و حفص و بالاتقان كان مفضلا
4- ابو عمرو: هو ابو عمرو زبّان بن العلا بن عمار البصري شيخ الرواة و قيل اسمه يحيي، و قيل اسمه كنيته، توفي بالكوفة سنة أربع و خمسين و مائة. و راوياه:
التبيان في علوم القرآن، ص: 236
الدوري (ت 246 ه) و السوسي (ت 261 ه).
قال صاحب الشاطبية:
و أما الإمام المازني صريحهم أبو عمرو البصري فوالده العلا
أفاض علي يحيي اليزيدي سيبه فأصبح بالعذب الفرات معللا

أبو عمرو الدوري صالحهم أبو شعيب هو السوسي عنه تقبلا
5- حمزة الكوفي: هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الفرضي التيمي مولي عكرمة بن ربيع التيمي و يكني أبا عمارة توفي بحلوان في خلافة أبي جعفر المنصور سنة 156 ه و راوياه: خلف (ت 229) و خلاد (ت 220 ه) بواسطة سليم.

قال صاحب الشاطبية:

و حمزة ما أزكاه من متورّع إماما صبورا صبورا للقرآن مرتلا
روي خلف عنه و خلاد الذي رواه سليم متقنا و محصلا

6- نافع: هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي أصله من اصفهان، و انتهت اليه رئاسة الاقراء بالمدينة المنورة و توفي بها سنة 169، و راوياه: قالون (ت 220) و ورش «1» (ت 197).

يقول صاحب الشاطبية:

فأما الكريم السر في الطيب نافع فذاك الذي اختار المدينة منزلا

---

(1) قالون: معناه الجيد في أصل وضعها. و ورش: لشدة بياضه.

التبيان في علوم القرآن، ص: 237

و قالون عيسي، ثمّ عثمان ورشهم بصحبته المجد الرفيع تأثّلا

7- الكسائي: هو علي بن حمزة إمام النحاة الكوفيين، و يكني أبا الحسن و قيل له الكسائي لأنه كان في الإحرام لابسا كساء، توفي (برنبويه) قرية من قري الري حين توجه الي خراسان مع الرشيد سنة 189، و راوياه أبو الحارث (ت 242) و الدوري (ت 246).

يقول صاحب الشاطبية:

و أما علي فالكسائي نعته لما كان في الإحرام فيه تسربلا
روي ليثهم عنه أبو الحارث الرضا و حفص هو الدوري و في الذكر قد خلا

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ في سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/41).

قالَ الإمامُ علیّ ُبنُ موسَی الرِّضا – علـَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَـنـادِرُ البِحـار – فی تلخيص بحـار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص 159؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشـَّيخ الصَّدوق، الباب28، ج1/ ص307).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثـَّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابـِذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علـَيهـِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بـِساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنـَةِ 1340 الهجريّة الشمسيّة (=1380 الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسة ً و طريقة ً لم يـَنطـَفِئ مِصباحُها، بل تـُتـَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنـَةِ 1385 الهجريّة الشمسيّة (=1427 الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمع ٍمن خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتـَّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثـَقافة الثـَّقـَلـَين (كتاب الله و اهل البيت عليهـِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشـَّباب و عموم الناس إلی التـَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النـّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثـَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطـّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشـّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثـّها بالأجهزة الحديثة متصاعدة ً، علی أنـّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد - و نشرِ الثـَّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالـَم - مِن جـِهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة

مسابقات القِراءة
ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول
ج) إنتاج المَعارض ثــّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...
د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخـَرَ
ه) إنتاج المُنتـَجات العرضيّة، الخـَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة
و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: 00983112350524)
ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS
ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...
ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة
ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّـِى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنـَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد"/ ما بينَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائى"/بناية"القائميّة"
تاريخ التأسيس: 1385 الهجريّة الشمسيّة (=1427 الهجرية القمريّة)
رقم التسجيل: 2373
الهويّة الوطنيّة: 10860152026
الموقع: www.ghaemiyeh.com
البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com
المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com
الهاتف: 25-2357023- (0098311)
الفاكس: 2357022 (0311)
مكتب طهرانَ 88318722 (021)
التـِّجاريّة و المَبيعات 09132000109
امور المستخدمين 2333045(0311)

ملاحَظة هامّة:
الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شـَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتـُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنـَّها لا تـُوافِى الحجمَ المتزايد و المتـَّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثـَّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلک،

يرجو من جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفـِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التـّمكـّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

